

اعداد مكتبة الروضة الحيدرية المكتبة الرقمية

الرسالة الأولى
الجزء الأول

الملك المعظم عيسى الأيوبي وحكمه لدمشق
(٥٩٢ - ٦٢٤ هـ / ١١٩٥ - ١٢٢٧ م)

رسالة تقدم بها
مهدي صالح فرحان السليفاني

إلى
مجلس كلية التربية في جامعة الموصل
وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير
في
التاريخ الإسلامي

بإشراف
الأستاذ الدكتور
جزيل عبد الجبار شيت الجومرد



قُلْ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ
وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتَذِلُّ
مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

صدق الله

العظيم

سورة آل عمران / الآية (٢٦)

إهداء

إِلَهُ مِنْ أَضَاءَ لِي طَرِيقَ الْخَيْرِ وَالْمَعْرِفَةِ لِشَدِّ أَرْزِي
وَالِدِي الْعَزِيزِ أَطَالَ اللَّهُ فِي عَمْرِهِ

بِرَّاءٍ وَإِحْسَانًا

إِلَهُ مِنْ آثَرْتَنَا عَلَى نَفْسِهَا وَطَوَّتَ اللَّيْلَ مَعَ النَّهَارِ مِنْ أَجْلِنَا
أُمِّي الْحَبِيبَةِ أَطَالَ اللَّهُ فِي عَمْرِهَا

بِرَّاءٍ وَإِحْسَانًا

إِلَهُ مِنْ أَشَدَّ بِهِمْ أَرْزِي وَأَشْرَكَهُمْ فِي أَمْرِي

أَخِي وَأَخَوَاتِي

إِلَهُ نَوْرَ عَيْنِي

وَلَدِي لَسِيفَ وَعَلِي

أَهْدِي هَذَا الْجَهْدَ الْمَتَوَاضِعَ

الْبَاحِثُ

شكر وعرفان :

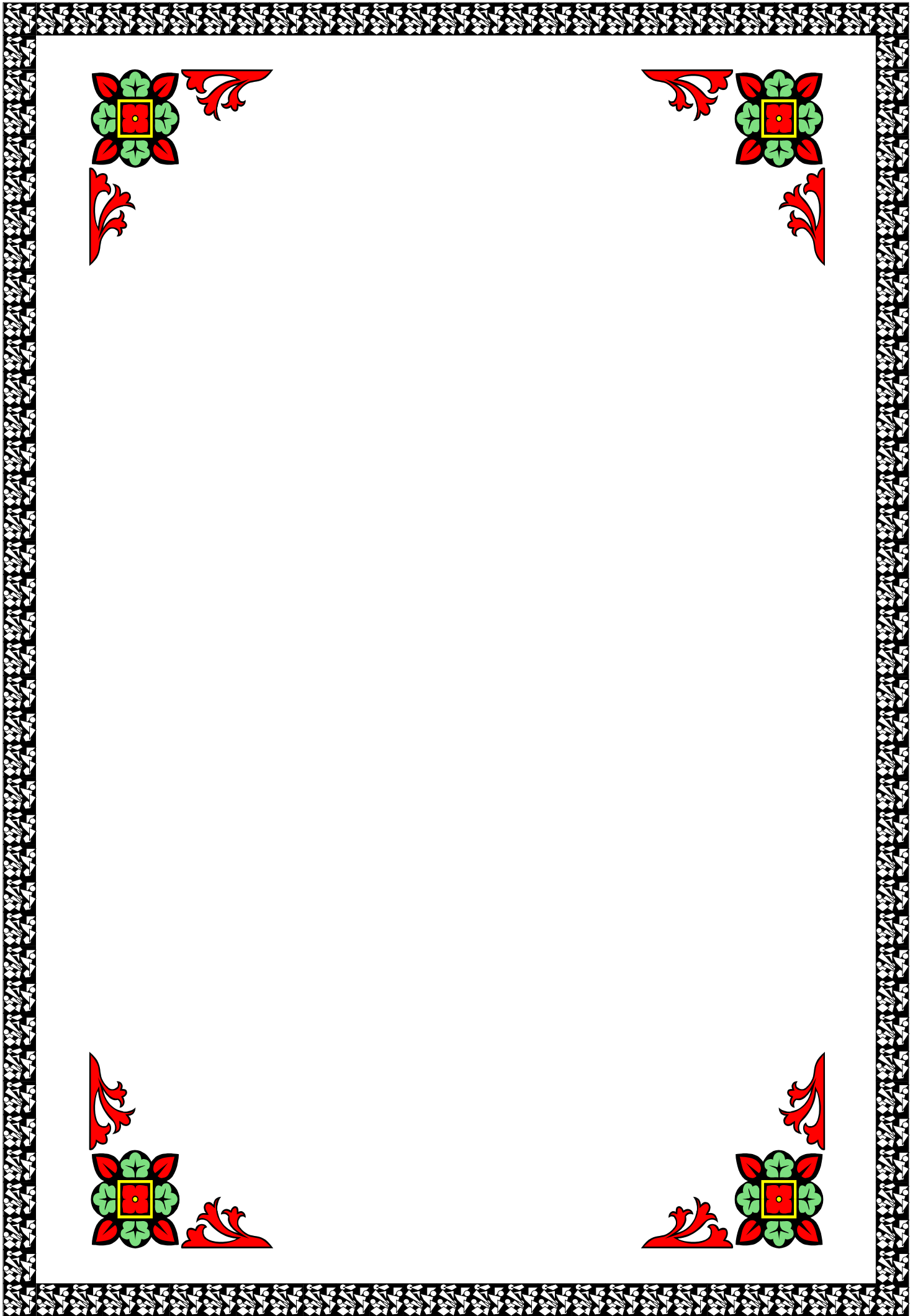
الشكر والحمد لله الواحد الأحد ...

ومن بعده أقدم خالص شكري وامتناني إلى استاذي
المشرف المربي الفاضل الاستاذ الدكتور جزيل عبد الجبار
الجومرد على جهوده التي بذلها معي واحتماله هفواتي بصبر
جميل وسعة صدر طوال فترة اعداد هذا البحث ، جزاه الله عنى
خير جزاء .

كما أوجه شكري إلى الدكتور هاشم عبد الرحمن رئيس
قسم التاريخ المحترم وإلى كافة الاساتذة الافاضل في قسم
التاريخ الذين كان لهم الفضل في وصولي إلى هذه المرحلة .
كما أقدم شكري الجزيل إلى الاستاذ الدكتور ناظم رشيد
لما قدمه لي من مساعدة من خلال تزويدي ببعض المصادر القيّمة
. ولا يفوتني هنا ان أقدم شكري وامتناني إلى الدكتورة ميسون
ذنون عبد الرزاق العبايجي لما قدمته لي من مساعدة .

وإلى منتسبي المكتبة المركزية في جامعة الموصل
والمتحف ومكتبة الأوقاف في محافظة نينوى ، ومكتبة
الدراسات العليا في جامعة بغداد ، والمجمع العلمي العراقي .

ومن الله التوفيق



إقرار المشرف

أشهد بأن إعداد هذه الرسالة الموسومة بـ **﴿الملك المعظم عيسى الأيوبي وحكمه لدمشق (٥٩٢- ٦٢٤هـ / ١١٩٥-١٢٢٧م)﴾** جرى تحت إشرافي في جامعة الموصل ، وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في اختصاص التاريخ الإسلامي .

التوقيع :

المشرف : أ.د. جزيل عبد الجبار شيت الجومرد

التاريخ : / / ٢٠٠٣ م

إقرار المقوم اللغوي

أشهد بأن هذه الرسالة الموسومة بـ **﴿الملك المعظم عيسى الأيوبي وحكمه لدمشق (٥٩٢- ٦٢٤هـ / ١١٩٥-١٢٢٧م)﴾** تمت مراجعتها من الناحية اللغوية وتصحيح ما ورد فيها من أخطاء لغوية وتعبيرية وبذلك أصبحت الرسالة مؤهلة للمناقشة بقدر تعلق الأمر بسلامة الأسلوب وصحة التعبير .

التوقيع :

الاسم : أ.د. عبد الوهاب محمود الكحلة

التاريخ : / / ٢٠٠٣

إقرار رئيس القسم

بناءً على التوصيات المقدمة من قبل المشرف والمقوم اللغوي ، أُرشح هذه الرسالة للمناقشة .

التوقيع :

الاسم : د. هاشم يونس عبد الرحمن

رئيس لجنة الدراسات العليا

التاريخ : / / ٢٠٠٣

كلمة شكر

الشكر و الحمد لله الواحد الاحد . . .

ومن بعده اقدم خالص شكري وامتناني إلى
أستاذي المشرف المربي الفاضل الأستاذ
الدكتور جزيل عبدالجبار الجومرد على جهوده
التي بذلها معي واحتماله هفواتي بصبر جميل
وسعة صدر طوال فترة إعداد هذا البحث ،جزاه
الله عني خير جزاء.

كما أتوجه بشكري ألي الدكتور هاشم يونس
عبد الرحمن رئيس قسم التاريخ المحترم، والى
الأساتذة الأفاضل في قسم التاريخ بكليتي التربية
والآداب لما قدموه لي من ملاحظات علمية
أغنت البحث في المنهج والمحتوى .

كما واوجه شكري وامتناني ألي الأستاذ
الدكتور ناظم رشيد لما قدمه لي من مساعد من
خلال تزويدي ببعض المصادر القيمة . ولا
يفوتني هنا أن اقدم شكري ألي الدكتورة ميسون

دنون عبد الرزاق العباځي لما قدمته لي من
مساعدة.

واقدم شكري ألي منتسبي المكتبة المركزية
في جامعة الموصل والمتحف ومكتبة الأوقاف
في محافظة نينوى ، ومكتبة الدراسات العليا في
جامعة بغداد، والمجمع العلمي العراقي.

ومن الله
التوفيق

الفصل الأول

الملك المعظم عيسى الأيوبي
عصره وحياته

الفصل الثاني

الملك المعظم حاكما على دمشق

الفصل الثالث

**دور الملك المعظم في مواجهة
الصليبيين في بلاد الشام ومصر**

الفصل الرابع

علاقات الملك المعظم مع القوى
الإسلامية المجاورة لملكه

المقدمة

المصادر والمراجع

الخرائط

المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
٧-١	المقدمة
٤١-٨	الفصل الاول الملك المعظم عيسى الايوبي عصره وحياته
٢٩-٨	المبحث الاول : ظهور بني ايوب كقوة سياسية قبل عصر الملك المعظم
١١-٨	١- الأيوبيون في العراق
١٧-١١	٢- سيطرة الأيوبيين على السلطة في مصر
٢٩-١٧	٣- أحوال الدولة الايوبية بعد وفاة السلطان صلاح الدين (٥٨٩هـ/١١٩٣م)
٤١-٢٩	المبحث الثاني : سيرة الملك المعظم عيسى
٣٢-٢٩	١- اسمه ولقبه
٣٣-٣٢	٢- مولده ونشأته
٤٠-٣٣	٣- ثقافة الملك المعظم وشيوخه
٤١-٤٠	٤- وفاته
٧٢-٤٢	الفصل الثاني الملك المعظم حاكماً على دمشق
٥٢-٤٢	المبحث الاول : الملك المعظم حاكماً بالنيابة عن والده (٥٩٢-٦١٥هـ/١١٩٦-١٢١٨م)
٤٥-٤٢	١- استلام المعظم أمر دمشق في حياة والده العادل (٥٩٢هـ/١١٩٦م)
٥٢-٤٥	٢- أطماع الملك الأفضل والملك الظاهر بدمشق
٤٧-٤٥	أ- محاولة سنة (٥٩٥هـ/١١٩٩م) للاستيلاء على دمشق
٥١-٤٧	ب- تحالف الأفضل والظاهر ضد دمشق سنة (٥٩٧هـ/١٢٠١م)

رقم الصفحة	الموضوع
٧٢-٥٢	المبحث الثاني : الملك المعظم حاكماً مستقلاً على دمشق (٦١٥-٦٢٤هـ/١٢١٨-١٢٢٧م)
٥٤-٥٢	١- استقلال الملك المعظم بحكم دمشق (٦١٥هـ/١٢١٨م)
٦٣-٥٤	٢- أوضاع دمشق الادارية في عهد الملك المعظم
٥٦-٥٤	أ- الوزارة
٦٠-٥٦	ب- القضاء
٦٣-٦٠	ج- النيابة
٧٢-٦٣	٣- جهود الملك المعظم العمرانية
٦٤-٦٣	أ- أماكن التعليم
٦٦-٦٤	أولاً : المدارس التي انشأها المعظم بدمشق
٦٤	١- المدرسة المعظمية
٦٥-٦٤	٢- المدرسة العادلية
٧٠-٦٦	ثانياً : جهود الملك المعظم العمرانية بالقدس
٦٩-٦٦	١- المدارس
٦٦	أ- المدرسة المعظمية
٦٧	ب- المدرسة النحوية (القبة النحوية)
٦٩-٦٨	ج- المدرسة النصرية
٧٠-٦٩	٢- المسجد الاقصى وجهود الملك المعظم في ترميمه
٧٢-٧٠	ثالثاً : تحسين طريق الحج بين دمشق ومكة وبناء بعض المنشآت الخدمية
٧١-٧٠	أ- طريق الحج
٧٢-٧١	ب- المنشآت الخدمية

رقم الصفحة	الموضوع
٧٣ - ١٠٠	الفصل الثالث دور الملك المعظم في مواجهة الصليبيين في بلاد الشام ومصر
٨٧-٧٣	المبحث الاول : سياسة المعظم الحربية في الشام حتى سنة (١٢١٥هـ/١٢١٨م)
٧٨-٧٣	١- جهود المعظم العسكرية في محاربة الصليبيين بعكا (١٢١٠هـ/١٢١٠م) ونتائجها
٨٢-٧٨	٢- انتهاء الهدنة والخطوات الدفاعية وبدء المجابهة (١٢١٤هـ/١٢١٧م)
٨٠-٧٨	أ- تحشد الصليبيين في عكا ودور الملك المعظم في مواجهتهم
٨٢-٨٠	ب- حصار الصليبيين لقلعة الطور (١٢١٧هـ/١٢١٧م)
٨٧-٨٢	٣- الحملة الصليبية الخامسة على مصر وسياسة المعظم على أثرها في بلاد الشام .
٨٤-٨٢	أ- سير الحملة إلى دمياط
٨٧-٨٥	ب- سياسة الملك المعظم في الشام قبل توجهه إلى مصر
١٠٠-٨٧	المبحث الثاني : جهود المعظم لنصرة أخيه الملك الكامل
٨٧	١- توجه الملك المعظم إلى مصر
٩٠-٨٧	أ- القضاء على بؤر التآمر بين العسكر الكامل (مؤامرة ابن المشطوب)
٩٢-٩٠	ب- إزالة تحصينات القدس
٩٣-٩٢	ج- سقوط دمياط ونتائجها على سير الاحداث
٩٥-٩٣	٢- عودة الملك المعظم إلى الشام ومحاولاته للقضاء على بعض تحصينات الصليبيين
١٠٠-٩٥	٣- جهود الملك المعظم لتوحيد الجبهة الايوبية وتحرير دمياط

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الرابع علاقات الملك المعظم مع القوى الإسلامية المجاورة للملكه	١٠١-١٢٤
أولاً : علاقات الملك المعظم مع الخلافة العباسية	١٠١-١٠٥
ثانياً : علاقات الملك المعظم مع امراء الأسرة الايوبية	١٠٥-١٢٠
ثالثاً : علاقات الملك المعظم مع الخوارزمية	١٢٠-١٢٤
الخاتمة	١٢٥-١٢٦
الخرائط	١٢٧-١٢٨
المصادر والمراجع	١٢٩-١٤٧

قائمة المختصرات

ت	توفي
ج	الجزء
د.ت	دون تاريخ نشر
د.م	دون مكان نشر
د.ن	دون ناشر
ص	الصفحة
ص ص	الصفحات
ط	الطبعة
ع	العدد
ق	القسم
مج	المجلد
م	ميلادي
هـ	هجري
P.	Page
PP.	Pages
Vol.	Volume

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

تعد الدولة الأيوبية من ابرز الدول التي قامت في المشرق الإسلامي خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، والتي أخذت على عاتقها مقاومة الغزو الصليبي خصوصا في عهد مؤسسها السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب (٥٦٤-٥٨٩هـ/١١٦٨-١١٩٣م) الذي استطاع أن يحرر القدس الشريف سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) بعد أن بقي تحت السيطرة الصليبية مدة تزيد عن تسعينه عاما ، ثم اعقبه تحرير أجزاء واسعة من الساحل الشامي.

وقد برز بعد وفاة صلاح الدين العديد من الحكام الأيوبيين ممن كان لهم دور مهم في مقاومة الصليبيين في بلاد الشام ومصر ومن هؤلاء الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الايوبي (٥٩٢-٦٢٤هـ/١١٩٥-١٢٢٧م) حاكم دمشق ، والذي وقع الاختيار عليه ليكون موضوعا للرسالة وكان وراء هذا الاختيار دوافع عدة، منها: الرغبة في دراسة تاريخ الدولة الأيوبية وخاصة في الفترة التي تلت وفاة صلاح الدين والبحث في تاريخ ملوك وأمراء بني أيوب ، ولا سيما من برز منهم على الصعيدين السياسي والعسكري .

وتكمن أهمية الدراسة أيضاً في عدم وجود دراسة مستقلة ومتكاملة-على حد اطلاعي- عن دور الملك المعظم ونشاطه السياسي أو الحضاري خلال الفترة التي حكم فيها دمشق ، وتعد هذه الدراسة تكملة لرسائل سابقة في إطار دراسة الشخصيات الأيوبية خاصة الملك العادل وأبنائه ، فقد ظهرت دراستان متخصصتان في هذا المجال ، تناولت الأولى شخصية الملك الكامل الأيوبي (٥٩٦-٦٣٥هـ/١٢٠٠-١٢٣٢م) وعصره^(١)، والثانية تناولت شخصية الملك العادل^(٢). ونأمل أن تكون هذه الدراسة مكملة لحلقات التواصل العلمي في مسار الدراسات التاريخية عن أولئك الملوك والأمراء الذين اسهموا في توحيد الجبهة الإسلامية المواجهة للصليبيين .

(١) ذكرى عزيز محمد الصائغ : عصر الملك الكامل ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية الآداب، جامعة الموصل ، ١٩٨٨ .

(٢) هيثم محمود يونس طيبان الحمداني : الملك العادل الايوبي (٥٧٠-٦١٥هـ/١١٧٤-١٢١٨م) ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ٢٠٠٢ .

أما المنهجية العلمية التي اتبعت في هذه الدراسة فهي وصفية تحليلية اعتمدت على المصادر الأصلية ، وقد قسم موضوع الدراسة إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة .

تناول الفصل الأول الموسوم (الملك المعظم عيسى الايوبي عصره وحياته) سيرة الملك المعظم عيسى ، وقد ارتأينا تقسيم الفصل بدوره إلى مبحثين وقفنا في الأول بشيء من التفصيل على ظهور بني أيوب على مسرح الأحداث، وتنقلهم في المناصب الإدارية تباعا حتى تمكن صلاح الدين يوسف بن أيوب من فرض سيطرته على مقاليد الحكم في مصر وإزالة الخلافة الفاطمية هناك ، ثم بادر بتأسيس دولته التي كان لها فيما بعد الدور الأبرز في جهاد الصليبيين حتى تكلفت تلك الجهود بتحرير القدس الشريف (٥٨٣هـ/١١٨٧م) وما أعقبه من أحداث بعد وفاة صلاح الدين . أما المبحث الثاني من هذا الفصل فقد خصص لدراسة السيرة الشخصية للملك المعظم منذ ولادته ، وقد ضم وصفا لثقافته ودأبه المتواصل للتزود بالعلوم المختلفة من فقه ولغة على يد كبار شيوخ عصره.

أما الفصل الثاني الموسوم (الملك المعظم حاكم على دمشق) ، فقد قسّم إلى مبحثين تطرق الأول إلى استلام المعظم لإدارة دمشق نائباً عن والده وما تعرض له من مضايقات من قبل أبناء عمومته الهدف منها إقصاؤه عن دمشق ، في حين ضم المبحث الآخر استقلال الملك المعظم بحكم دمشق سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) بعد وفاة والده والأوضاع الإدارية لملكه من خلال عرض مفصل عن بعض الوظائف الإدارية، فضلاً عن جهوده الحضارية واهتمامه بالمنشآت العلمية التي ربما شكلت ابرز اهتمامات الملك المعظم العمرانية .

وتضمن الفصل الثالث (دور الملك المعظم في مواجهة الصليبيين في بلاد الشام ومصر) من هذه الدراسة دور الملك المعظم في مواجهة الصليبيين في بلاد الشام ومصر وما أبداه من جهود حثيثة لتوحيد الجبهة الإسلامية بوجه الخطر الصليبي المتمثل بالحملة الصليبية الخامسة وما نجم عنها من احتلال لمدينة دمياط حيث كان للملك المعظم الدور الأبرز من بين ملوك بني أيوب في توحيد الجهود لاسترجاع ما خسرته المسلمون في تلك المواجهة .

أما الفصل الرابع (علاقات الملك المعظم مع القوى الإسلامية المجاورة لملكه) ، فقد خصص للحديث عن علاقات الملك المعظم مع بعض القوى الإسلامية المجاورة لملكه وما أسفرت عنه تلك العلاقات أحيانا من تحالفات وتكتلات سياسية كان المعظم يتوخى منها حماية مملكته من أي خطر خارجي خصوصا من قبل أخويه الملك الكامل والملك الأشرف إبان التدهور الذي انتاب علاقاتهم بالملك المعظم .

وقد تضمنت الخاتمة اهم ما توصل اليه البحث من استنتاجات وقضايا مهمة .

تحليل لأهم موارد البحث :

لقد اعتمدت هذه الدراسة على عدد غير قليل من المصادر الأولية والمراجع الحديثة التي أغنت البحث بمعلومات قيمة أعطت صورة واضحة عن مجريات الأحداث السياسية والواقع الحضاري خلال عصر الملك المعظم ، وفيما يلي ذكر لأبرزها :

أولا - المصادر :

يعد كتاب (الكامل في التاريخ) لابن الأثير عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) من كتب التواريخ العامة الحولية والتي أفادت البحث كثيرا وبخاصة ان ابن الأثير كان معاصرا للفترة قيد الدراسة ، حيث سجل بشكل دقيق عددا كبيرا من الروايات التاريخية التي تخص البحث ، لا سيما فيما يتعلق بالأحداث السياسية والعسكرية لمدينة الموصل ، إبان تحالفات الملك المعظم ومظفر الدين كوكبوري (٥٨٦-٦٣٠هـ/١١٩٠-١٢٣٢م) حاكم اربل ضد بدر الدين لؤلؤ (٦١٦-٦٥٧هـ/١٢١٩-١٢٥٨م) حاكم الموصل آنذاك ، فهو يعد بحق من الوثائق السياسية الهامة التي ارتكزت عليها هذه الدراسة .

أما كتاب (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) لسبط ابن الجوزي شمس الدين يوسف (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) فيحتل موقع الصدارة بين المصادر المعتمدة في البحث من حيث أهميته التي تكمن في ان مؤلفه كان معاصرا للملك المعظم واصبح من المقربين إليه إذ رافقه فترة طويلة من حياته ناهزت السبعة عشر عاما (٦٠٧-٦٢٤هـ/١٢١٠-١٢٢٧م) فهو بذلك شاهد عيان على الكثير من الأحداث والوقائع التي رواها ضمن كتابه السالف الذكر مما أهله ان يشكل ركيزة أساسية ارفد البحث بمادة غزيرة عن مختلف الجوانب السياسية والعسكرية.

وكتاب (زبدة الطلب في تاريخ حلب) لابن العديم كمال الدين عمر بن احمد (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م) كان ذو فائدة كبيرة وبالتحديد في الجانب الخاص بعلاقة الملك المعظم مع اتابك حاكم حلب شهاب الدين طغرل ، وهو معاصر للملك المعظم وكان مقيماً بحلب

مما أضفى على رواياته قيمة خاصة في كل ما يتعلق بحلب والأحداث التي دارت حولها ضمن هذه الدراسة .

وقد أغنى كتاب (الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية) لأبي شامة شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م) البحث كثيرا خاصة في جزئه الثاني الخاص بالدولة الأيوبية ، ولاسيما ما يتعلق ببدايات ظهور الملك المعظم على الساحة السياسية والإدارية في بلاد الشام ، ولا يقل عنه أهمية كتابه الآخر (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) المشهور بالذيل على الروضتين ، فقد زود البحث بمعلومات ذات قيمة كبيرة إذ انفرد في بعض الأحيان بروايات لم نجدها عند غيره كما أورد بعض النصوص المهمة المتعلقة بالملك المعظم روها عن سبط ابن الجوزي لم نجد لها ذكرا في كتاب (مرآة الزمان) والتي ربما سمعها ابو شامة من سبط ابن الجوزي شفاهها .

وكتاب (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة) لابن شداد عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) كان ذا أهمية كبيرة لما تضمنه من معلومات قيمة أغنت الفصل الخاص بالجوانب الإدارية والحضارية حيث أمدنا بروايات كثيرة عن نواب الملك المعظم على بعض المدن التابعة لحكمه ، فضلاً عن ذلك فقد زودنا بنصوص مهمة عن الجوانب الحضارية والعمرانية لبلاد الشام خلال فترة حكم الملك المعظم والتي لم تأت على ذكرها المصادر المعاصرة للمعظم وهذا ما أعطاه قيمة خاصة في كثير من الأحيان.

أما كتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) لابن واصل جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٨هـ/١٢٩٧م) فهو من الكتب المختصة بتاريخ الأسرة الأيوبية ، وتكمن أهميته في جزئيه الثالث والرابع إذ يغطي الجزء الثالث الفترة التي حكم فيها الملك المعظم دمشق نائباً عن والده الملك العادل إلى حين وفاة الأخير سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) . بينما يغطي الجزء الرابع الفترة التي استقل فيها المعظم بحكم دمشق حتى وفاته سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م) ومما لاشك فيه أن روايات ابن واصل التاريخية لها قيمة خاصة إذا ما علمنا انه كان مقيماً في بلاد الشام ، ويعتبر شاهد عيان على بعض الحوادث التي دونها عن أواخر حكم المعظم ، ففي سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢م) وخلال مواجهات الأخير مع حاكم حماه الملك الناصر قلج ارسلان (٦١٧-٦٣٥هـ/١٢٢١-١٢٣١م) واستيلائه على المعرة ذكر ابن واصل انه كان مقيماً

بالمعرة برفقة والده جمال الدين بن سالم الذي كان قاضيا هناك وأنه التقى بالملك المعظم فهو بذلك يعد شاهدا على تلك الحادثة .

بينما كان لعدد من مؤلفات المقرئزي تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) أهميتها الخاصة في هذه الدراسة وبخاصة كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك) في جزئه الأول القسم الأول الذي أمدنا بمعلومات وفيرة أغنت البحث ، وكان لكتابه (الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك) فائدة كبيرة حيث أعطانا ترجمة وافية للملك المعظم تضمنت معلومات مهمة أغنت البحث خاصة في الفصل الخاص بسيرته .

وكتاب (الدارس في تاريخ المدارس) للنعمي عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ/١٥٢١م) فهو يعد من المصادر ذات الأهمية البارزة رغم كون مؤلفه متأخرا عن عصر الملك المعظم إلا انه تضمن معلومات مهمة ، لا سيما عن المؤسسات التعليمية وبخاصة المدارس التي أنشأها المعظم خلال فترة حكمه .

ويعد كتاب (معجم الأدباء) لياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) من المصادر القيمة التي أغنت البحث بمعلومات وافية عن اشهر العلماء من مفسرين ولغويين وأدباء ورد ذكرهم ضمن هذه الدراسة ، فضلاً عن التعريف بأشهر نتاجهم العلمي ، وقد حظي الملك المعظم بترجمة وافية ضمن هذا المعجم سلطت الضوء على الكثير من الجوانب العلمية والأدبية لشخصيته .

اما كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي اصيبعة موفق الدين أبي العباس (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) فهو من المصادر المهمة جدا لما تضمنه من الروايات النادرة انفرد بذكرها دون غيره من المؤرخين ، حيث قدم لنا معلومات قيمة عن ابرز الأطباء والصيدلة ممن كانوا على علاقة بالملك المعظم وما شغلوه أحيانا من مناصب إدارية في دولته كالوزارة.

وكتاب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) لأبن خلكان أبي العباس شمس الدين (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) كان ذا قيمة كبيرة جدا لما وفره من معلومات غزيرة عن اغلب أفراد الأسرة الأيوبية ومنهم الملك المعظم الذي حظي بترجمة طويلة تضمنت معلومات مهمة عن سيرته الشخصية وعلاقاته مع أفراد أسرته .

بينما كان كتاب (الجواهر المضوية في طبقات الحنفية) لأبي الوفا محي الدين بن محمد (ت ٧٧٥هـ/١٣٧٣م) مصدرا مهما جدا ، فقد أغنى البحث كثيرا فيما يخص تراجم العلماء والفقهاء الحنفية ممن اخذ الملك المعظم عنهم ثقافته إضافة إلى ذلك فقد أمدنا بترجمة طويلة للملك المعظم كان لها دور بارز في إغناء هذه الدراسة ، ولا سيما في الفصل الذي تناول سيرة الملك المعظم .

اما كتاب (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة) للمقريزي رغم تأخره عن عصر الملك المعظم ، ألا انه يعد من الكتب التي أفادت البحث كثيرا إذ ترجم للمعظم ترجمة طويلة احتوت الكثير من المعلومات القيمة عن سيرته وعلاقاته السياسية ، فضلاً عن منجزاته الحضارية في بلاد الشام .

أما فيما يتعلق بالكتب الجغرافية التي اعتمدت عليها الدراسة فقد كان كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي من أهم المصادر التي استقى منها البحث معظم معلوماته في تحديد مواقع المدن والتعريف بها سواء كانت شامية أم غير شامية ، والتي شكلت مسرحة للأحداث السياسية والعسكرية خلال عصر الملك المعظم .

وتجدر الإشارة هنا ان بقية الكتب الجغرافية المعتمدة كان لها دور مهم في اتمام هذه الدراسة لما وفرت من معلومات غزيرة عن المواقع الجغرافية الواردة في الدراسة والتي كان لها أثر كبير في فهم طبيعة المنطقة الجغرافية ، ومنها كتاب (صورة الارض) لابن حوقل أبي القاسم النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) ، وكتاب (المسالك والممالك) للاصطخري إبراهيم بن محمد (ت ٣٤١هـ/٩٥١م) فقد اسهم وبشكل كبير في تعريف مواقع المدن التي وردت ضمن هذه الدراسة .

اما بقية المصادر التاريخية المستخدمة في البحث ، فقد كان لها أهميتها كل في مكانه وقد قدمت للبحث معلومات هامة ساعدت على فهم مجريات الأحداث لعصر الملك المعظم سواء كانت سياسية أم عسكرية فضلاً عن المعطيات الحضارية لعصره .

ثانياً - المراجع :

أما فيما يتعلق بالمراجع الحديثة التي تخص موضوع البحث فلم نعثر -على حد اطلاعنا - على دراسة مستقلة عن الملك المعظم ، بل كل ما تم الحصول عليه عبارة عن معلومات متناثرة بين مطويات عدد من البحوث والدراسات التي تناولت تاريخ الدولة الأيوبية بشكل عام ، أو دراسات حضارية عن الأيوبيين ودورهم الحضاري ، ولعل أبرزها دراسة لمحمود سعيد عمران بعنوان (الحملة الصليبية الخامسة) الذي أفادنا كثيرا لاسيما فيما يتعلق بدور الملك المعظم الأكثر أهمية في تلك الحملة ، وما أسفر عنه من توحيد الجبهة الأيوبية لمواجهة الصليبيين .

ويعد كتاب (اريل في العهد الاتابكي) لمحسن محمد حسين من المراجع المهمة فيما يتعلق بالعلاقات الإيجابية بين مظفر الدين كوكبوري (٥٨٦-٦٣٠هـ/١١٩٠-١١٣٢م) صاحب اريل والملك المعظم ، وما نتج عنها من تحالفات سياسية .

ومن الدراسات التي أفادت البحث كثيرا في الجانب الحضاري دراسة بعنوان (معاهد العلم في بيت المقدس) لكامل جميل العسلي الذي أسعفنا بقدر كبير من المعلومات عن المؤسسات التعليمية التي أنشأها المعظم في القدس ، فضلاً عن بعض النصوص المهمة المتعلقة بنواب الملك المعظم في القدس .

فضلاً عما سبق ذكره فهناك العديد من المراجع الحديثة أغنت البحث كثيرا وكان لها دور بارز في إتمام هذه الدراسة .

وأخيراً أسأل الله العلي القدير ان لا يؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، فمهما جاهد المرء لإتمام عمل لن يبلغ الكمال فيه لأنها سنة الله في خلقه ، والكمال لله وحده والله ولي التوفيق .

المبحث الاول

ظهور بني أيوب كقوة سياسية قبل عصر الملك المعظم

١- الأيوبيون في العراق :

يرجع نسب الأسرة الأيوبية إلى أيوب بن شادي (ت ٥٦٨هـ/١١٧١م)^(١) الجد الأعلى لهذه الأسرة ، وبه عرف أحفاده وسلالة أولاده ببني أيوب ، وعرفوا كذلك بالايوبيين . أما اصل هذه الأسرة فيرجع إلى الاكراد^(٢)، فهم ينحدرون من قبيلة تعرف بالروادية^(٣) إحدى اشرف القبائل الكوردية التي كانت تقطن في مدينة دوين^(٤) بأطراف اذربيجان ، ولم يُعرف لهم جد بعد شادي الذي يتوقف عنده النسابة والمؤرخون في توثيق نسب بني ايوب ، وما يؤيد هذا

(١) شهاب الدين محمد بن عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي أبو شامة : الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، بيروت ، دار الجيل ، د.ت ، ج ١ ، ص ٢٠٩ ؛ أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن خلكان : وفيات الاعيان وانباء اهل الزمان ، تحقيق : احسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، د.ت ، ج ١ ، ص ٢٥٥ ؛ جمال الدين محمد بن سالم بن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة ، دار القلم ، ١٩٥٣ ، ج ١ ، ص ٣٠ .

(٢) عز الدين علي بن محمد بن الاثير : الكامل في التاريخ ، ط ٣ ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٠ ، ج ٩ ، ص ١٠١ ؛ زين الدين عمر بن الوردي : تنمة المختصر لخبار البشر (المشهور بتاريخ ابن الوردي)، النجف، المطبعة الحيدرية ، ١٩٦٩ ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ؛ موسى بن محمد بن احمد اليونيني : ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد الدكن ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٤ ، ج ١ ، ص ٣٧ ؛ تقي الدين احمد بن علي المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : مصطفى زيادة ، ط ٢ ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٧ ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٢ ؛ احمد بن يوسف بن احمد القرماني : اخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، بيروت ، عالم الكتب ، د.ت ، ص ١٩٤ .

(٣) الروادية : بطن من بطون قبيلة الهذبانية ، وهي من اشهر قبائل الاكراد ، وقد كانت الروادية تنتشر في قرية تدعى أجدانقان إحدى قرى مدينة دوين ، ومولد ايوب بن شادي بها ينظر : ابن خلكان : وفيات ، ج ٧ ، ص ١٣٩ .

(٤) دوين : بلدة في نواحي الران في آخر حدود اذربيجان قرب تفليس . (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي: معجم البلدان ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، د.ت ، ج ٣ ، ص ٤٩١) . وهي من اهم مدن ارمينيا إلى الجنوب من اريوان على خط عرض ٤٥° شمالا . دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة : محمد ثابت الفندي وآخرون ، طهران ، د.ن ، ١٩٣٣ ، مج ٧ ، ص ٣٣٤ .

الرأي قول ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) اورده في سياق حديثه عن نسب بني ايوب "لقد تتبعت نسبته [يقصد بني ايوب] كثيرا فلم اجد أحداً ذكر بعد شاذي^(١) أباً آخر حتى اني وقفت على كتب كثيرة باوقاف بأسم شيركوه وأيوب ، فلم أر فيها سوى شيركوه بن شاذي وايوب بن شاذي ، لا غير"^(٢).

كان أول ظهور لبني ايوب على مسرح الأحداث السياسية للتاريخ الاسلامي عندما اتصل نجم الدين ايوب واخوه اسد الدين شيركوه بمجاهد الدين بهروز^(٣)، الذي كان يشغل منصب الشحنة^(٤) في بغداد^(٥)، ويظهر انه كان هناك علاقة صداقة قديمة بين بهروز وشاذي والد نجم الدين ايوب واسد الدين شيركوه^(٦)، فعندما قدم الاخوان إلى بغداد^(٧) والذي لا نعلم بالضبط وقت قدومهما حظيا بمنزلة رفيعة لدى شحنتها وفاءً لابيئهما ، ونظراً لما أبداه نجم الدين من رجاحة عقل وحسن سيرة فان بهروز فوض اليه دزدارية^(٨) تكريت وذلك بحدود سنة (٥٢٥هـ/١١٣٠م)^(٩).

(١) اختلف المؤرخون في ضبط هذا الاسم ما بين شادي وشاذي والراجح انه شادي ، وهو اسم كردي يعني سعيد او فرحان . (الباحث)

(٢) وفيات ، ج ٧ ، ص ١٤٠ .

(٣) هو مجاهد الدين بهروز بن عبدالله الغياثي ، خادم رومي كان يشغل منصب شحنة العراق من قبل السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي (ت ٥٢٧هـ/١٢٣٢م) وكانت تكريت اقطاعاً له ، وتوفي بهروز سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥م) . للمزيد ينظر : ابن خلكان : وفيات ، ج ٧ ، ص ١٤١ .

(٤) الشحنة : منصب اداري يعني حاكم المدينة ، او من يتولى امر الشرطة فيها . رينهارت دوزي : تكملة المعاجم العربية ، ترجمة: محمد سليم النعيمي، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٢ ، ج ٦ ، ص ١٧٠ .

(٥) ادوارد فون زامباوا : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمة : زكي محمد حسن بك وحسن احمد محمود ، بيروت ، دار الرائد العربي ، ١٩٨٠ ، ص ٣٣٧ .

(٦) ابن خلكان : وفيات ، ج ١ ، ص ٢٥٦ .

(٧) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٠١ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٧ ، ص ١٤١ .

(٨) دزدار : لفظ اعجمي مكون من مقطعين هما (دز) ومعناها القلعة و(دار) بمعنى الحافظ فيكون معناه حافظ القلعة وهو الوالي . ابن خلكان : وفيات ، ج ٧ ، ص ١٤٢ .

(٩) قوام الدين الفتح بن علي البنداري : سنا البرق الشامي ، تحقيق : رمضان ششن ، بيروت ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٧١ ، ص ص ٥٦-٥٧ ؛ دريد عبد القادر نوري : سياسة صلاح الدين في بلاد الشام والجزيرة، بغداد ، مطبعة الارشاد ، ١٩٧٦ ، ص ٦٦ .

لم تسر الأوضاع لصالح نجم الدين والي تكرت لفترة طويلة ، ففي (ربيع الآخر ٥٢٦هـ/شباط ١١٣٢م) نشبت معركة بين الخليفة العباسي المسترشد بالله (٥١٢- ٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٤م) وعماد الدين زنكي (ت ٥٤١هـ/١١٤٦م) صاحب الموصل آنذاك^(١)، انهزم على أثرها جيش عماد الدين ، وخلال انسحابه نحو الموصل قام نجم الدين أيوب بتقديم المساعدة له من خلال إقامة المعابر وتهيئة السفن لعبوره بجيشه إلى الضفة اليمنى لدجلة^(٢)، ويبدو ان ذلك التصرف كان بداية لتدهور العلاقة بين نجم الدين أيوب ومجاهد الدين بهروز فيما بعد ، في حين كان ذلك بداية لنشوء العلاقة الودية بين عماد الدين زنكي وكل من نجم الدين وأسد الدين شيركوه .

لقد سارت الأمور من سيء إلى اسوأ عندما قتل أسد الدين شيركوه رجلاً بتكرت من المماليك المقربين لمجاهد الدين بهروز^(٣). الأمر الذي أثار غضب واستياء الأخير من الاخوين فشرع يطلب من نجم الدين وأخيه شيركوه الرحيل عن تكرت وذلك بحدود سنة (٥٣٢هـ/١١٣٧م)^(٤).

التحاق نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه بالزنكيين :

لم يكن أمام الاخوين في مواجهة تلك الأزمة سوى اللجوء إلى عماد الدين زنكي علّه يذكر لهما ذلك الجميل الذي أسدياه اليه خلال حربه مع الخليفة العباسي ، وما كاد الاخوان

(١) عن تفاصيل تلك المعركة ينظر : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي : المنتظم من تاريخ الملوك والامم والامم ، حيدر آباد الدكن ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٣٩ ، ج ١٠ ، ص ٢٥ ؛ ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق : عبد القادر احمد طليمات ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٣ ، ص ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٠١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٤٨ ؛ سعيد الديوه جي : تاريخ الموصل ، دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٨٢ ، ص ٢٧١ ؛ عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ، الموصل ، مطبعة الزهراء الحديثة ، ١٩٨٥ ، ص ٥٢ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١١ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٢ ؛ شرفخان البديسي : شرفنامه ، ترجمة : محمد علي عوني ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية، ١٩٥٨ ، ج ١ ، ص ٥٦ .

(٤) بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٤ ، ص ٦ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١١ ؛ اسماعيل بن عمر بن كثير : البداية والنهاية ، ط ٤ ، بيروت ، مكتبة المعارف ، ١٩٨٢ ، ج ١٣ ، ص ٢٧ .

يصلان الموصل حتى تحقق لهما ظنهما ، فقد احسن عماد الدين وفادتهما واستقبلهما بحفاوة^(١) ابقيا عنده من المقربين حتى فتح عماد الدين مدينة بعلبك سنة (٥٣٤هـ/١١٣٩م) فعين نجم الدين واليا عليها^(٢)، واستمر حاكما عليها حتى اغتيال عماد الدين سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م)^(٣)، اما اسد الدين شيركوه فقد التحق بخدمة نور الدين محمود ابن عماد الدين ولازمه حتى امتلك نور الدين مدينة حلب بعد وفاة والده فاسند إلى شيركوه مهمة قيادة جيشه وأضحى من أكابر أمراء نور الدين^(٤).

٢ - سيطرة الأيوبيين على السلطة في مصر :

كانت الخلافة الفاطمية في مصر تسير من ضعف إلى ضعف ، وتعاني من اضطرابات سياسية وصراعات بين كبار الامراء على منصب الوزارة^(٥)، نتيجة مساوىء سياسة الوزراء المصريين وتحالفاتهم المشبوهة مع الصليبيين ، كل ذلك دفع نور الدين محمود ان يصدر أوامره إلى قائد جيشه أسد الدين شيركوه بان يسير إلى مصر وذلك سنة (٥٥٩هـ/١١٦٣م)^(٦) خوفا على البلاد من السقوط بأيدي الصليبيين ، ورغبة منه بتوحيد

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٠١ .

(٢) أبو يعلى حمزة بن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، مطبعة الاباء اليسوعيين ، ١٩٠٨ ، ص ٢٧٠ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٧ ، ص ١٤٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ص ٨٥-٨٦ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور : الناصر صلاح الدين ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، د.ت، ص ٦٨ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل ، ص ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٢١ ؛ ابن الاثير : الباهر ، ص ٢٧٤ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٠٢ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٧ ، ص ١٤٣ .

(٥) ابرز تلك النزاعات ما جرى بين أبو شجاع شاور (ت ٥٦٤هـ/١١٦٩م) وزير الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي وأبو الاشبال ضرغام بن عامر (ت ٥٥٩هـ/١١٦٣م) الذي استولى على الوزارة الفاطمية سنة (٥٥٨هـ/١٢٦٢م) . للمزيد ينظر : أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ص ١٣٠-١٣٢ ؛ محمد جمال الدين سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠ ، ص ص ١٠٤-١٠٥ .

(٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ص ١٣٠-١٣١ ؛ محمد اديب آل تقي الدين الحصري : منتخبات التواريخ التواريخ لدمشق ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٩ ج ١ ، ص ١٥٧ ؛ عبدالله بن محمد الغامدي : صلاح الدين والصليبيون ، بيروت ، دار الندوة الجديدة ، ١٩٨٥ ، ص ٤١ ؛ ناصر عبد الرزاق عبد الرحمن ملا جاسم : صلاح الدين الايوبي في الدراسات الاستشراقية الانكليزية والامريكية ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ١٩٩٢ ، ص ص ٦٦-٨٧ .

الجهتين الشامية والمصرية لتطويق الصليبيين وجعلهم بين شقي الرchy ضمن اطار جهود ايجابية لبناء جبهة جهاد متحدة لصد الوجود الصليبي في بلاد الشام وتعمل على حصره .

سار شيركوه على رأس ثلاث حملات عسكرية إلى مصر لتثبيت اوضاعها الداخلية^(١)، وبرفقته ابن اخيه صلاح الدين يوسف^(٢)، وتشير بعض المصادر ان خروجه إلى مصر لم يكن وفق مزاجه^(٣)، وكان آخر تلك الحملات سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م) حيث تمكن شيركوه من إعادة الاستقرار السياسي إلى مصر بقضائه على الفتن الداخلية^(٤)، فاستدعاه الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله (ت ٥٦٧هـ/١١٧١م) وأسند اليه منصب الوزارة في (١٧ ربيع الآخر ٥٦٤هـ/ ١٨ كانون الثاني ١١٦٩م) ولقبه بالملك المنصور^(٥).

(١) عن تفاصيل الحملات الثلاثة ينظر : ابن شداد : النوادر ، ص ص ٣٦-٤٠ ؛ البنداري : سنا البرق، ص ص ٦٠ - ٦٦ ، ٧٥-٨٠ ؛ ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ص ٨٤-٨٦ ، ٩٤-٩٦ ، ٩٩-١٠١ .

(٢) عن سيرة صلاح الدين ينظر : أبو عبدالله محمد بن محمد العماد الاصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي، القاهرة ، مطبعة الموسوعات ، ١٩٠٣ ؛ ابن شداد : النوادر ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٧ ، ص ص ١٣٩-٢١٨ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٠٠ ؛ ابن شداد : النوادر ، ص ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ؛ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات : تاريخ الدول والملوك (المشهور بتاريخ ابن الفرات) ، تحرير : حسن محمد الشماع ، البصرة ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٦٩ ، مج ٤ ، ج ١ ، ص ٢٧ .

(٤) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٧ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ؛ شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي : دول الاسلام ، نشر : عبدالله بن ابراهيم الانصاري ، قطر ، دار احياء التراث الاسلامي ، ١٩٨٨ ، ج ٢ ، ص ٧٧ ؛ شاعر احمد أبو بدر : الحروب الصليبية والاسرة الزنكية ، بيروت ، الجامعة اللبنانية ، ١٩٧٢ ، ص ص ٣٣٤ - ٣٣٨ .

(٥) أبو الحسن جمال الدين بن ظافر : اخبار الدول المنقطعة ، تحقيق : اندريه فريه ، القاهرة ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، د.ت ، ص ١١٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٧ ؛ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر (المشهور بتاريخ ابن خلدون)، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، د.ت ، ج ٥، ص ٢٤٧ .

لم ينعم أسد الدين شيركوه بمنصبه الجديد طويلا إذ توفي فجأة في (٢٢ جمادي الآخر ٥٦٤هـ / ٢٣ آذار ١١٦٩م) أي بعد حوالي شهرين من توليه وزارة العاضد^(١)، وما ان توفي شيركوة حتى اسند الخليفة الفاطمي وزارة مصر إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب ليشغل مكان عمه ، حيث استدعاه الخليفة إلى قصره ليفوض اليه أمر الوزارة وذلك في (٢٥ جمادي الآخر ٥٦٤هـ / ٢٦ آذار ١١٦٩م) ، وبذلك اصبح صلاح الدين وزيرا للخلافة الفاطمية ولقب بالملك الناصر صلاح الدين^(٢).

بعد أن أحكم صلاح الدين قبضته على الادارة بمصر حتى أخذ يستميل خواطر الناس متخذا في ذلك سياسة التقرب إليهم بسبل شتى ، فألغى المكوس^(٣)الفاطمية^(٤)، وبذل الأموال والهبات حتى احبه الناس فساسهم سياسة حسنة^(٥)، ومما زاد مركزه قوة بين الناس تمكنه من صد الهجمة الصليبية على دمياط في (صفر ٥٦٥هـ / تشرين الاول ١١٦٩م)^(٦)التي جاءت رد رد فعل سريع من قبل صليبي الشام على ما حققه نور الدين محمود بتوحيده الجبهتين الشامية والمصرية الأمر الذي افزع الصليبيين وحجّم خطرهم . وبعد ان تمكن صلاح الدين من السيطرة على السلطة في مصر بادر بتنفيذ الخطوة اللاحقة ضمن سياسته الرامية إلى

(١) ابن شداد : النوادر ، ص ٤٠ ؛ شمس الدين يوسف قزأوغلو سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، حيدر آباد ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٢ ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٢٧٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٨ ؛ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مطابع كوستانتوماس ، د.ت ، ج ٥ ، ص ٣٨٩ .

(٢) ابن ظافر : أخبار الدول ، ص ١١٦ ؛ ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٢ ؛ كمال الدين عمر بن احمد بن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق : سامي الدهان ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٨ ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ .

(٣) المكوس : جمع مكس ، وهو نوع من انواع الضرائب تؤخذ عن البضائع التجارية . ينظر : جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب ، اعداد وتصنيف : يوسف الخياط ، دار لسان العرب ، د.ت ، حرف الميم ، ص ٥١٥ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٠٢ ؛ نوري : سياسة صلاح الدين ، ص ٩٥ .

(٦) ابن شداد : النوادر ، ص ٤١ - ٤٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٧٩ - ٨٣ ؛ ابن الفرات : الفرات : تاريخ ، مج ٤ ، ج ١ ، ص ٨٤ - ٨٧ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ١١١ ؛ ملا جاسم : صلاح الدين ، ص ٩٥ .

توحيد الجبهة الاسلامية ، فما ان سنحت الفرصة بمرض الخليفة العاضد لدين الله في (محرم ٥٦٧هـ/ ايلول ١١٧١م) حتى أمر صلاح الدين بقطع الخطبة الفاطمية والخطبة للخليفة العباسي المستضيء بنور الله (٥٦٦-٥٧٥هـ/ ١١٧٠-١١٧٩م) في اول جمعة من شهر محرم سنة (٥٦٧هـ) الموافق للعاشر من أيلول سنة (١١٧١م)^(١)، وبذلك تمكن صلاح الدين من إلغاء الخلافة الفاطمية بمصر والتي استمرت زهاء قرنين فعادت الوحدة المذهبية بين الشام ومصر. أما الخليفة العاضد فانه توفي بعد ذلك بثلاثة ايام من اعلان الخطبة العباسية بمصر^(٢).

ان إعلان الخطبة العباسية ، و وفاة آخر الخلفاء الفاطميين لم يؤدي إلى استتباب الامور لصالح صلاح الدين ، بل واجهته متاعب جمّة هددت نفوذه كان أبرزها ظهور بعض دعاة الخلافة الفاطمية محاولين إعادتها إلى مصر ، ففي سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) دبرت مؤامرة بزعامة عمارة اليمني^(٣) للتخلص من صلاح الدين وإعادة الخطبة الفاطمية في القاهرة،

(١) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٣٧ ؛ ابن شداد : النوادر ، ص ٤٥ ؛ عماد الدين اسماعيل أبو الفداء : المختصر في اخبار البشر ، القاهرة ، المطبعة الحسينية المصرية ، د.ت ، ج ٣ ، ص ٥٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٥٦ ؛ ستانلي لين بول : طبقات سلاطين الاسلام ، ترجمة : مكي طاهر الكعبي ، بغداد ، دار منشورات البصري ، ١٩٦٨ ، ص ٧٢ .

(٢) ابن ظافر : اخبار الدول ، ص ١١٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٠١ ؛ محمد بن احمد بن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، د.م ، مطابع الشعب ، ١٩٦٠ ، ج ١ ، ص ٥٤ .

(٣) عمارة اليمني : هو عمارة بن علي بن زيدان اليمني ، مؤرخ وشاعر مشهور من اهل اليمن ، قدم إلى مصر سنة (٥٥٠هـ/ ١١٥٥م) ايام الخليفة الفائز ، فاحسن الفاطميون اليه واقام عندهم ومدحهم وما زال مواليا لهم حتى سقوط دولتهم ، وله عدة مصنفات منها اخبار اليمن ، واخبار الوزراء المصريين . للمزيد ينظر : الاصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق : شكري فيصل ، دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٦٤ ، ج ٣ ، قسم شعراء الشام ، ص ١٠١-١٠٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٤٣-٢٤٤ .

لكن هذه المؤامرة لم يكتب لها النجاح وكشفت قبل ان تنفذ^(١)، بفضل شخص يدعى زين علي بن نجا (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٢م) وهو من المقربين لصلاح الدين^(٢).

ان رجوع مصر إلى حاضرة الخلافة العباسية واعادة الوحدة بينها وبين الشام حقق لنور الدين محمود ما كان يصبو اليه من توحيد الجبهة الاسلامية المواجهة للصليبيين . الا انه لم ينعم كثيرا بذلك الانجاز حيث وافته المنية في (أواخر شوال ٥٦٩هـ/أواخر ايلول ١١٧٤م)^(٣)، فتزعزت بذلك وحدة الجبهة الاسلامية ، وتولى الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود (٥٥٨-٥٧٧هـ/١١٦٣-١١٨١م) وهو في الحادية عشر من عمره الحكم مكان ابيه بدمشق^(٤)، فثارت الأطماع في امتلاك دولته ، الأمر الذي أثر سلبا على تلك الوحدة التي ارسى قواعدها نور الدين محمود ، فلم يكن امام صلاح الدين لمواجهة تلك المستجدات على الساحة السياسية سوى القيام بتسلم السلطة في دمشق خصوصا بعد استنجد شمس الدين محمد بن المقدم -وهو احد امراء الملك الصالح - بصلاح الدين للقدوم إلى دمشق^(٥). ويروي سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) قولاً لصلاح الدين في خضم تلك الاحداث "انما جئت من مصر خدمة لك [يقصد الملك الصالح] لأؤدي ما يجب من حقوق المرحوم [نور الدين] فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك وتختل أمورك وما قصدي إلا

(١) عن تفاصيل تلك المؤامرة ينظر : أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ص ٢٤٣ - ٢٤٤ ؛ عبدالله ناصح علوان : صلاح الدين الايوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين ، ط ٤ ، القاهرة ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٣ ، ص ٣٢ .

(٢) كان الواعظ زين الدين علي بن نجا قد تمكن من الانضمام إلى المتآمرين متظاهرا بموالاتهم ، وبعد اطلاعه على تفاصيل المؤامرة كشف ذلك لصلاح الدين الذي لم يتأخر في القاء القبض على المتآمرين وعلى رأسهم عمارة اليمنى الذي صلب في (رمضان ٥٦٩هـ/نيسان ١١٧٤م) . للمزيد من التفاصيل ينظر : ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٢٣ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥١٥ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩ .

(٣) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٦١ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٩ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ص ١٨٤-١٨٨ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٢٦ ؛ الرهاوي : تاريخ الرهاوي المجهول ، تعريب الاب البيرا ابونا ، بغداد ، مطبعة شفيق ، ١٩٨٦ ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٢٨٥ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩ .

جمع كلمة الإسلام على الفرنج^(١)، فما كان حينها أمام صلاح الدين سوى التوجه صوب دمشق فسار إليها في (ربيع الآخر ٥٧٠هـ/تشرين الأول ١١٧٤م) حيث تسلمها دون قتال^(٢)، وكانت بادرة خير في ضمان عودة توحيد الجبهة الإسلامية المواجهة للصليبيين .

استمر صلاح الدين يوسف قدما في سياسته الرامية إلى توحيد الجبهة الإسلامية استعدادا للمواجهة الفاصلة التي كان ينشد منها استرداد بيت المقدس ، فبعد ان استقر له الأمر بدمشق توجه بأنظاره نحو حلب التي حاصرها في محرم (٥٧٩هـ/نيسان ١١٨٣م) ودارت بينه وبين عسكر حلب سلسلة من المواجهات اسفرت عن تسليم المدينة للسلطان في صفر من العام نفسه^(٣)، وبذلك أصبحت مقاليد بلاد الشام بيده ، ثم اخذ يفكر بالموصل التي قاومت كثيرا محاولاته الرامية للسيطرة عليها لكنها دخلت في طاعته بحلول عام (٥٨١هـ/١١٨٥م)^(٤)، وتجدر الإشارة هنا ان صلاح الدين بهذا الانجاز الذي حققه من خلال سيطرته على اغلب مدن الشام ومن ثم توحيدها مع مصر فضلاً عن ضمانه وقوف الموصل إلى جانبه ، كل ذلك أهله ان يوجه ضربة قاصمة للصليبيين فيما بعد ، فأخذ يعد العدة للمعركة الفاصلة فكانت حطين التي خاض غمارها في (٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ/٣ تموز ١١٨٧م)^(٥)، والتي مهدت الطريق لتحرير بيت المقدس ومعظم مدن الساحل (ساحل البحر المتوسط) من الاحتلال الصليبي^(٦).

(١) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

(٢) ابن الاثير : الباهر ، ص ص ١٧٦ - ١٧٧ ؛ ابن شداد : النوادر ، ص ٥٠ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ص ٢٣٥-٢٣٦ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٢٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤ .

(٣) محمد بن تقي الدين بن عمر بن شاهنشاه الايوبي : مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق : حسن حبشي ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٦٨ ، ص ١٠٤ ؛ ابن شداد : النوادر ، ص ٥٩ ؛ ابن العديم : زبدة ، ج ٣ ، ص ص ٦٧-٦٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ص ١٤١-١٤٢ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩ .

(٥) ابن شداد : النوادر ، ص ص ٧٥ - ٧٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ص ١٨٨-١٩٤ ، ٢١١ ؛ ٢١١ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٩٣ .

(٦) للمزيد من التفاصيل عن فتوحات السلطان صلاح الدين ينظر : سهيل زكار : حطين والفتح الصلاحي للقدس ، بيروت ، دار الفكر ، ٢٠٠٢ .

ان النصر الذي حققه صلاح الدين جاء نتيجة حتمية لسياسة ناجحة امتدت حوالي ستة عشر عاما متواصلة انتهجها لنشر ثقافة الجهاد ورص صفوف المسلمين لتوحيد الكلمة والقوى في مواجهة العدو المشترك ، الأمر الذي مكنه في نهاية المطاف من تحرير بيت المقدس بعد احتلال دام حوالي تسعين عاما .

٣. أحوال الدولة الأيوبية بعد وفاة السلطان صلاح الدين (٥٨٩هـ/١١٩٣م) :

لم يمتد الأجل بصلاح الدين طويلا بعد تحريره بيت المقدس ، فقد انهكته الحروب ضد الصليبيين طيلة العقدين الأخيرين من حياته إذ توفي بدمشق في (٢٧ صفر ٥٨٩هـ/ ٤ آذار ١١٩٣م)^(١) تاركا وراءه دولة مترامية الأطراف^(٢)، وفراغا سياسيا كبيرا لم يتمكن احد من أبناءه أو اخوته ان يملأه^(٣)، وما ان توفي صلاح الدين حتى دب الشقاق بين ابناءه حيث كان ذلك التقسيم الاداري الذي عمد اليه في حياته من بين ابرز الاسباب التي أدت إلى بروز النزاعات بين افراد الاسرة الايوبية يحركها حب السلطة إضافة إلى المنافسات بين الامراء الايوبيين من اجل توسيع املكهم .

لقد تعطلت وحدة الدولة الايوبية التي كان السلطان صلاح الدين قد فرضها بشخصيته وسلطته ، وربما يصح قول هملتون جب بهذا الصدد عند وصفه حال الدولة الايوبية بان "كل الاقاليم في الواقع اصبحت امارات مستقلة ومنفصلة"^(٤) إذ تجزأت تلك الدولة بين ابناء صلاح الدين وبعض افراد الاسرة الايوبية وفق تقسيمات الأخير لها عندما جعل ابنه الاكبر الأفضل نور الدين علي (٥٦٥ - ٦٢٢ هـ/ ١١٦٩ - ١٢٢٥م) ولياً لعهدده وحاكما لدمشق ، بينما اسند ادارة مصر إلى ابنه الاصغر العزيز عثمان

(١) الاصفهاني : الفتح القسي ، ص ٦٢٧ ؛ ابن شداد : النوادر ، ص ٢٤٦ ؛ ابن شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٣ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٧ ، ص ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٢) للاطلاع على حدود الدولة الايوبية ينظر الخارطة رقم (١) .

(٣) عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٢ ، ص ٦١ ؛ محمد حسين محاسنة : دراسات في التاريخ الاسلامي ، اريد ، دار الامل للنشر والتوزيع ، ١٩٩٠ ، ص ١٣٠ .

(٤) صلاح الدين الايوبي ، ترجمة وتحرير : يوسف ايوبش ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣ ، ص ٢٠٣ .

(٥٦٧-٥٩٥هـ/١١٦٩-١١٩٨م) الأخ غير الشقيق للأفضل ، اما ابنه الثالث وهو الظاهر غازي (٥٦٨-٦١٣هـ/١١٧١-١٢١٦م) فقد كانت حلب من نصيبه ، في حين كان الملك العادل سيف الدين - اخو صلاح الدين - قد استلم ادارة الكرك^(١) والشوبك^(٢) فضلا عن الجزيرة وديار بكر . اما بقية افراد الاسرة الايوبية فكان لهم ما تبقى من المدن والامارات الاقل شأننا حيث أخذ الظافر خضر (٥٧٣-٦٣٢هـ/١١٧٧-١٢٣٤م) وهو شقيق الأفضل مدينة بصرى ، واحتفظ المنصور محمد بن تقي الدين عمر (٦١٧هـ/١٢٠م) بحماه ، اما المجاهد شيركوه (الثاني)^(٣) ابن محمد (٥٥٩هـ-٦٣٧/١١٦٣-١٢٣٩م) فبقي بحمص حاكما لها في حين بقيت اليمن بيد سيف الاسلام طغتكين^(٤) (ت ٥٩٣هـ/١٢٥٦م) أخو صلاح الدين .

لقد ترتب على ذلك التقسيم ان عادت بلاد الشام لتتجزأ مرة أخرى إلى ممالك وامارات تسودها النزاعات بين الاخوة الملوك ، وكنتيجة لتلك النزاعات ظهرت على الساحة السياسية تكتلات واحلاف سريعة الالتئام والانفكاك للمحافظة على توازن القوى وخدمة مصالح الامراء، ويأتي في مقدمة تلك النزاعات ما جرى بين الملك العزيز صاحب مصر واخيه الملك الأفضل حاكم دمشق ، فان الاخير عندما استقل بالحكم استوزر ضياء الدين ابن الاثير^(٥) الذي

(١) الكرك : قلعة حصينة جداً تقع على طرف الشام الجنوبي من جهة الحجاز بين ايلة (خليج العقبة) وبحر القلزم(البحر الاحمر) وهي على جبل عالٍ تحيط به الأودية الا من جهة واحدة. ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٤ ، ص٤٥٣ .

(٢) الشوبك : قلعة حصينة تقع على الجنوب من الكرك على بعد ثلاثة مراحل ، وهي على تل مرتفع مطل على غور الاردن من جهة الشرق . أبو الفداء : تقويم البلدان ، تصحيح : رينو والبارون ماك كوكين ديسلان ، باريس ، دار الطباعة السلطانية ، ١٨٤٠ ، ص٣٤٧ .

(٣) اطلقنا عليه (الثاني) تمييزاً له عن اسد الدين شيركوه عم صلاح الدين . (الباحث) .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج٩ ، ص ص ٢٢٦-٢٢٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ص ٣-٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص٨٧ ؛ احمد شلبي : موسوعة التاريخ والحضارة الاسلامية ، ط٢ ، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٢ ، ج٥ ، ص١٧٢ ؛ لين بول : الدول الاسلامية ، ترجمة : محمد صبحي فرزاد ، دمشق ، مكتب الدراسات الاسلامية ، د.ت ، ق١ ، ص١٤٣ .

(٥) ضياء الدين بن الاثير : هو أبو الفتح نصر الله بن عبد الكريم الجزري ، اديب من الموصل ، وهو احد ثلاثة اخوة عرفوا بابناء الاثير ، الاول مجد الدين بن الاثير (٥٤٤-٦٠٦ / ١١٤٩-١٢٠٩م) اشتهر بعلوم الحديث،

زعمت بعض المصادر انه لم يحسن سياسة الدولة بل انه استبد بالامور وحسن للافضل ابعاد امراء ابيه وكبار أصحابه^(١)، ربما محاولة منه للانفراد بامور الادارة والحكم دون سواه، ونتيجة لتلك لسياسة رحل اغلب امراء صلاح الدين إلى مصر حيث لقوا ترحيباً وإكراماً من الملك العزيز ، وبعد ان استقر اولئك الامراء بمصر أشاروا على العزيز ضرورة ضم دمشق إلى سيادته لتكون "كلمة الاسلام مجتمعة"^(٢)، كما ان تخاذل الملك الأفضل في استعادة جبيل^(٣) التي استولى عليها الصليبيون^(٤)، اظهر عدم قدرته المحافظة على ما بيده من بلاد . كل ذلك برر للملك العزيز الخروج من مصر في (جمادي الاخرة ٥٩٠هـ / ايار ١١٩٤م) قاصدا دمشق لأخذها من الأفضل^(٥)، فما ان علم الأفضل بتحركات أخيه العسكرية حتى استنجد بعمه الملك العادل الذي تمكن من حسم النزاع على أثر عقد الصلح بين الطرفين والذي تضمن وضع ترتيب جديد لبعض املاك الأسرة الأيوبية حيث كان على الأفضل بموجب ذلك الصلح ان يتنازل عن جبلة^(٦) واللاذقية^(٧) لأخيه الظاهر غازي صاحب حلب ،

والثاني عز الدين بن الاثير (٥٥٥-٦٣٠هـ / ١١٦٠-١٢٣٢م) المؤرخ المشهور صاحب كتاب (الكامل في التاريخ) ، وكان ضياء الدين شابا في حدود العشرين من عمره عندما التحق بالأفضل ، وتميز بأسلوبه الجيد في الكتابة الذي أهله لخدمة السلاطين والملوك الايوبيين خلال فترات حياته ومن مؤلفاته كتاب (المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر) ، توفي في بغداد سنة (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) . للمزيد من التفاصيل ينظر : جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ج ٢ ، ص ٣١٥ ؛ عباس القمي : الكنى والالقاب ، ط ٣ ، النجف ، المطبعة الحيدرية ، ١٩٦٩ ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٠ ؛ أبو بكر عبدالله بن ابيك الداوداري : كنز الدرر وجامع الغرر (المعروف بالدر المطلوب في اخبار بني ايوب) ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٧٢ ، ج ٧ ، ص ١٢٤ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١١٦ .

(٣) جبيل : مدينة تقع على ساحل بحر الشام (البحر المتوسط) شمال بيروت على بعد ثمانية فراسخ (حوالي ٤٨ كم) . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١١٩ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١١٦ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٣١ ؛ تاريخ الرهاوي ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٩-٣٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٠ ؛ عاشور : مصر والشام ، ص ٦٣ .

(٦) جبلة : قلعة حصينة على ساحل بحر الشام (البحر المتوسط) وهي إلى الجنوب من مدينة اللاذقية بينهما ١٢ ميلا (حوالي ٢٤ كم) ، وبينها بين بلنياس ٢٤ ميلا (حوالي ٤٨ كم) . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٠٥ ؛ أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٣٥٥ .

وان يتخلى كذلك عن بيت المقدس للملك العزيز شرط ان يعود العزيز إلى مصر^(٢)، وهكذا اخذ الملك العادل يبدو في صورة الشخصية الكبرى الحريصة على وحدة البيت الأيوبي ، والمحافظ على الجبهة الإسلامية من التفكك .

لم يلبث ان عاد النزاع ثانية بين الملك الأفضل وأخيه العزيز سنة (٥٩١هـ/١١٩٥م) على أثر طلب العزيز من الأفضل إقامة الخطبة له وضرب السكة باسمه في دمشق^(٣)، إلا ان رفض الملك الأفضل تنفيذ ذلك هياً للعزيز ذريعة مناسبة للقيام بعمل عسكري ضد دمشق حيث تمكن من محاصرتها في شهر ربيع الآخر من السنة نفسها، ومرة أخرى توجه الأفضل إلى عمه الملك العادل الذي كان بصفين^(٤) طلباً لنجدته^(٥)، فلبى العادل الدعوة وأسرع في المجيء لمساعدة ابن أخيه واستطاع العادل في هذه المرة بما يتصف به من دهاء وحكمة سياسية ان يعمل سراً للإيقاع بين أمراء جيش

(١) اللاذقية : مدينة تقع على ساحل بحر الشام (البحر المتوسط) جنوب انطاكية على بعد ثمانية واربعون ميلا (حوالي ٩٦ كم) وإلى الشمال من جبلة بحوالي اثنا عشر ميلا (حوالي ٢٤ كم) . أبو الفداء : تقويم البلدان، ص ٢٥٦ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٣١ ؛ أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع (المشهور بالذيل على الروضتين) ، ط ٢ ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٧٤ ، ص ٦ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ص ٢٢١ - ٢٢٢ ؛ ستيفن رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العريني ، ط ٢ ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٨٠ ، ج ٣ ، ص ١٥٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٤١ .

(٤) صفين : موضع بالقرب من الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤١٤ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٤٢ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٢٣ .

الملك العزيز واستمالة بعضهم للتخلي عن سيدهم فغادر الاسدية^(١) معسكر العزيز والتحقوا بالعدل^(٢).

ان فقدان الملك العزيز لجزء كبير من جيشه جعله يقدم على الانسحاب من الشام والعودة إلى مصر لأنه أيقن بعدم قدرته على مواجهة عمه ، فتراجع صوب القاهرة ، وأمام تلك المستجدات على الساحة العسكرية استغل الملكين العدل والأفضل تراجع العزيز، فلحقا به وعزما على انتزاع مصر منه على ان تكون للأفضل مقابل تخليه عن دمشق لعمه العدل^(٣)، لكن يبدو ان العدل لم يثق بنوايا الأفضل الأمر الذي دفعه إلى طلب الصلح ، فراسل الملك العزيز في ايفاد القاضي الفاضل^(٤) (ت ٥٩١هـ/١١٩٥م) سعياً في الصلح حيث تم عقده شرط عودة الأفضل إلى دمشق في حين أقام العدل بمعية الملك العزيز في مصر^(٥).

يبدو ان الصلح الذي عقد بين الأفضل وأخيه العزيز سنة (٥٩١هـ/١١٩٥م) ، واقامة الملك العدل بمصر قد أسفر عن نتائج جديدة على الساحة السياسية تمثلت بتغير واضح في

(١) الأسدية : هم مماليك أسد الدين شيركوه - عم صلاح الدين - ومعظمهم من التركمان الذي ألفوا جيشه في مصر . للمزيد من التفاصيل ينظر : جب : دراسات في حضارة الاسلام ، ترجمة احسان عباس وآخرون ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٤ ، ص ٩٧ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ص ١٢٢-١٢٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ص ٢٣٤-٢٣٥ .

(٤) القاضي الفاضل : هو أبو علي عبد الرحمن بن الحسين المعروف بالقاضي الفاضل ، ولد بعسقلان سنة (٥٢٩هـ/١١٣٥م) وهو من أئمة الكُتَّاب والأدباء في عصره ، كان وزيراً لصلاح الدين وصاحب ديوانه كما حظي بقدر عظيم عند الأمراء الايوبيين ولازم صلاح الدين فترة طويلة ودون مشاهداته كلها في تاريخه المعروف بـ(المجريات) او (الرسائل) . للمزيد من التفاصيل ينظر : تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمد محمد الطناجي وعبد الفتاح محمد الحلو ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٧٠ ، ج ٧ ، ص ص ١٦٦-١٦٨ ؛ نظير حسان سعداوي : المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢ ، ص ص ٢٨ - ٣٩ .

(٥) أبو شامة : الذيل ، ص ٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ص ٥٣-٥٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩١ .

سياسة العاد تجاه الملك الأفضل بعد ان اتضح له ان الأفضل غير جدير بقيادة الاسرة الايوبية ، ونتيجة لرؤية العادل تلك ، فقد بدأ يخطط للاستيلاء على دمشق "وتقرر بينه وبين العزيز الخروج إلى الشام"^(١) واخذ الاثنان يعدان العدة للقيام بهجوم على دمشق فسارا بعساكرهما إلى دمشق وحاصروها في (رجب ٥٩٢هـ/أيار ١١٩٦م) وضيقوا الخناق عليها فلم يكتب للمدينة الصمود كثيرا حتى سقطت بأيديهم فدخلها العزيز وعمه العادل "فما صدهم عن قصد البلد أحد"^(٢)، وبعد ان استتب لهم الامر اخرجوا الأفضل إلى صرخد^(٣)، وتسلم الملك العادل ادارة دمشق من ابن اخيه نائبا عنه شرط ان تكون الخطبة والسكة باسم الملك العزيز الذي عاد ادراجه بعد ان هدأت الاوضاع بالشام^(٤)، ومن هنا بدأ العادل أولى خطواته باتجاه توحيد البلاد تحت سلطته كما فعل اخوه صلاح الدين من قبل .

لم تستمر العلاقات بين أفراد الاسرة الايوبية هادئة طويلا ، فب وفاة الملك العزيز صاحب مصر الذي جاء مفاجئا في (محرم ٥٩٥هـ/تشرين الثاني ١١٩٥م)^(٥) تبدأ مرحلة جديدة من النزاعات بين العادل وابن اخيه الأفضل هذه المرة حول احقية تسلم السلطة في مصر ، فقد ترك العزيز وراءه فراغا سياسيا واداريا في حين كان ولده الملك المنصور محمد

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٥٥ ؛ ابن الفرات : تاريخ ، مج ٤ ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

(٢) أبو شامة : الروضتين : ج ٢ ، ص ٢٣١ .

(٣) صرخد : قلعة حصينة تقع إلى الشرق من حوران (باقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤٠١) ، وهي اليوم بلدة في محافظة السويداء جنوب القطر السوري ومركز منطقة يقال لها صلخد جنوب السويداء على بعد (٣٠) كم ، وبينها وبين دمشق (١٣٧) كم . ينظر : صلاح الدين خليل بن ابيك الصفي : تحفة ذوي الألباب في من حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب ، تحقيق احسان بنت سعيد خلوصي وزهير حميدان الصمصام ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة ، ١٩٩٢ ، ق ٢ ، ص ٩٩ ، هامش (٤) .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ص ٢٣٤-٢٣٥ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ٨ ؛ الحنبلي : شفاء ، ص ٢٤١ ؛ الحسيني : منتخبات ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

(٥) ابن خلكان : وفيات ، ج ٣ ، ص ٢٥١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٨٣ ؛ الذهبي : العبر في خبر خير من غير ، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ج ٣ ، ص ١١ ؛ عبدالله بن حسين بن عبد الملك العصامي : سمط النجوم العوالي في انباء الاوائل والتوالي ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ج ٤ ، ص ١٢ .

(٥٨٥-٦٢٠هـ/١١٨٩-١٢٢٣م) ما زال صبيًا لم يتجاوز العاشرة من عمره^(١) وكانت الدولة الأيوبية حينها بأمر الحاجب إلى شخص قوي يدبر أمرها ويكون وصيًا على الصبي ، ونتيجة لتلك المستجدات انقسم الأمراء الأسيديّة والصلاحيّة^(٢) في مصر حول الشخص الذي سيتولى السلطة، فمال الأسيديّة إلى الملك الأفضل وأرسلوا إليه وهو بصرخد يطلبون منه القدوم إلى القاهرة لاستلام زمام الأمور والقيام باتابكية^(٣) ابن أخيه الملك المنصور محمد، فلبى الأفضل الدعوة وجاء إلى القاهرة في (ربيع الأول ٥٩٥هـ/كانون الأول ١١٩٩م) ، وبعد أن استقرت الأوضاع له توجه بانظاره صوب دمشق ، وقرر القيام بهجوم عليها ليعيدها تحت سيطرته^(٤)، وكانت دمشق قد آلت منذ سنة (٥٩٢هـ/١١٩٦م) إلى ابن عمه الأمير عيسى بن الملك العادل تحت وصاية والده .

أياً كانت رؤية الملك الأفضل ، فإنه أخفق في السيطرة على دمشق على أثر مجيء الملك العادل الذي كان حينها محاصراً لماردين^(٥) حيث تمكن من إفشال محاولة الأفضل فبعد فبعد سلسلة من المواجهات لم يفلح فيها الأفضل من تحقيق أي شيء وأثر الانسحاب نحو القاهرة فانتهز العادل الفرصة ولحق به عازماً انتزاع مصر منه ، وأخيراً اضطر الأفضل إلى

-
- (١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٦١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٨٧ .
- (٢) الصلاحية : وتسمى أيضاً بالناصرية ، وهم مجموعة من العساكر كان صلاح الدين قد انضمهم بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه تحت أمرة الأمير أبي الهيجاء . للمزيد من التفاصيل ينظر جب : دراسات ، ص ٩٨ .
- (٣) أتابك : لفظة تركية وهي في الأصل مركبة من مقطعين (اطا) بمعنى أب و (بك) بمعنى أمير ، والمراد به أبو الأمراء واصله أن سلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن الب أرسلان (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢) كانوا يطلقون لفظ اطا بك على كبير أمرائهم يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان أو أمير صغير . للمزيد من التفاصيل ينظر أحمد بن علي القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شرح وتعليق محمد حسنين شمس الدين ، بيروت دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧ ، ج ٤ ، ص ١١٨ ، دائرة المعارف الإسلامية ، مج ١ ، ص ٤٢٣ .
- (٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٩١ .
- (٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٤٤ ؛ علي بن أنجب تاج الدين بن الساعي : الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ، تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٤ ، ج ٩ ، ص ٣ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٤٨ .

الاستسلام والتنازل عن مصر لعمة العادل الذي دخلها في (٢١ ربيع الآخر ٥٩٦هـ/ ١٠ شباط ١٢٠٠م)^(١) وإعادة الأفضل مرة أخرى إلى صرخد ، وتقرر ان يكون العادل وصيا على الملك المنصور محمد بن العزيز لحين قدرته على ادارة شؤون البلاد ، الا ان العادل لم يلبث ان خلع المنصور وقطع خطبته ، ثم خطب لنفسه ولولده الكامل من بعده^(٢)، ولسان حاله يقول "قبيح بي ان أكون أتابكا لصبي مع الشيخوخة والتقدم ، مع ان الملك ليس هو بالميراث ، وانما هو لمن غلب ولقد كان يجب ان اكون بعد أخي السلطان الملك الناصر صاحب الأمر ، غير اني تركت ذلك إكراما لأخي ورعاية لحقه"^(٣). نستدل من كلام العادل انه كان يخطط منذ الوهلة الاولى لوفاء اخيه صلاح الدين من اجل السيطرة على مقاليد الحكم في الدولة الايوبية لكن يبدو ان الظروف لم تسمح له بذلك مما اضطره إلى تأجيل ذلك لاحقا .

لقد أعلنت الخطبة للملك العادل بالقاهرة في يوم (الجمعة ٢١ شوال ٥٩٦هـ/ ٤ آب ١٢٠٠م)^(٤)، وبعد ان استتببت له الأوضاع انصرف لإدارة شؤون دولته بعد ان اصبحت مصر والشام تحت سلطته ، فاحتفظ لنفسه بالسيادة العليا اداريا وسياسيا في حين قام بتوزيع أملاكه على أولاده ، فجعل ابنه الأكبر الملك الكامل (٥٧٣-٦٣٥هـ/ ١١٧٧-١٢٣٧م) وليا لعهد ونائبه في مصر ، وكان قد استناب ابنه الأصغر الملك المعظم عيسى (٥٧٦-٦٢٤هـ/ ١١٨٠-١٢٣٧م) بدمشق في حين منح ابنه الأشرف موسى (٥٧٦-

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٧٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٠٩ ؛ ابن

الفرات : تاريخ ، مج ٤ ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٧١ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١١١ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٥٠ ؛ ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج ٩ ، ص ٢٢ ؛ ابن خلكان :

وفيات ، ج ٥ ، ص ٧٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٦٢ .

٦٣٥هـ/ ١١٨٠-١٢٣٧م) الاجزاء الشرقية من مملكته التي تضم خلاط^(١) وحران^(٢) والرها^(٣) وبهذا التقسيم الاداري^(٤) الذي عمد اليه الملك العادل تمكن من السيطرة تماما على سلطة الدولة الايوبية .

ونظرا لأهمية الدور السياسي الذي قام به الملك العادل خلال الفترة التي حكم فيها بلاد الشام ومصر وبعض الجزيرة ، ولبروز دور أبنائه الكامل والأشرف فإننا سوف نرصد الحديث عن كل واحد منهم بشيء من التفصيل :

١. الملك العادل :

هو محمد بن ايوب بن شادي ، يكنى بابي بكر ، ويلقب بالملك العادل سيف الدين^(٥). ولد في بعلبك سنة (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م) ، ولدى سبط ابن الجوزي رواية مفادها انه سأله "عن مولده فقال فتوح الرها"^(٦) والتي فتحت على يد عماد الدين زنكي سنة (٥٣٩هـ)^(٧) والملك العادل اصغر سنا من صلاح الدين ، وكان قد لازم أخاه طيلة فترة حياته كما شارك

(١) خلاط : وتعرف أيضاً بأخلاط وهي مدينة من أعمال الجزيرة تقع إلى الجنوب من ملاز كرد على بعد سبعة فراسخ (حوالي ٤٤ كم) . أبو القاسم النصيبي بن حوقل : صورة الارض ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، د.ت، ص ص ١٩٥-١٩٦ .

(٢) حرّان : مدينة تقع في ديار مضر إلى الجنوب من الرها بينهما مسافة يوم واحد على طريق الموصل والشام. ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .

(٣) الرها : مدينة من مدن الجزيرة تقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات إلى الجنوب من سميساط وإلى الغرب من ماردين . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٧٦ .

(٤) عن تفاصيل ذلك التقسيم الاداري ينظر ابن واصل ، ج ٣ ، ص ١١٢ ؛ ابن الفرات : مج ٤ ، ج ٢ ، ص ١٧٨ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ص ١٦٨ - ١٦٩ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٣٦ ؛ العصامي : سمط النجوم ، ج ٤ ، ص ١٣ .

(٥) ابو شامة : الذيل ، ص ١١١ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ٧٤ ؛ الذهبي : سير اعلام النبلاء ، تحقيق بشار عواد معروف ومحي الدين هلال السرحان ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٦ ، ج ٢٢ ، ص ١١٦ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٦١ .

(٦) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٤ .

(٧) ابن الاثير : الباهر ، ص ٦٦ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٦ .

معه في حملاته العسكرية ضد الصليبيين ، ودخل العادل طرفا في النزاع الذي نشب بين أبناء صلاح الدين بهدف الانفراد بالسلطة في بلاد الشام ومصر حيث تحقق له ذلك سنة (٥٩٦هـ/١٢٠٠م) . وقد انصرفت حياة العادل في امور عسكرية وسياسية للحفاظ على مملكته والتوسع على حساب جيرانه ، ففي سنة (٥٩٤هـ/١١٩٧م) حاصر ماردين^(١) وأوشكت المدينة على الاستسلام لولا ان استجدت ظروف بمصر على اثر وفاة الملك العزيز ، ومحاولة الملك الأفضل الاستيلاء على دمشق ، فاضطر العادل لترك ماردين والعودة الى الشام بعد ان خلف ابنه الكامل على الحصار^(٢)، وفي سنة (٦٠٦هـ/١٢١٠م) سار إلى سنجار وحاصرها لكنه اخفق في السيطرة عليها^(٣).

أما فيما يتعلق بعلاقاته مع الخلافة العباسية فقد حاول المحافظة عليها ودية وإيجابية حتى أرسل اليه الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٧٩-١٢٢٥م) التشريف والتقليد بولاية مصر والشام مع مندوبه الشيخ شهاب الدين عمر بن محمد بن عبدالله السهروردي^(٤) (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) وذلك في سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٨م)^(٥)، وكان الخليفة قد أمره أمره ان يخاطب العادل "بشاهان شاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين"^(٦) وفي هذا وصف بالغ بالغ لمدى رضى الخلافة وتقديرها للملك العادل ، استمر الملك العادل في جهاده ضد

(١) ابن الاثير : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٨٠ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٤٣ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٤٤ .

(٣) ابو شامة : الذيل ، ص ٦٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٩٣ .

(٤) هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبدالله بن عمويه ، فقيه شافعي كان شيخ الشيوخ ببغداد ارسل رسولا من قبل الديوان العزيز لعدة اماكن ، له عدة مؤلفات منها : (عوارف المعارف) توفي ببغداد عام (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) . ابن خلكان : وفيات ، ج ٣ ، ص ص ٤٤٦ - ٤٤٨ .

(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٣٤ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٧٨ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٦٧ ؛ جزيل الجومرد ونزار قادر : اثر الخلافة العباسية في تكوين العلاقات السياسية بين قوى الاطراف الاسلامية (٦٠٠-٦١٢هـ/١٢٠٣-١٢١٥م) ، مجلة دراسات (العلوم الانسانية) ، مج ٢٤ ، ع ٢ ، عمان ، ١٩٧٧ ، ص ٤٤٦ .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٨٢ .

الصليبيين حتى توفي في (جمادي الآخر ٦١٥هـ/١٢١٨م)^(١) خلال حصار الصليبيين لدمياط ضمن أحداث الحملة الصليبية الخامسة (٦١٥-٦١٨هـ/١٢١٨-١٢٢١م) فخلفه في مصر ابنه الملك الكامل.

٢- الملك الكامل :

محمد ابن الملك العادل أبي بكر كنيته أبو المعالي أما لقبه فعرف بالملك الكامل ناصر الدين^(٢)، ولد بالقاهرة سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م)^(٣). لقد بدأ الكامل حياته السياسية برفقة والده ، تلك الرفقة التي أكسبته خبرة سياسية وتجربة عسكرية أهلته ان يتولى فيما بعد إدارة مصر نائباً عن أبيه وولياً لعهدده سنة (٥٩٦هـ/١٢٠٠م) عندما آلت سلطة مصر إليه ، واستمر الكامل في نيابة مصر حتى وفاة والده سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) ، فاستقل بالحكم في خضم المواجهة مع الصليبيين على دمياط^(٤) التي سقطت على أثر تلك الحملة واستمر احتلال الصليبيين لدمياط اكثر من سنتين حتى تمكن الملك الكامل بمساعدة أخويه الملك المعظم عيسى والملك الأشرف موسى من تحريرها ، وتجدر الإشارة انه لم تستمر العلاقات بين الاخوة أبناء العادل ودية بل دبَّ الشقاق بينهم وعلى اثر ذلك توجه كل منهم إلى أطراف خارجية لعقد لتحالفات التي كان لها أثراً سلبياً على وحدة الجبهة الإسلامية والتي سوف تفصل بالحديث في هذه الدراسة .

لقد عاش الكامل حوالي اثنين وستين عاماً قضاها اما في جهاد الصليبيين او في تثبيت حكمه حتى توفي في (رجب ٦٣٥هـ/شباط ١٢٣٨م)^(٥).

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٢٦ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ١١١ ؛ زكي الدين محمد بن عبد العظيم المنذري : التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق : بشار عواد معروف ، النجف ، مطبعة الاداب ، ١٩٧١ مج ٤ ، ص ٣٢٦ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٧٠٥ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ٧٩ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، تحقيق : هملتون ريتز ، ط ٢ ، فسادن ، دار النشر فرانزشتايز ، ١٩٦٢ ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٧٠٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٢٨ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٩٤ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٢٧ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٦٢ ؛ العصامي : سمط النجوم ، ج ٤ ، ص ١٣ .

(٥) ابو شامة : الذيل ، ص ١٦٦ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ٨٣ ؛ كمال الدين ابي الفضل عبد الرزاق ابن الفوطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تحقيق : مصطفى جواد ، بغداد ، المكتبة العربية ، ١٩٣٢ ، ص ١٠٧ ؛ الصفدي : الوافي ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

٣ - الملك الأشرف :

هو موسى بن الملك العادل يكنى بابي الفتح ، ولقبه الملك الأشرف مظفر الدين^(١) ، وهو أخ غير شقيق للمعظم والكامل ، كما انه اصغر سنا من الكامل حيث كانت ولادته بالقاهرة سنة (٥٧٦هـ/١١٨١م)^(٢) ، وهو اكبر من المعظم بمدة قصيرة على حد قول سبط ابن الجوزي^(٣) .

إن أول مساهمة للملك الأشرف في الحياة السياسية كانت عندما اسند إليه والده العادل نيابة بيت المقدس^(٤) ، وما ان حلت سنة (٥٩٨هـ/١٢٠١م) حتى عينه نائبا على الرها^(٥) ، فاستمر الأشرف نائبا هناك حتى سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م) عندما آلت اليه خلاط أثر وفاة أخيه املك الأوحى نجم الدين^(٦) ، وفي سنة (٦١٧هـ/١٢٢٠م) دخلت سنجار في طاعته^(٧) . كما انه لم يكن بعيدا عن مجريات الأحداث في مصر خلال تعرضها للحملة الصليبية الخامسة ، فقد انضم إلى بقية أفراد أسرته عند تحالفهم بوجه الخطر الصليبي حيث قدم إلى مصر سنة (٦١٨هـ/١٢٢١م) بمعية أخيه المعظم من اجل تحرير دمياط^(٨) ، وبحلول سنة (٦١٩هـ/١٢٢٣م) وما تلاها توترت العلاقة بينه وبين المعظم نتيجة عقد الأخير تحالفات سياسية مع أطراف خارجية موجه ضد الأشرف لإرغامه على الدخول في طاعته^(٩) ،

(١) ابن خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ٣٣٠ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ ؛ ابن الفوطي : الحوادث ، ص ١٠٨ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٧١١ ؛ الداوداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٢٢ ؛ الذهبي : سير ، ج ٢٢ ، ص ١٢٣ .

(٣) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٥٠ .

(٤) الداوداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٢١ ؛ الحنبلي : شفاء ، ص ٢٩٠ .

(٥) ابن خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ٣٣٠ ؛ الذهبي : سير ، ج ٢٢ ، ص ١٢٣ ؛ الحنبلي : شفاء ، ص ٢٩٠ .

(٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٧١١-٧١٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ .

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، تحقيق : حسنين محمد ربيع وسعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٢ ، ج ٤ ، ص ٧٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٠٥ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ .

(٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٩٤ .

طاعته^(١)، وظلت تلك العلاقات بين الأخوين غير ودية حتى وفاة المعظم
سنة (١٢٢٤هـ/١٢٢٦م) .

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ص ٣٥٣-٣٥٤ ؛ ابو شامة : الذيل ، ص ١٤٢ ؛ ابو محمد عبدالله بن اسعد
بن علي اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، ط ٢ ، بيروت، مؤسسة
الاعلمي للمطبوعات ، ١٩٧٠ ، ج ٤ ، ص ٤٨ .

المبحث الثاني

سيرة الملك المعظم عيسى

١- اسمه ولقبه :

هو عيسى بن الملك العادل سيف الدين محمد بن أيوب بن شادي^(١). ابن أخو صلاح الدين - وليس لدينا معلومات عن أمه سوى بعض الإشارات البسيطة ، فيروي أبو شامة (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) عند ذكره خبر وفاة أم المعظم سنة (٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م) باختصار ودون تفصيل انه في "يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول [السادس من تشرين الاول] توفيت ام المعظم"^(٢) ودفنت في المدرسة المعظمية التي كان المعظم قد أنشأها بدمشق^(٣). أما الإشارة الأخرى فيرويها ابن واصل (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م) عند ترجمته للمعظم بأنها "أم ولد تركية"^(٤) دون ان يضيف أي تفاصيل أخرى .

أما تسميته بعيسى فإنها أسماء كانت دارجة آنذاك ، ويمكن القول أيضاً ان والده كان متيمناً بأسماء الأنبياء خصوصاً إذا علمنا ان ثمانية من أبناء العادل الستة عشر يحملون أسماء أنبياء^(٥)، وهو شأن الأيوبيين في تسمية أولادهم ، فكما كان جدهم اسمهم أيوب وصلاح الدين اسمه يوسف فان أسماء الأنبياء محبوبة لديهم حتى ان والد المعظم اسمه محمد .

أما الكنى والألقاب التي حملها عيسى بن العادل ، فهي كثيرة ومختلفة عبر فترات حياته تتلاءم ومراحلها المختلفة لتعبر عن قيمة هذا الرجل ودوره ومكانته بين أفراد البيت

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٤٤ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٣ ، ص ٤٩٤ ؛ الصفي : تحفة ، ق ٢ ، ص ١٠٨ ؛ محي الدين بن محمد عبد القادر ابو الوفا : الجواهر المضوية في طبقات الحنفية ، حيدر آباد ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، د.ت ، ج ١ ، ص ٤٠٢ ؛ عبد القادر بن محمد النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق : ابراهيم شمس الدين ، بيروت ، دار اكتب العلمية ، ١٩٦٩ ، ج ١ ، ص ٣٦٨ .

(٢) الذيل، ص ٥٤.

(٣) المصدر نفسه و الصفحة.

(٤) مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢١٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٥ .

الايوبي ونظرة المجتمع اليه وقناعة اقربائه بجهوده ودوره المتميز في جهاد الصليبيين ولاسيما الدور البارز الذي لعبه في مواجهة الحملة الصليبية الخامسة على مصر (٦١٥-٦١٨هـ/١٢١٨-١٢٢١م) .

ان اكثر الالقاب استخداما لدى من أرخ له من معاصريه وغيرهم كان لقب الملك المعظم^(١)، ومثل هذه الالقاب لم تكن غريبة آنذاك رغم ان الجيل الأول من أبناء صلاح الدين حمل ألقاباً اقل تعظيماً من جيل اولاد العادل ، فالأفضل والظاهر والعزيز ليس بعظم الأوحد والأشرف والمعظم والكامل مما يوضح ان مسألة الألقاب تفاقمت وتعاضمت شأن الحال في ذلك شأن الكثير من مناطق العالم الإسلامي عندما تطلق هذه الألقاب فانها ما تلبث ان تزداد تعاضماً وغلواً تباعاً .

كما لقب بشرف الدين^(٢) ولا نعلم من لقبه بهذا اللقب ومتى ، ولكن يبدو واضحاً ان استخدام الألقاب المركبة من صفة جميلة مضافة إلى لفظة الدين شأن آخر من شؤون الاتابكة والايوبيين خاصة في أنحاء الجزيرة والشام ومصر في تلك الفترة التي عرفت بروح الجهاد ضد الصليبيين بدأً بنجم الدين وصلاح الدين إلى شرف الدين . ولابن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) الرحالة الأندلسي تعليق جميل ولكنه عاطفي على مثل تلك الألقاب التي كان يلقب بها الامراء والسلاطين في بعض الأقاليم الاسلامية المذكورة دونه عندما مرّ ببلاد الشام والجزيرة خلال رحلته (٥٧٨-٥٨٠هـ/١١٨٢-١١٨٤م) بالضبط عندما كان عمر الملك المعظم بحدود اربع سنوات ، فابن جبير لا يرى مطابقة تلك الألقاب وواقع حال اولئك الامراء والسلاطين (كمظفر الدين وناصر الدين وسيف الدين ...) لأنهم مشغولون وغير موحدون ، فقد مزقتهم الصراعات الداخلية على المناصب وكراسي الحكم منشغلين بذلك عن عدوهم المشترك المتمثل بالصليبيين ، الا ان ابن جبير يستثني صلاح الدين الأيوبي من بينهم بقوله "إلا

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٤٤ ؛ ابو الوفا : الجواهر المضوية ، ج ١ ، ص ٤٠٢ ؛ النعمي : الدارس ، ج ١ ، ص ٣٦٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٠٨ ؛ الذهبي : سير ، ج ٢٢ ، ص ١٢٠ ؛ ابو العباس اسماعيل بن العباس الغساني : العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، تحقيق : شاکر محمود عبد المنعم ، بغداد ، دار البيان ، ١٩٧٥ ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن المشتهر بالفضل والعدل ، فهو اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك فزعازع ربح^(١).

ومن الألقاب ما أطلقته دار الخلافة العباسية ببغداد على الملك المعظم ، فيروي سبط ابن الجوزي عن خاله يوسف ابن الجوزي^(٢) (ت ٦٤٩هـ/١٢٥١م) انه لما قدم الى دمشق سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) رسولا من عند الخليفة الظاهر لدين الله (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٧م) إلى الملك المعظم أمر ان لا يخاطبه الا بشهريار^(٣) الشام^(٤).

فضلاً عما تقدم ، فان الملك المعظم عرف بكنى اكثر خصوصية ولكنها اكثر غموضاً من حيث سبب التصاقها باسمه ، فقد كُنِيَ بأبي الفتوح^(٥)، ولا نراعي هنا زمن إطلاقها عليه لعدم وجود أي اشارة في المصادر أو المخطوطات التي اطلعنا عليها تبين زمن إطلاقها . كما انه عرف بأبي الغنائم^(٦)، ثم ترد كنيته عند المقرئزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) أبو العزائم^(٧)، وربما كان للتصحيح دور في الخلط بين العزائم والغنائم أو تكون للكنيتين حقيقة من حيث انه كني بكليتهما ، ولا نعرف ما يسوغ للمجتمع إطلاق مثل هذه الكنى عليه الا كونه عُرف بعزيمته ودأبه في الكفاح والجهاد والصمود نستشف ذلك من حديث عابر نقله سبط ابن الجوزي عن الملك الظاهر غازي -ابن صلاح الدين - صاحب حلب عندما كان السبط في زيارة لمدينة حلب يقول فيه "لما اجتمعت بالملك الظاهر في سنة ٦١٢هـ [١٢١٥م] قال لي

(١) أبو الحسن محمد بن احمد : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار (المشهور برحلة ابن جبير) ، بيروت ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٤، ص ٢٠٦ .

(٢) هو ابو محمد يوسف سبط ابن الجوزي ، فقيه وواعظ عمل لدى الخلفاء العباسيين خاصة الظاهر لدين الله وتولى منصب الحسبة في بغداد سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) للمزيد من التفاصيل ينظر سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ص ٥٠٢-٥٠٣ .

(٣) شهريار: لفظ فارس بمعنى حاكم المدينة أو ملك البلد . للمزيد ينظر : محمد آلتونجي : المعجم الذهبي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٩ ، ص ٣٨٣ .

(٤) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٢٢٤ .

(٥) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٤ .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ ؛ ابو العدل زين الدين قاسم بن قطلوبغا : تاج التراجم في طبقات الحنفية ، بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٦٢ ، ص ٤٩ .

(٧) درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، تحقيق : عدنان درويش ومحمد المصري ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة ، ١٩٩٥ ، ق ٢ ، ص ٣٣٨ .

والله هو [أي الملك المعظم] واسطة العقد وعين القلادة ولولا همته وانه مشغول بجهاد الاعداء لما قرّر لي في حلب قرار^(١) مما يبين صراحة ان الملك المعظم عرف بعزيمته وشجاعته في القتال والجهاد من بين أبناء أسرته وأقربائه .

٢ - مولده ونشأته :

اختلف المؤرخون حول السنة والمكان الذي ولد فيه الملك المعظم ، فيذكر سبط ابن الجوزي عند ترجمته للمعظم انه ولد بالقاهرة سنة (٥٧٦هـ/١١٨٠م)^(٢)، وتجدر الإشارة هنا ان الاعتماد على هذه الرواية تكمن في مكانة سبط ابن الجوزي لدى الملك المعظم ، فقد كان من المقربين إليه ، ودون شك انه يمتلك معلومات اكثر وادق عن المعظم بحكم صحبته له مما يؤهله ان يكون أدري بأحواله لذلك فان لرأيه قيمة أكثر من غيره . كما ينقل لنا المؤرخ نفسه عن الملك الأشرف - أخي الملك المعظم - انه ولد قبل أخيه بشهر أو بلييلة^(٣)، فإذا علمنا ان ان ولادة الأشرف كانت سنة (٥٧٦هـ) فهو من أقران أخيه المعظم^(٤). ومن خلال ما سبق تكون ولادة الملك المعظم بالقاهرة سنة (٥٧٦هـ) هي الأدق.

على الرغم مما سبق نجد ان بعض المؤرخين ممن تلو سبط ابن الجوزي يختلفون في زمن ومكان ولادة الملك المعظم وخاصة المقرئ الذي يشتط بثلاث روايات مختلفة^(٥) في الزمان والمكان عن ولادته ، ويبدو واضحاً ان المقرئ لم يستقر على تاريخ ومكان بعينه لتثبيت زمن وموضع ولادة الملك المعظم .

(١) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٥٠ .

(٢) المصدر نفسه والجزء والقسم ، ص ٦٤٤ .

(٣) المصدر نفسه والجزء والقسم ، ص ٦٥٠ .

(٤) الذهبي : سير ، ج ٢٢ ، ص ١٢٣ ، ١٢٧ .

(٥) يروي المقرئ في كتابه (السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٤) ان الملك المعظم ولد بدمشق سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م)

(٥٧٨هـ/١١٨٢م) بينما يذكر في كتابه (الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٥ ، ص ٧٤) ان ولادة المعظم كانت

بالقاهرة سنة (٥٧٦هـ/١١٨٠م) في حين يقول عند ترجمته للملك المعظم ضمن كتاب (درر العقود الفريدة ، ق ٢ ، ص ١٢٧) انه ولد بدمشق سنة (٥٧٦هـ) .

اما فيما يتعلق بنشأة الملك المعظم ، فتذكر بعض المصادر انه نشأ بالشام^(١) دون أي تفاصيل أخرى مما جعل من الصعب الجزم بذلك ، فاذا تتبعنا تنقل والده الملك العادل وما شغله من مناصب ادارية نجد ان اغلبها كان في مصر طيلة الفترة اللاحقة لولادة الملك المعظم سوى ثلاث سنوات (٥٧٩-٥٨٢هـ/١١٨٣-١١٨٦م) قضاها العادل في حلب^(٢)، ثم عاد ثانية إلى القاهرة نائبا عن صلاح الدين لخدمة الملك العزيز عثمان^(٣). واستمر هناك إلى قبيل وفاة أخيه صلاح الدين ، واستنادا على ذلك ربما يكون الملك المعظم قد قضى السنوات الاولى من حياته بالقاهرة وليس بدمشق كونه اقرب إلى واقع الحال معتمدين في ذلك على أمرين أولهما ان المعظم من مواليد القاهرة عام (٥٧٦هـ/١١٨٠م)، والثاني اقامة والده العادل بالقاهرة اغلب الفترة التي تلت ولادته ، فمن المرجح ان يكون الملك المعظم قد نشأ وترى مع افراد أسرته سنوات طفولته الاولى بالقاهرة .

أما عن حياة الملك المعظم العائلية المبكرة ، فليس لدينا معلومات عنها ، لكن يمكن القول في هذا الصدد ان المعظم نشأ في كنف عائلته بالقاهرة وتلقى هناك ما يتلقاه أي طفل مسلم آنذاك من تربية وتعليم في دور العلم والكتاتيب مبادئ الدين خصوصا قراءة القرآن وحفظه على أيدي الفقهاء والمؤدبين .

٣. ثقافة الملك المعظم وشيوخه :

اهتم اغلب أمراء بني أيوب بالثقافة والأدب إلى جانب اهتمامهم بالنواحي السياسية والعسكرية للدولة في وقت اصبح فيه الاهتمام بالثقافة وتشجيع العلم ومجالسة العلماء فضلا عن الشجاعة والحنكة السياسية من مقاييس تقييم شخصيات الرجال ولا سيما أولئك الأمراء والملوك من أفراد الأسر الحاكمة .

(١) الصفدي : تحفة ، ق ٢ ، ص ١٠٨ ؛ الذهبي : سير ، ج ٢٢ ، ص ١٢١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٤ .

(٢) الايوبي : مضمار الحقائق ، ص ١٥٨ ؛ ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ص ١٦٤ ، ١٧٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٣ .

(٣) ابن شداد : النوادر ، ص ٧٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٩١ .

كان الملك المعظم يشغل مكانة متقدمة بين الأمراء الأيوبيين من ناحية توجهاته الثقافية ، فقد أولى العلم والعلماء قدراً كبيراً من الاهتمام في الفترة التي تلت توليه نيابة دمشق سنة (٥٩٢هـ/١١٩٦م) شأنه في ذلك شأن الكثير من أفراد الأسرة الأيوبية الذي عرفوا باهتماماتهم المتميزة بالعلوم المختلفة ، فقد برز منهم الشعراء والمؤرخون ومنهم من نبغ في الفقه والنحو^(١).

ويمكن القول ان ثقافة الملك المعظم كانت ذات اتجاه ديني تمثلت بما تلقاه منذ صباه من دروس في القرآن وحفظه^(٢)، ودون شك انه كلما تقدم به العمر توسعت ثقافته وتنوعت توجهاته لاهتمامه المستمر بتثقيف نفسه في مختلف الجوانب ولا سيما في الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة^(٣)، فقد درسه على يد الشيخ جمال الدين الحصري^(٤) (٥٤٦-٦٣٦هـ/١١٥١-١١٣٨م) ، وهو في حدود الخامسة والثلاثين من عمره عندما قدم

(١) نذكر منهم على سبيل المثال : محمد بن تقي الدين الأيوبي (ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م) صاحب كتاب مضممار الحقائق ، وكذلك المؤرخ المشهور اسماعيل بن علي ابو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٠م) مؤلف كتاب المختصر في اخبار البشر وكتاب تقويم البلدان .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٤٤ ؛ الذهبي : سير ، ج ٢٢ ، ص ١٩٤ ؛ الغساني : العسجد ، ج ٢ ن ص ٤٢٨ .

(٣) هو النعمان بن ثابت التميمي (٨٠-١٥٠هـ/٦٩٩-٧٦٧م) امام اصحاب الرأي وفقه اهل العراق ، وهو احد الائمة الاربعة اصحاب المذاهب الاسلامية كان اماما في القياس واليه يعود المذهب الحنفي . للمزيد من التفاصيل ينظر ابن خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ص ٤٠٥-٤١٥ ؛ ابو الوفا : الجواهر المضية ، ج ٢ ، ص ص ٤٥١-٥١٩ .

(٤) هو جمال الدين محمود بن احمد بن عبد السيد عثمان الحصري ، محدث وفقه حنفي ، انتهت اليه رئاسة اصحاب ابي حنيفة في عصره . صنف عدة كتب منها (خير المطلوب في العلم المرغوب) ، صنفه للملك الناصر داود بن الملك المعظم (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ولقب بالحصري نسبة إلى محلة ببخارى كان ساكنا فيها . للمزيد من التفاصيل ينظر : سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ص ٧٢٠-٧٢١ ؛ ابن قطلويعا : تاج التراجم ، ص ٦٩ .

الحصيري الى دمشق سنة (٦١١هـ/١١١٤م)^(١)، والذي يعد من اشهر فقهاء المذهب الحنفي في عصره حيث أخذ عنه معظم كتاب (الجامع الكبير)^(٢) في الفقه الحنفي^(٣).

لقد انفرد الملك المعظم عن بقية افراد أسرته بتبنيه المذهب الحنفي في الوقت الذي كان بنو ايوب كلهم شافعية^(٤)، وفيما يتعلق بدوافع المعظم في نهجه المذهبي ، فلم نعثر على أي إشارة في المصادر التي اطلعنا عليها تفسر سبب توجهه المخالف لبقية افراد أسرته .

انتهج المعظم سياسة فريدة من نوعها تهدف إلى تشجيع الناس والفقهاء حيث عمد إلى تخصيص مكافأة قدرها مئة دينار لكل من يحفظ كتاب (الجامع الكبير) في الفقه الحنفي^(٥)، كما اتخذ لنشر مذهبه وتدريسه مدرستين متخصصتين بالمذهب الحنفي أطلق على كليهما المدرسة المعظمية واحدة في القدس انشأها سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م)^(٦) والأخرى بناها بدمشق سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م)^(٧).

(١) ابو شامة : الذيل ، ص١٦٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص٢١٠ ؛ المقرئزي : درر ، ق ٢ ، ص٣٣٩ ؛ الغساني : العسجد ، ج ٢ ، ص٤٢٨ .

(٢) الجامع الكبير : من الكتب المشهورة في الفقه الحنفي للامام ابي عبدالله محمد بن الحسن الشيباني (ت١٨٩هـ/٨٠٤م) . للتفاصيل ينظر : محمد بن اسحاق بن محمد بن النديم : الفهرست ، بيروت ، مكتبة خياط ، ١٩٦٤ ، ص ٢٠٣-٢٠٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص٢١٠ .

(٤) ابو الوفا : الجواهر ، ج ١ ، ص٤٠٣ ؛ ابو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص١٣٨ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص٢١٣ .

(٥) الصفدي : تحفة ، ق ٢ ، ص١٠٩ ؛ الحنبلي : شفاء ، ص٢٧٦ .

(٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٤٩-٦٥٠ ؛ أبو اليمان مجير الدين الحنبلي : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، تقديم : محمد بحر العلوم ، النجف ، المطبعة الحيدرية ، ١٩٦٨ ، ج ١ ، ص٤٠٣ ؛ كامل جميل العسلي : معاهد العلم في بيت المقدس ، عمان ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، ١٩٨١ ، ص٢٧٤ .

(٧) عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد : الاغلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، تحقيق : سامي سامي الدهان ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٣ ، ج ٢ ، ق ١ ، ص٢٢٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص٢١٩ .

وتجدر الإشارة هنا ان الملك المعظم عندما اطلع على كتاب (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٢ م) وجد فيه مطاعن كثيرة بحق الامام أبي حنيفة كان البغدادي قد ذكرها عند ترجمته لأبي حنيفة^(١)، وهي عبارة عن مجموعة من المسائل الفقهية كان أبو حنيفة افتى فيها برأيه ، الأمر الذي أتخذه البغدادي حجة على الامام حتى انه طعن في كفاءته بقوله "كان ابو حنيفة يقيس ولم يكن له علم بالنحو"^(٢)، فقام الملك المعظم من جانبه بتعقب تلك المطاعن وألف كتابا^(٣) سماه "السهم المصيب في الرد على الخطيب"^(٤) ردّ فيه على على تلك المطاعن والمسائل الفقهية مسألة مسألة ، بأن عالجها بأدلتها الفقهية والنحوية^(٥)، وهو كما قال عنه ابن واصل "وقفت على هذا الكتاب بالقدس ، وطالعته ووجدته في غاية الحسن"^(٦).

فضلا عن ذلك فقد تطرق الملك المعظم في كتابه السالف الذكر الى احوال اولئك الرجال الذين روى عنهم الخطيب البغدادي تلك المسائل الفقهية مستندا على تاريخ بغداد نفسه^(٧)، وما ان ينتهي المعظم من تبرئة الإمام أبي حنيفة وفق رؤيته ، حتى يتوجه بعد ذلك صوب الخطيب البغدادي ، فيروي له أشعاراً غزلية^(٨) يطعن بها في نزاهته وعدالته^(٩).

(١) عن تلك المطاعن ينظر : ابو بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربي ، د.ت ، ج ١٣ ، ص ص ٣٣٢-٣٢٤ .

(٢) تاريخ بغداد ، ج ١٣ ، ص ٤٢٣ .

(٣) وصلنا الكتاب المشار اليه وهو مطبوع بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٣٢ تحت عنوان (الرد على أبي بكر الخطيب البغدادي) .

(٤) مصطفى بن عبدالله حاجي خليفة : كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، بغداد ، مكتبة المثنى ، د.ت ، ج ٢ ، ص ١٠١٠ .

(٥) للتفاصيل ينظر : الملك المعظم : الرد

(٦) مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢١٢ .

(٧) الملك المعظم : الرد ، ص ١٢٧ .

(٨) يروي الملك المعظم ابياتا غزلية للخطيب البغدادي منها :

بات الحبيب وكم له من ليلة

ثم الصباح أتى ففرق بيننا

ولقما يصفو سرور العاشق

للمزيد من التفاصيل ينظر : الرد ، ص ص ١٨٠-١٨١ .

(٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢١٢ .

وقد يسأل سائل كيف يتأتى للملك المعظم دحض شبهات الخطيب البغدادي خاصة إذا كانت كما قال تفتقر إلى كفاءات نحوية معينة ، والحقيقة ان الملك المعظم في فترة ليست مبكرة من حياته بل أثناء حكمه لدمشق (٥٩٢-٦٢٤هـ/١١٩٦-١٢٢٧م) انصرف انصرافاً جدياً لإتمام ثقافته ولا سيما النحوية ، وربما كان لمزاعم البغدادي دور في توجه المعظم إلى دراسة النحو لإثبات قدرات أبي حنيفة النحوية والفقهية ، فلجأ إلى شيخ العصر في النحو الأستاذ البغدادي المعروف بتاج الدين الكندي^(١) (٥٢٠-٦١٣هـ/ ١١٢٦-١٢١٦م) الذي كان قد وفد إلى دمشق أيام الأمير فروخشاہ بن شاهنشاه الايوبي (ت ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م)^(٢)، وصار المعظم يدرس عليه النحو واللغة والادب ، والمعروف ان الشيخ الكندي يكاد يكون اهم شيخ في اللغة والنحو في وقته ، فأخذ المعظم عنه كتاب سيبويه في النحو^(٣)، وعن ذلك ذكر ابن واصل "لقد وقفت على نسخة من كتاب سيبويه وعليها خط المعظم في عدة مواضع أظنها ستة يقول في بعضها : أتممت هذا الكتاب مطالعة ومراجعة وأنا منازل مدينة ارسوف"^(٤)، وفي بعضها أتممته مطالعة ومراجعة وأنا بنابلس"^(٥) وهذه اشارة صريحة ان المعظم حتى خلال حملاته العسكرية كان يلزم طلب العلم والتزود بالمعرفة .

(١) هو زيد بن الحسن بن زيد البغدادي . من اشهر علماء عصره في اللغة والنحو شيخ الحنفية والقراءة بالشام . كان الكندي قد ترك بغداد منذ سنة (٥٦٣هـ/ ١١٦٧م) متوجهاً إلى ديار مصر ، ثم غادرها لاحقاً إلى بلاد الشام التي استقر بها حتى توفي بدمشق . وقد حظي الكندي بمنزلة رفيعة عند أمراء بني ايوب خصوصاً عند الملك المعظم عيسى . للمزيد من التفاصيل ينظر : الحموي : معجم الادباء ، بيروت ، دار المستشرق ، د.ت ، ج ١١ ، ص ص ١٧٠ - ١٧٦ ؛ جمال الدين ابي الحسن بن علي القفطي : أنباء الرواة على انباء النحاة، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٢ ، ج ٢ ، ص ١١ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ؛ القفطي : انباء الرواة ، ج ٢ ، ص ١١ .

(٣) ابو شامة : الذيل ، ص ٩٧ ؛ الصفدي : تحفة ، ق ٢ ، ص ١٠٩ ؛ المقرئ : درر ، ق ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٤) ارسوف : قلعة حصينة تقع على ساحل بحر الشام (البحر المتوسط) على بعد حوالي ستة اميال (حوالي ١٢ كم) شمالي مدينة يافا ، والى الغرب من مدينة الرملة على نحو اثني عشر ميلاً (حوالي ٢٤ كم) . ابو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٣٩ .

(٥) مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ص ٢١٠-٢١١ .

فضلاً عن ذلك فقد درس المعظم على يد الكندي كتاب (الحجة في القراءات) لابي علي الفارسي^(١) كما اخذ عنه أيضاً ديوان الحماسة لابي تمام (ت ٢٣١هـ/٨٤٦م)^(٢). ومن الواضح ان الملك المعظم لم يحصل على ثقافته في فترة صباه وشبابه فحسب بل كان دؤوباً لها سعى الى امتلاكها طوال فترة حياته كلما اتاحت فرصة ذلك على الرغم من انشغاله بمشاكل عصره السياسية وامور الجيش .

وتجسيدا لاهتمامات الملك المعظم بعلوم اللغة والنحو فقد أمر بحدود سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) ببناء مدرسة بمدينة القدس عرفت بالمدرسة النحوية او القبة النحوية^(٣) لتكون مركزاً لتدريس كل ما يتعلق باللغة العربية وعلومها ، ولدعم تلك المؤسسة العلمية مادياً " وقف [الملك المعظم] عليها وقفاً جليلاً ... وشرط ان لا يصرف من وقفها شيء الا للحنفية فقط"^(٤)، وهذا يتماشى بالطبع مع اتجاهه المذهبي .

لم تقتصر ثقافة الملك المعظم على الفقه والادب وعلوم اللغة بل كانت اهتماماته منصبية ايضاً على الحديث وسماعه ، ولجل ذلك فقد سمع مسند الامام احمد^(٥) على الشيخ حنبل بن عبدالله بن سعادة المكي (ت ٦٠٤هـ/١٢٠٧م) من اشهر رواة الحديث ووصف بأنه

(١) ابو علي الفارسي : هو حسن بن احمد بن عبد الغفار (٢٨٨-٣٧٧هـ/٩٠٠-٩٨٧م) ، فارسي الاصل ، وهو من أئمة اللغة العربية له عدة كتب منها (الايضاح) في قواعد اللغة العربية و (جواهر النحو) اضافة إلى كتاب (الحجة في القراءات) . للمزيد ينظر : ابن خلكان : وفیات ، ج ٢ ، ص ص ٨٠-٨٢ ؛ أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الانباري : نزهة الالباء في طبقات الادباء ، تحقيق : ابراهيم السامرائي ، ط ٢ ، بغداد ، مكتبة الاندلس ، ١٩٧٠ ، ص ٢٣٢ ؛ ابو الفضل احمد بن محمد ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان ، حيدر اباد ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، ١٩١٢ ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .

(٢) الصفدي : تحفة ، ق ٢ ، ص ١٠٨ ؛ الذهبي : سير ، ج ٢٢ ، ص ١٢١ ؛ المقريزي : المذهب المسبوك ، ص ٧٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢١١ ؛ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٤ ؛ العسلي : معاهد العلم ، ص ١٠٦ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢١١ .

(٥) هو ابو عبدالله احمد بن محمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ/٧٨٠-٨٥٥م) امام المذهب الحنبلي وأحد أئمة المذاهب المذاهب الاسلامية الاربع ، ولد ببغداد وله عدة مؤلفات أشهرها (المسند) في الحديث النبوي . للمزيد ينظر : ابن الجوزي : مناقب الامام احمد بن حنبل ، بيروت ، دار الافاق الجديدة ، ١٩٧٣ .

مسند عصره ، روى المسند بمدينة اربل والموصل واخيرا بدمشق حيث سمعه المعظم منه^(١) كما سمع أيضاً من الشيخ عمر ابن طبرزد^(٢) (ت ٦٠٧هـ / ١٢١٠م) رواية الحديث^(٣).

وكان الملك المعظم شديد الاهتمام بالشعر ومجالسة الشعراء ، وتحصيلاً لكل اهتماماته الثقافية المتنوعة وما كان يتمتع به من شخصية علمية ، فقد وصف انه في بني ايوب كالمأمون في بني العباس^(٤)، وعن تذوقه للشعر فقد أشارت بعض المصادر ان الملك المعظم كان ينظم الشعر حيث روى له ابن واصل أبياتاً شعرية قال عنها انه ألفها رداً على أحد خواصه الذي كان يدعى بهاء الدين نصر بن محمد القيسراني^(٥) جاء فيها :

يا من تفرّد بالفضائل دائماً بدأ يؤسس مجدها تأسيساً
لا زلت في درج المكارم راقياً تعلو وربك بالثنا محروساً^(٦).

ومن شعره أيضاً قوله عند وفاة والده الملك العادل :

يقول أنا يعلمون فضائلي وعظم ارتياحي للمكارم والمجد
لأنّ تحضر المرحوم في حال دفنه فقت ولي قلب يفتّت بالوجد
خشيت أرى الإسلام والملك والعلوّ وبذل الندى والحلم يودع في اللحد

وبصدد اهتمامات المعظم الشعرية يذكر سبط ابن الجوزي انه كان له ديوان شعر^(٨) دون ان يشير إلى أي تفاصيل عن هذا الديوان ، وتجدر الإشارة هنا اننا لم نعثر على

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٣٧ ؛ المقرئ : درر العقود ، ق ٢ ، ص ٣٤٠.

(٢) هو أبو حفص عمر بن أبي بكر بن محمد البغدادي كان عالماً في الحديث حث ببغداد والموصل ودمشق كان صحيح الإسناد كثير الأحاديث . للمزيد ينظر : المنذري ، التكملة ، ج ٣ ، ص ٣٣٤-٣٣٦ .

(٣) أبو شامة : الذيل ، ص ٦٢ ؛ الذهبي : تاريخ ، طبعة ٦٣ ، ص ١٨٦ ؛ الصفدي : تحفة ، ق ٢ ، ص ١٠٩.

(٤) شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن عنين : ديوان ابن عنين ، تحقيق : خليل مردم بك ، دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٦٤ ، مقدمة المحقق ، ص ١٣ .

(٥) لم نجد له ترجمة .

(٦) مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢١٨ .

(٧) المقرئ : درر ، ق ٢ ، ص ٣٥٥ .

(٨) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٤٥ .

على أي معلومات حول هذا الديوان المذكور فيما اذا كان مخطوطاً أم مطبوعاً سوى ما ورد من اشارات عابرة لدى من جاء لاحقاً بعد سبط ابن الجوزي حيث يرد عن ذلك انه كان للمعظم ديوان شعر سمعه منه عبد الرحمن القوسي^(١) (ت ٦٣١هـ/١٢٣٣م)، دون الاشارة إلى علاقة القوسي بالمعظم أو زمن لقائه به^(٢). وتماشياً مع التنوع الثقافي والعلمي لدى الملك المعظم فقد درس كذلك السيرة النبوية لابن هشام^(٣) على يد القاضي ابي محمد عبدالله بن محمد بن المحلي^(٤).

٤ - وفاته :

قضى الملك المعظم جلّ حياته في الجهاد محارباً ضد الصليبيين المحتلين لديار المسلمين، ودون شك ان تلك الحروب والحملات العسكرية انعسكت سلباً على صحته فقد اخذ المرض منه مأخذاً وهو في حدود السادسة والخمسين من عمره والذي كان سبباً لوفاته فيما بعد ، وتعود بداية مرضه الى سنة (٦٢٣هـ/١٢٥٥م) عندما مرض "مرضته التي كان قد بلغ فيها الموت"^(٥) على حد ذكر الحموي ولم تمدنا المصادر بتفاصيل أخرى عن حالة المعظم على أثر ذلك المرض ، وما هي الا سنة واحدة حتى عاوده المرض ثانية في (منتصف شوال ٦٢٤هـ/نهاية ايلول ١٢٢٦)^(٦) قضى المعظم ما يناهز الشهر والنصف وهو يصارع المرض

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن الحسن كاتب وشاعر اصله من قوص بمصر . للمزيد ينظر : ابو الفداء: المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٥ .

(٢) الصفدي : تحفة ، ق ٢ ، ص ١٠٩ ؛ الذهبي : تاريخ ، طبقة ٦٣ ، ص ١٨٦ ؛ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، بيروت ، دار احياء التراث ، د. ت ، ج ٨ ، ص ٢٢ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٤٥ ؛ المنذري : التكملة ، ج ٥ ، ص ٣١٨ ؛ المرتضى الزبيدي : ترويح القلوب في ذكر الملوك بني ايوب ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، دمشق ، مجمع اللغة العربية ، ١٩٦٩ ، ص ٧٣ .

(٤) لم نجد له ترجمة .

(٥) أبو الفضائل محمد بن علي بن نضيف الحموي : تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان (المشهور بالتاريخ المنصوري) ، تحقيق : أبو العيد دودو ، دمشق ، مطبعة الحجاز ، ١٩٨١ ، ص ١١٩ .

(٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٤٨ .

الذي اشتد به حتى رمى قطعاً من كبده^(١) متأثراً بمرضه فتوفي على أثر ذلك في (١ ذي الحجة / ١٢ تشرين الثاني)^(٢) من نفس السنة ، ودفن في قلعة دمشق ، ثم نقل منها سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م) الى مثواه الاخير بالمدرسة المعظمية التي كان قد أنشأها بدمشق^(٣).

وتجدر الإشارة هنا ان حكم الملك المعظم لدمشق دام قرابة اثنين وثلاثين عاماً (٥٩٢-٦٢٤هـ/ ١١٩٦-١٢٢٧م) ثلاثة وعشرون منها قضاها نائباً عن ابيه الملك العادل، وتسع سنوات وخمسة اشهر مستقلاً بعد وفاة ابيه ، وكانت وفاة الملك المعظم ذات أثر كبير في نفوس رعيته^(٤)، حيث نجد بعض المقربين اليه أخذوا يرثوه باشعارهم يأتي في مقدمتهم الشاعر شرف الدين ابن عنين^(٥) (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) ، فقد رثاه بقصيدة طويلة جاء في مطلعها :

يا دهر ويحك ما عدا مما بدا	أرسلت سهم الحادثات فأقصدا
غمدت سيفاً مرهفاً شفرائه	قد كان في ذات الآلة مجرداً
فأفعل يجهدك ما تشاء فإنني	بعد المعظم لا أبالي بالردى
ما خاتمه يفنى وأبقى بعده	يا بؤس عيشي ما أمرً وانكدا ^(٦)

(١) المصدر نفسه والجزء والقسم والصفحة ؛ علي بن محمد بن علي الحموي : نثر الجمان في تراجم الاعيان، مخطوط مكتبة شيسترييني ، دبلن ، رقم (٤١١٣) ، نسخة مصورة بالمايكروفيلم في المكتبة المركزية بجامعة الموصل ، رقم (٢٨٧) ، حوادث سنة ٦٢٤ هـ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٤٨ .

(٣) المنذري : التكملة ، ج ٥ ، ص ٣١٨ ؛ الصفدي : تحفة ، ق ٢ ، ص ١١٤ ؛ الذهبي : تاريخ ، طبعة ٦٣ ، ص ١٨٧ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٤٩ .

(٥) هو ابو المحاسن محمد بن نصر الانصاري شاعر واديب دمشقي ، وكان مولعاً بالهجاء ترك دمشق في ايام صلاح الدين ، ثم رجع اليها سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) والقائم بأمرها الملك المعظم ، فتقدم عنده حتى اصبح عند المعظم مستشاراً ووزيراً . للمزيد من التفاصيل ينظر : ابن خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ص ١٤-١٨ ؛ خير الدين الزركلي : الاعلام ، ط ٣ ، بيروت ، د.ن ، ١٩٦٩ ، ج ٧ ، ص ٣٤٨ .

(٦) ابن عنين : ديوان ، ص ٥٩ .

المبحث الأول

الملك المعظم حاكما بالنيابة عن والده

(٥٩٢-٦١٥هـ/١١٩٦-١٢١٨م)

١. استلام المعظم أمر دمشق في حياة والده العادل (٥٩٢هـ/١١٩٦م) :

ليس لدينا معلومات مبكرة عن حياة الملك المعظم السياسية شأنه في ذلك شأن اغلب أفراد الأسرة الأيوبية الذين لا تقدم لنا المصادر التاريخية الشيء الكثير عن حياتهم المبكرة، فغالبا ما تبدأ تلك المصادر الحديث عن شخصية معينة ويسلط الضوء عليها عندما تبرز في حادثة سياسية أو حملة عسكرية ، كما هو الحال مع الملك المعظم ، فأول إشارة عنه ترد في خضم أحداث سنة (٥٩٢هـ/١١٩٦م) بعدما تمكن الملك العزيز بن صلاح الدين -وهو ابن عم المعظم- من السيطرة على دمشق وإبعاد أخيه الملك الأفضل منها .

بعد سيطرة الملك العزيز على دمشق ، تمكن الملك العادل الظفر بسلطة دمشق بعد اقناعه العزيز إسناد ولايتها اليه على ان تكون الخطبة والسكة باسم الاخير وذلك في سنة (٥٩٢هـ/١١٩٦م)^(١)، ولا غرابة في ذلك فقد تميز العادل بالدهاء والحنكة السياسية التي لا يستهان بها ، كما كان العادل حريصا على ان يأخذ ممتلكات اولاد أخيه صلاح الدين من ايديهم في الاوقات المناسبة وبسبل شتى وجعلها في ايدي ابنائه تباعا ، ويقدر تعلق الأمر بالملك المعظم تذكر بعض المصادر التاريخية ان العادل أفاد من فرصة من ليلة من ليالي انس الملك العزيز بعد سيطرته على دمشق وهي ليلة (الاثنين ٩ شعبان/٨حزيران)^(٢) من نفس السنة ، فطلب من ولده المعظم ان "ادخل فقبّل يده [الملك العزيز] ، واطلب منه دمشق ،

(١) أبو شامة : الذيل ، ص ٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ص ٦٨-٦٩ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٤٢ .

وكان المعظم قد راهق الحلم ، فقبل يده وطلب منه دمشق فدفعها إليه أعطاه مستحقه^(١)»^(٢).
كان المعظم آنذاك في حدود السادسة عشرة من عمره، في حين كان الملك العزيز قد بلغ الخامسة والعشرين .

ويبدو واضحاً من خلال ما سبق ان الملك العادل على درجة من الحذق السياسي ،
فأراد ان يمهّد للمعظم القيام بأمر دمشق بان يأخذ موافقة العزيز حتى لا يسوغ له ان يغير
سياسته تجاهه -أي تجاه العادل - إذا ما عين المعظم حاكماً لدمشق دون الرجوع اليه . رغم
ان العزيز كان قد استتاب عمه العادل بها ، ويمكننا القول ان سياسة العادل تلك تفصح عن
رؤيته السياسية على المدى البعيد ، وانه كان يطمح بأكثر من ان يكون حكمه لدمشق فقط ،
فنجده يخطط منذ الوهلة الاولى في سبيل ان تكون دمشق لولده المعظم حتى يتفرغ هو
لأهداف أخرى .

واختلفت الروايات التاريخية في تحديد السنة التي تولى فيها المعظم حكم دمشق،
فهناك رواية أخرى بخصوص إسناد ادارة دمشق للمعظم تختلف عما سبق ، حيث تذهب تلك
الرواية ان الملك العادل استتاب ابنه المعظم على دمشق سنة (٥٩٤هـ/١١٩٨م) بمباركة من
الملك العزيز ، وذلك في خضم المواجهة مع الصليبيين ، واجتماع بني ايوب للدفاع عن
تبنين^(٣) ضد الصليبيين المحاصرين لها في السنة نفسها^(٤)، وان صح ما ذكره ابن كثير

(١) وردت هذه المفردة عند سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٤٣ (سبّخته) ولم يسعفنا
المحقق بشيء عنها ، والراجح انه مسألة تصحيف ، وقد رجحنا على (سبّخته) مفردة (مستحقه) كما وردت
في النجوم الزاهرة لدى ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) لكونها اقرب إلى فهم السياق خاصة واننا وبعد
البحث لم نجد هناك مدلولاً ما أو عرفاً معين يرتبط بالمسبة كي يمكننا قبولها .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٢٦ .

(٣) تبنين : بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانياس إلى الجنوب منها بين دمشق وصور . ياقوت الحموي
: معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٤ .

(٤) عن تفاصيل تلك الاحداث ينظر : سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٥٦ ؛ ابن واصل :
مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٧٥-٧٦ .

(ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) انه قد عظمُ المعظم عيسى بن العادل في هذه المرة

واستتابه ابوه على دمشق^(١). فان ذلك يشير اشارة واضحة ان المعظم قد أبلى بلاءً حسناً في الدفاع عن تبنين بشكل يستحق التكريم ، وهنا يظهر الملك العزيز والذي كان مشاركاً في المواجهة ليكافيء ابن عمه المعظم بأن "اعطاه صنجقاً"^(٢) ومنشوراً بدمشق^(٣) مؤكداً بذلك حكمه لدمشق .

بعد استقراء الروايتين السابقتين عن نيابة المعظم لدمشق يمكن القول بأن حكمه في دمشق بدأ منذ سنة (٥٩٢هـ / ١٩٦م) عندما قام الملك العادل بدفع ابنه المعظم كي يطلبها من ابن عمه الملك العزيز ليتم تعيينه على دمشق بموافقة ومباركة الاخير . لكن يبدو ان حكم المعظم لدمشق كما اسماً إلى حد ما الا انه وبحلول سنة (٥٩٤هـ / ١١٩٨م) تم تعيينه بصورة نهائية ورسمية لكي يكون نائباً عن ابيه العادل بدمشق ، فقام العادل بجعل قايمآز النجمي^(٤) (ت ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م) مقيماً بدمشق^(٥) ومستشاراً لولده المعظم في شؤون الادارة والحكم مراعيًا بذلك صغر سن ابنه ، وقلة خبرته على الصعيدين السياسي والإداري .

وتجدر الاشارة هنا ان المعظم بقي نائباً عن ابيه العادل حوالي (٢٣ عاماً) استمرت حتى وفاة الاخير سنة (٦١٥هـ / ١١١٨م) عندها استقل المعظم بالحكم شأنه في ذلك شأن بقية اخوته حيث استقل كل واحد منهم بما كان تحت سيطرته من بلاد .

(١) البداية ، ج ١٣ ، ص ١٦ .

(٢) صنجق : وتلفظ سنجق أيضاً ، وهي كلمة فارسية معربة معناها اللواء أو الراية . ادي شير : الالفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨ ، ص ٩٥ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٥٦ .

(٤) هو صارم الدين قايمآز النجمي كان من كبار امراء نجم الدين ايوب ، وبعده اصبح من خواص صلاح الدين ، وكان عظيم القدر عنده إذا فتح بلد سلمه اليه ، توفي بدمشق سنة (٥٩٦هـ / ١٢٠٠م) . للمزيد ينظر : أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ .

(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٧٤ .

٢ - أطماع الملك الأفضل والملك والظاهر في دمشق :

أ - محاولة سنة (٥٩٥هـ/١١٩٩م) للاستيلاء على دمشق :

تعرضت مدينة دمشق خلال الفترة التي حكمها المعظم نائباً عن أبيه العادل إلى أكثر من محاولة عسكرية من قبل ابن عمه الملك الأفضل بن صلاح الدين الذي عقد عدة تحالفات مع شقيقه الملك الظاهر (ت٦١٣هـ/١٢١٦م) صاحب حلب الهدف منها استرجاع دمشق التي كان الأفضل قد أبعدها عنها منذ سنة (٥٩٢هـ/١١٩٦م) عندما استولى عليها أخوه الملك العزيز بإسناد ودعم من عمه العادل^(١).

لم تستمر الأوضاع هادئة بدمشق ، فبعد حوالي ثلاث سنوات من تولي المعظم ادارتها وتحديداً عند وفاة الملك العزيز صاحب مصر سنة (٥٩٥هـ/١١٩٩م) ، واتصال كبار الامراء الاسدية بالملك الأفضل الذي كان يومئذ بصرخدا^(٢)، ودعوتهم له القدوم إلى مصر لاستلام الحكم فيها اتابكا للمنصور ابن أخيه العزيز ، الذي كان لا يزال صبياً لم يتجاوز العاشرة من عمره .

وبعد ان سمع الملك الأفضل بتلك الاخبار ترك صرخد وتوجه نحو القاهرة التي وصلها في (٧ ربيع الاول ٥٩٥هـ/ ٧ كانون الثاني ١١٩٩م) لاستلام الادارة بمصر وصياً على ابن أخيه^(٣)، لكن الامور لم تقف عند هذا الحد ، فما ان استقر الأفضل بالقاهرة حتى اخذ يفكر باسترجاع دمشق من عمه العادل ، والقائم بامرها الملك المعظم عيسى فأشار عليه الامراء الاسدية بقصد دمشق^(٤)، وتأييداً له أرسل اليه أخوه الملك الظاهر يحثه على سرعة

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ص ٦٢-٦٤ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٤٣ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٦١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٥ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٤٤ ؛ الذهبي : دول ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٦٢ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٤٦ .

المسير إلى دمشق واغتنام فرصة غياب الملك العادل عنها لانشغاله بحصار ماردين^(١)، ولم تستغرق استعدادات الملك الأفضل للقيام بهجومه المرتقب فترة طويلة ، فقد جهز جيشه متوجها صوب دمشق في (٣ رجب ٥٩٥هـ/ ١ أيار ١١٩٩م)^(٢) أي بعد حوالي أربعة اشهر من دخوله القاهرة .

لقد بادر بعض الأمراء الصلاحية – وهم المواليون للعادل – إلى الاتصال به وهو على حصار ماردين يخبرونه بقصد الأفضل دمشق^(٣)، فما ان علم العادل بتلك المستجدات حتى ترك ابنه الكامل على حصار قلعة ماردين "وسار هو في مائتي فارس إلى دمشق مجدا"^(٤) فوصلها قبل منازل الأفضل للمدينة بحوالي يومين^(٥)، فاخذ يعد المدينة بسرعة للدفاع ولم تمض سوى ايام قلائل حتى وصل الأفضل على رأس الجيش المصري ، والظاهر على رأس الجيش الحلبي وحاصروا دمشق وبعد مناوشات غير حاسمة بين الطرفين تمكن العادل من تدارك الأمر ، فلجأ إلى دهائه السياسي للسيطرة على الموقف ، حيث بادر بمكاتبة بعض أمراء الأفضل والظاهر ويستميلهم ، فابتعد الكثير من الأمراء عن الأخوين وانضموا إلى جانب العادل^(٦)، وفي الوقت نفسه أرسل العادل إلى الملك الظاهر يقول له "أنا اسلم لك دمشق على ان تكون أنت السلطان، وتكون دمشق لك لا للأفضل"^(٧) في محاولة منه لزرع الفتنة بينهم وتمكن العادل من بث الشقاق بين المتحالفين عندما طلب الظاهر من أخيه الأفضل ان تكون دمشق له لكن الأفضل رفض ذلك بقوله "دمشق لي من أبي وانما أخذت

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٦٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٩٤ ؛ ابن

الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٦٣ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٤٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٩٥ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٤٨ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٩٥ .

(٤) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٤٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٥ ؛ ابن الوردي : تاريخ ،

ج ٢ ، ص ١٦٣ .

(٦) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٤٩ .

(٧) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٦٣ .

منني غصبا"^(١)، كما ان وصول الكامل إلى دمشق

بتعزيزات عسكرية دعماً لأبيه العادل^(٢) أعطى للاخير تفوقاً عسكرياً أهله للسيطرة على الموقف بشكل اكبر .

وبالإضافة إلى ما تقدم فان قدوم فصل الشتاء ساهم أيضاً في انسحاب الأخوين من دمشق في (صفر ٥٩٦هـ/تشرين الثاني ١١٩٩م) ، فعاد الظاهر إلى حلب بينما تراجع الأفضل إلى القاهرة ، والجدير بالملاحظة انه لم يرد للملك المعظم أي ذكر في خضم الأحداث السالفة ، وهذا ما يدفع إلى لقول انه لم يكن للمعظم أي دور يذكر في تلك المواجهة عسكرياً كان أو سياسياً .

ب - تحالف الأفضل والظاهر ضد دمشق سنة (٥٩٧هـ/١٢٠١م) :

لم تستمر الاوضاع هادئة في دمشق بعد هزيمة الظاهر والأفضل وفشل محاولة سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م) ، فما زال الأفضل يتحين الفرصة للهجوم على دمشق أملاً في استرجاعها، ولقد ترتب على الفشل الذي لحق بالأخوين خلال محاولتهم السابقة ضد دمشق نتائج وخيمة خصوصاً على الملك الأفضل ، حيث تعقبه العادل إلى مصر ، ودارت بينهما معركة قرب بلبيس^(٣)، اسفرت عن هزيمة الأفضل وهروبه إلى القاهرة^(٤)، وعلى أثر هزيمته تلك ارسل إلى عمه في طلب الصلح ، فتم الاتفاق على عودة الأفضل إلى صرخد، وتسليم مصر للملك العادل ليكون وصياً بدلاً عنه على المنصور بن العزيز^(٥). لكن العادل وبعد استقراره بالقاهرة

(١) المصدر نفسه والجزء والقسم والصفحة .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٤٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٠٥ ؛ ابن العديم : زبدة ، ج ٣ ، ص ١٤٦ ؛ الذهبي : تاريخ ، طبعة ٦٣ ، ص ١٠٥ .

(٣) بلبيس : مدينة تقع إلى الشمال الشرقي من مصر على طريق الشام بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ (حوالي ٦٠ كم) . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ص ٢٣٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٨ ؛ الداوداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٤١ .

(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٧٠ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ٤٢٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٠٩ .

استقل بالسلطة وقطع خطبة المنصور^(١)، الأمر الذي أثار بعض الأمراء الصلاحية عليه وفي مقدمتهم الأمير فارس الدين ميمون القصري^(٢) صاحب نابلس.

لم يكن ذلك هو الأمر الوحيد الذي أدى إلى تربيّ الأوضاع السياسية ضد الملك العادل في مصر والشام بل إن علاقته بالملك الظاهر ساءت هي الأخرى عندما أرسل الظاهر رسوله نظام الدين الأصفهاني (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) إلى عمه العادل في (ربيع الأول ٥٩٧هـ/كانون الأول ١٢٠٠م)^(٣)، وتجدر الإشارة هنا إلى أن المصادر التاريخية لم تسعفنا بشيء عن المهمة التي أرسل من أجلها الوزير المذكور إلى الملك العادل .

لما وصل الأصفهاني إلى بلبيس منع من المرور إلى القاهرة^(٤)، الأمر الذي أثار حفيظة الملك الظاهر تجاه عمه العادل ، فشرع في مكاتبة بعض المعارضين للعادل ، وفي مقدمتهم فارس الدين ميمون القصري^(٥)، والذي كان من أشد المعارضين لسياسة العادل تجاه المنصور بن العزيز ، فتم ترتيب تحالف جديد للهجوم على دمشق يضم كلا من الملك الظاهر والملك الأفضل ، بالإضافة إلى اشتراك عدد من الأمراء الصلاحية في ذلك التحالف ، وقد نص الاتفاق أن يهاجم الأفضل والظاهر دمشق ، فإذا سيطروا على المدينة استقر بها الأفضل حتى يأخذوا مصر فيعود هو إلى القاهرة بينما تكون دمشق لأخيه الظاهر إضافة إلى ما بيده من مدن الشام^(٦).

أما الملك العادل والذي كان مقيماً آنذاك بالقاهرة ، فإن خبر ذلك التحالف وصله عن طريق أحد أمرائه ، وهو الأمير عز الدين أسامة (ت ٦٠٩هـ/١٢١٢م) الذي كان قد مرّ على صرخد وهو في طريق عودته من الحج ، فدعاه الأفضل للنزول عنده وعرض عليه الدخول

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٠٥ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٧١ .

(٢) لم نجد له ترجمة .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١١٨ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٥٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٥٢ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١١٩ .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٢٣ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ٤٨٩ ابن كثير : البداية

البداية ، ج ١٣ ، ص ٢٧ .

في التحالف ضد الملك العادل ، فتظاهر عز الدين بالقبول عند ذلك اعلمه الافضل بكل ما تم الاتفاق عليه مع الملك الظاهر ، فاتصل عز الدين بسيدة العادل واطلعه على مجريات الاحداث^(١).

بادر الملك العادل باتخاذ بعض الاجراءات التي من شأنها تدارك الموقف لمواجهة الهجوم المحتمل على دمشق ، فأرسل إلى ابنه الملك المعظم عيسى نائبه على دمشق ، يأمره باعداد جيشه والتوجه إلى صرخد حيث مقام الملك الافضل لحصار المدينة كي يعرقل جهوده في تنفيذ ما تم التوصل إليه مع الملك الظاهر ، كما بعث العادل إلى فخر الدين جهاركس وميمون القصري يأمرهما بالتوجه إلى صرخد^(٢) للمساعدة ابنه المعظم في جهوده العسكرية لاجبار الافضل على التراجع عن اتفاقه مع الظاهر ، وتنفيذ لأوامر العادل قام الملك المعظم بتجهيز قوة عسكرية وسار بها نحو صرخد لكن الأفضل كان أسرع منه ، فما ان سمع بتحركات ابن عمه حتى خرج من المدينة في (١٠ جمادي الاولى ٥٩٧هـ / ١٦ شباط ١٢٠٠م) متوجها إلى حلب^(٣) بعد ان استتاب بها شقيقه الظافر خضر (ت ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م) وفي تلك الاثناء وصل الملك المعظم إلى بصرى^(٤)، ومنها أرسل إلى فخر الدين جهاركس وهو بياناس وميمون القصري بنابلس يحثهم للالتحاق به إلى صرخد لكنهم لم يجيبوه لأنهم كانوا قد اتفقوا مع الملك الظاهر^(٥) ولما رأى المعظم انه لا جدوى منهم عاد إلى دمشق بينما ذهب ميمون القصري إلى صرخد واجتمع بالظافر خضر، ومن هناك راسل الأفضل والظاهر بحلب

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١١٩ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٥٢ ؛ ابن الفرات : تاريخ ، مج ٤ ، ج ٢ ، ص ١٩٦-١٩٧ ؛ ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٣٧ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٥٥ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٥٢ ؛ ابن العديم : زبدة : ج ٣ ، ص ١٤٨ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٥٥ .

(٤) بصرى : مدينة تقع إلى الدنو من دمشق على بعد اربعة مراحل إلى الغرب من صرخد على بعد عشرة اميال اميال (حوالي ٢٠ كم) . أبو الفداء : تقويم ، ص ٢٥٣ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١١٩ ؛ ابن الفرات : تاريخ ، مج ٤ ، ج ٢ ، ص ١٩٧ ؛ ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٣٧ .

يطالبهم الإسـ راع بالتوجه إلى دمشق^(١).

خرج الملك العادل من مصر متوجها إلى الشام ، وأرسل جزءا من جيشه إلى دمشق نجدة لابنه الملك المعظم ، وحرص العادل على وصول ذلك المدد إلى ابنه قبل وصول الظاهر^(٢)، لكن الأمور سارت من سيء إلى أسوأ بوصول عساكر الظاهر ومن اتفق معه من الامراء ومحاصرتهم لدمشق في (منتصف ذي القعدة ٥٩٧هـ/ اواسط آب ١٢٠١م) فضايقوا على المدينة حتى كادت تسقط بأيديهم^(٣).

والجدير بالذكر ان المصادر التاريخية المعاصرة لم تزودنا بتفاصيل واسعة عن طبيعة ما تعرضت له دمشق من أحداث ، ولم تعطنا معلومات واضحة عن اجراءات المعظم الدفاعية وهو الحاكم في المدينة ، سوى ما ذكره أبو شامة (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) ان المعظم قاتلهم وحفظ البلد^(٤) دون أي تفاصيل أخرى . بينما انفرد محمد بن نظيف الحموي (ت ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م) برواية مفادها ان المعظم كان مريضا في قلعة دمشق وقت الحصار^(٥)، وإذا صح ما ذكره الحموي ، فان ذلك يفسر عدم وجود أي تفاصيل عن دور الملك المعظم واجراءاته العسكرية خلال تلك المواجهة .

أما الملك العادل ، فقد لجأ مرة أخرى إلى استخدام اسلوب الايقاع بين الاخوين^(٦)، وتمكن من زرع الخلاف بينهما خصوصا عندما ارسل العادل إلى الافضل يعده بالبلاد التي

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٥٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١١٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٢٤ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٢٧ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٥٩ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٥٢ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٧٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٢٥ .

(٤) الذيل ، ص ٢٠ .

(٥) التاريخ المنصوري ، ص ١٨ .

(٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٨٠ .

كانت قد عيّنت له سابقا وهي سميّساط^(١) وسروج^(٢) وقلعة نجم^(٣)، ففترت بذلك همة الافضل وبدأ يتراجع فخّير امرأؤه وجنوده بالبقاء معه أو الالتحاق بعمه العادل^(٤)، ونتيجة لتلك المستجدات ترددت الرسل بين العادل وابناء أخيه في الصلح ، فتم الاتفاق على ان تكون منبج^(٥) واقامية وكفرطاب^(٦) للملك الظاهر ، ويحصل الملك الافضل على سرور وسميساط ورأس عين^(٧) مقابل فك الحصار والاعتراف بسيادة الملك العادل على دمشق ومصر وجميع ما بيد ابناؤه من بلاد . وعليه انسحبت العساكر من دمشق في (بداية محرم ٥٩٨هـ/ بداية تشرين الاول ١٢٠١م)^(٨).

-
- (١) سميّاط : مدينة على الشاطيء الغربي لنهر الفرات من طرف بلاد الشام وبها قلعة حصينة . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٨ .
- (٢) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مضر شمال قلعة نجم . المصدر نفسه والجزء ، ص ٢١٦ .
- (٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٢٦ .
- (٤) المصدر نفسه والجزء والصفحة ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٥٦ .
- (٥) منبج : مدينة كبيرة واسعة تقع إلى الغرب من نهر الفرات على بعد ثلاثة فراسخ (حوالي ١٨ كم) وإلى الشمال الشمال من حلب بينهما عشرة فراسخ (حوالي ٦٠ كم) . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٠٦ .
- (٦) كفرطاب : بلدة صغيرة على الطريق بين المعرة وشيزر بينها وبين شيزر ١٢ ميلا (حوالي ٢٤ كم) . أبو الفداء : تقويم ، ص ٢٦٣ .
- (٧) رأس عين : مدينة كبيرة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين وديسر ، بينها وبين نصيبين ١٥ فرسخا (حوالي ٩٠ كم) وقريب من ذلك بينها وبين حران وهي إلى دنيسر اقرب بينهما ١٠ فراسخ (حوالي ٦٠ كم) . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٤ .
- (٨) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٥٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠١ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٥٦ .

المبحث الثاني

الملك المعظم حاكما مستقلا على دمشق

(٦١٥ - ٦٢٤هـ / ١٢١٨ - ١٢٢٧م)

١ - استقلال الملك المعظم بحكم دمشق (٦١٥هـ / ١٢١٨م) :

توفي الملك العادل في (جمادي الآخرة ٦١٥هـ / آب ١٢١٨م) على أثر الاخبار السيئة التي وردت من مصر وسقوط دمياط^(١) التي كانت تتعرض لحملة صليبية شرسة^(٢)، ولم يعلم بوفاة حينها سوى كريم الدين الخلاطي (ت ٦٣١هـ / ١٢٣٣م) - وهو من الامراء المقربين إلى الملك العادل ولولده المعظم من بعده - كتم الخلاطي خبر الوفاة واتصل مباشرة بالملك المعظم الذي كان حينها بنابلس يخبره بوفاة والده^(٣).

لا نعلم بالضبط ما هو سبب تصرف الخلاطي هذا ، فمن المحتمل انه كان لقرب المعظم جغرافيا من مكان وفاة والده بعالقين^(٤) الواقعة جنوب دمشق إضافة إلى انشغال الملك الكامل - الابن الاكبر للملك للعادل - بصد الهجوم الصليبي على مصر دور في دفع كريم الدين للاتصال بالمعظم أولا ، ومن جهة أخرى يبدو ان كريم الدين كان على علاقة طيبة مع الملك المعظم خاصة إذا علمنا انه اصبح من المقربين اليه فيما بعد فبادر إلى الاسراع بإخبار المعظم بوفاة والده ليتسنى له ضبط امور ملكه بدمشق ، ثم إعلان خبر وفاة

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٦ .

(٢) تلك هي الحملة الصليبية الخامسة (٦١٥-٦١٨هـ / ١٢١٨-١٢٢١م) وتروي المصادر ان سبب وفاة الملك العادل كان نتيجة سماعه لخبر سقوط برج السلسلة بيد الصليبيين وهو برج كبير فيه سلاسل حديدية ممدودة عبر نهر النيل إلى سور دمياط تمنع المراكب الواصلة من البحر ان تدخل إلى ديار مصر ويعد ذلك البرج قفلا للديار المصرية . للمزيد من التفاصيل ينظر : ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٦-٣١٧ ؛ المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، د.ت ، ج ١ ، ص ٢١٣ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ ؛ الحنبلي : شفاء ، ص ٢٢٦ .

(٤) عالقين : قرية شمال دمشق ، وهي اليوم في محافظة درعا السورية منطقة ازرع تبعد عن ازرع (٤٠ كم) شمالا وعن دمشق (٣٧ كم) جنوبا، وعن درعة (٦٧ كم) شمالا . المقريزي : درر ، ق ٢ ، ص ٣٢٤ ، هامش (٢) .

العادل الذي قد يؤدي إلى توتر الأوضاع بدمشق ومما يرجح ذلك سرعة قدوم المعظم إلى مقر حكمه بدمشق بعد يوم أو يومين من وفاة والده^(١). وبمجرد وصوله إلى دمشق أرسل إلى أكابر أمراء الدولة ليقدموا الطاعة لسلطانهم "فحلفوا للملك العادل ، وبعده للملك المعظم، فلما تم للملك المعظم ما اراد من ذلك اظهر موته [أي موت العادل]"^(٢).

بالإضافة إلى ذلك فهناك من الباحثين من اشار إلى ان سبب اخفاء الملك المعظم وفاة والده يعود لما قد يحدثه من تأثير سلبي على الروح المعنوية لعساكر المسلمين المرابطين في دمياط لصد الخطر الصليبي^(٣)، الامر الذي دفعه إلى كتمان خبر وفاته .

لقد كان لوفاة الملك العادل نتائج وخيمة على الاسرة الايوبية خصوصا على سياستها الداخلية التي اعاد وحدتها ورص صفوفها الملك العادل بعد وفاة مؤسسها السلطان صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) ، فب وفاة العادل عادت الدولة الايوبية لتتقسم مرة أخرى حيث استقل كل واحد من أبنائه بما كان تحت سيادته من مدن وأقاليم واحتفظوا لأخيهم الأكبر الملك الكامل بالخطبة والسكة^(٤)، فاستقل الملك المعظم بحكم دمشق شأنه في ذلك شأن بقية اخوته وبذلك تبدأ مرحلة جديدة من حكمه لدمشق مستقلا لفترة امتدت تسع سنوات وخمسة اشهر واستقر بيده من حدود حمص شمالا إلى العريش و"يدخل في مملكته بلاد السواحل الإسلامية [ساحل بلاد الشام] وبلاد الغور [غور الاردن] وفلسطين والقدس والكرك والشوبك وصرخد"^(٥).

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٧٦ .

(٣) محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة (حملة جان دي برين على مصر) ، الاسكندرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ ، ص ٢٢٩ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ .

(٥) ابن الفرات : تاريخ ، مج ٥ ، ج ١ ، ص ٦٨ ؛ الحنبلي : الانس ، ج ١ ، ص ٤٠٢ .

٢ - أوضاع دمشق الإدارية في عهد الملك المعظم :

سار الملك المعظم على نفس النظم والقواعد السائدة في الدولة الأيوبية خلال الفترة السابقة لحكمه منذ عصر عمه صلاح الدين بن أيوب وقد جعلها فيما بعد أساساً لنظام حكمه وإدارة دولته . ونظراً لأهمية الجانب الإداري في سياسة الدولة ، لابد من إعطاء صورة واضحة عن الأسس الإدارية في عهد الملك المعظم وسياسته المتعلقة بإدارة ما كان تحت حكمه من مدن ، فضلاً عن رجال الإدارة والسياسة الذين عهد إليهم بالوظائف المهمة في الإدارة سواء كانوا وزراء أم قضاة أم نواب ، وكان من الضروري ان نرفد الحديث عن تلك الوظائف الإدارية ومن شغلها بشيء من التفصيل :

أ - الوزارة^(١) :

تمثل الوزارة سلطة عليا تلي سلطة الملك أو السلطان من حيث الأهمية ، فمن يشغل هذا المنصب يمثل حلقة وصل بين الملك ورعيته ، ومن واجبات الوزير تقديم النصح والمشورة للسلطان أو الملك^(٢) باعتباره من المقربين اليه ، ومن جهة أخرى فإنه يقع على عاتق الوزير تدبير امور الدولة والنظام على اسس الدين والحق^(٣)، فضلاً عن ذلك فقد أشارت بعض المصادر ان من يشغل هذا المنصب "لزمه النهوض بمهمات الدولة وأمور المملكة يحمل أثقاليها ويزيح اختلالها ويحفظ رجالها"^(٤).

(١) حول مفهوم الوزارة ونشأتها ينظر : أبو الحسن علي بن محمد الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ت ، ص ص ٢٥-٣١ ؛ شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري: نهاية الإرب في فنون الأدب ، القاهرة ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت ، ج ٦ ، ص ٩٢ وما بعدها ؛ خودا بخش : الحضارة الإسلامية ، ترجمة : علي حسني الخربوطلي، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٠ ، ص ص ١٢٠-١٤٦ ؛ توفيق سلطان اليوزيكي : الوزارة نشأتها وتطورها في العصر العباسي ، ط ٢ ، الموصل ، دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٧٦ ، ص ص ١٣-١٩ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٥ .

(٣) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، صححه : بولس راويس ، باريس ، المطبعة الجمهورية ، ١٨٩٤ ، ص ٩٤ .

(٤) النويري : نهاية الإرب ، ج ٦ ، ص ٩٤ .

اما عن طبيعة هذا المنصب الاداري في عهد الملك المعظم فمعلوماتنا قليلة جدا حيث لم تمدنا المصادر -المطلع عليها - بروايات وافية تمكننا من الوقوف على طبيعة منصب الوزارة وصلاحياته وهل كان يرقى بصاحبه إلى سلطات عليا أم لا ؟ ، فكل ما هو متوفر لا يتعدى اشارات بسيطة وردت عند بعض المؤرخين تذكر ان المعظم استوزر بعض الاشخاص المقربين اليه ، وربما كان اولئك عبارة عن مستشارين سياسيين واداريين له وهذا ما يدفع إلى القول بان الملك المعظم لم يكن من الحكام الذين يسلم سلطة عليا في ادارته إلى من سواه ، ويبدو انه كان يفضل القيام بامور دولته بنفسه دون الحاجة إلى اشخاص آخرين ، ومن جهة أخرى فان بلاد الملك المعظم لم تكن بتلك السعة وحتى نظامه الاداري لم يكن بذلك التعقيد الذي يحتاج بموجبه إلى مجموعة من الوزراء .

اما عن أولئك الذين استوزرهم المعظم ، ووصفتهم المصادر بالوزراء فان أول من ورد ذكره متوليا لهذا المنصب هو عبد الوهاب بن صفي الدين أبي محمد عبدالله المخلص (ت ٦١٣هـ/١٢١٦م) ويلقب بجمال الدين الوزير ، والاشارة الوحيدة عنه ترد عند ابن الفرات (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) عند ترجمته للوزير المذكور بقوله "ووزر [ابن المخلص] الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق بدمشق المحروسة"^(١) دون الاشارة إلى تفاصيل أخرى وحتى لم يبين السنة التي تولى فيها ابن المخلص الوزارة للملك المعظم .

وتذكر بعض المصادر ان الملك المعظم استوزر شخصا آخر يدعى رضوان بن محمد بن علي بن رستم الخراساني (ت ٦١٨هـ/١٢٢١م) المعروف بفخر الدين بن الساعاتي^(٢)، وهو أخو الشاعر والاديب بهاء الدين أبي الحسن علي بن الساعاتي^(٣) (ت ٦٠٤هـ/١٢٠٧م) . وفخر الدين بن الساعاتي دمشقي المولد والوفاة وكان

(١) تاريخ ، مج ٥ ، ج ١ ، ص ص ٢١٦-٢١٧ .

(٢) موفق الدين احمد بن القاسم بن أبي اصبيعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، شرح وتعليق : نزار رضا ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥ ، ص ٦٦٢ .

(٣) هو علي بن محمد بن علي بن رستم بهاء الدين بن الساعاتي ، شاعر واديب مشهور ولد ونشأ بدمشق وكان والده يعمل الساعات التي كانت اما رملية أو مائية أو ظليلة ، وله ديوان شعر في مجلدين ، وديوان آخر سماه : مقطعات النيل. للمزيد ينظر : ابن خلكان : وفيات ، ج ٣ ، ص ص ٣٩٥-٣٩٧ ؛ الزركلي : الاعلام ، ج ٥ ، ص ١٥٠ .

طبيباً بارعاً فضلاً عن ذلك فقد كان لابن الساعاتي كفاءات أخرى حيث كانت له معرفة جيدة بالمنطق وكان جيد الكتابة ذو خط يوصف بالجودة ، كما كان شاعراً واديباً درس على يد الشيخ تاج الدين الكندي (ت ٦١٣هـ/ ١٢١٦م)^(١)، ولا شك ان تلك الكفاءات أهلتة ليكون موضع اختيار المعظم له طبيباً ووزيراً ، فقد ذكر ابن أبي اصيبعة (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) ان ابن الساعاتي "خدم الملك المعظم عيسى بن العادل بصناعة الطب وتوزر له"^(٢).

فضلاً عما سبق فقد أوردت بعض المصادر ان الشاعر شرف الدين أبو المحاسن محمد بن عنين (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) قد تولى منصب الوزارة في أواخر دولة الملك المعظم^(٣)، وتجدر الإشارة هنا إلى ان لقدرات ابن عنين الأدبية واللغوية دوراً في ترشيحه لهذا المنصب من قبل الملك المعظم ولا سيما انه كان من المقربين إليه ، كما كان ابن عنين يسافر الى الممالك المجاورة نائباً من الملك المعظم لإنجاز بعض المهمات السياسية ، وعن ذلك يروي ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) انه التقى بابن عنين سنة (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) في مدينة اربل "وكان قد وصل إليها رسولا عن المعظم"^(٤)، لتنسيق العلاقات بين الملك المعظم ومظفر الدين كوكبوري (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) صاحب اربل ، والذي كان بصدد عقد تحالف عسكري مع الملك المعظم^(٥).

ب ـ القضاء^(٦) :

القضاء هو الفصل في الحكم بين الناس لفضّ الخصومات بين المتنازعين^(٧)، ولما لمؤسسة القضاء من أهمية ، فقد أولى الملك المعظم اهتماماً كبيراً بها ، فجعل على رأس هذه

(١) ابن أبي اصيبعة : عيون ، ص ٦٦٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٦٢ .

(٣) ابن خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ١٨٦ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٤) وفيات ، ج ٥ ، ص ١٨٦ .

(٥) سيرد ذلك مفصلاً في الصفحات اللاحقة .

(٦) للتفاصيل عن مفهوم القضاء راجع : الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ص ٨٣-٩٦ ؛ النووي : نهاية الارب ، ج ٦ ، ص ص ٢٤٨-٢٥٧ ؛ عبد الرزاق علي الانباري : منصب قاضي القضاء في الدولة العباسية منذ نشأتها حتى نهاية العصر السلجوقي ، بيروت ، الدار العربية للموسوعات ، ١٩٨٧ ، ص ص ٢١-٨٣ .

(٧) اليوزيكي : دراسات في النظم العربية الاسلامية ، ط ٢ ، الموصل ، دار الكتب للطباعة والنشر ،

السلطة مرجعا أعلى هو قاضي القضاة^(١)، حيث كان صاحب هذا المنصب يتولى النظر في أحوال القضاة في أنحاء الدولة ، كتقليد القضاة والتأكد من كفايتهم ومتابعة أحكامهم^(٢).
لقد كان القضاء في عهد الملك المعظم مشتركا بين قضاة الحنفية والشافعية ولم يكن حصرا على المذهب الحنفي ، كونه حنفي المذهب ، فلم يدفعه ذلك الى التعصب لمذهبه بل انه فصح المجال للمذاهب الأخرى وليس أدل على ذلك إلا تلك الشراكة في القضاء ، فقد كان بدمشق سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) أربعة قضاة "شافعيان وحنفيان"^(٣).

أشهر من تولى منصب قاضي القضاة بدمشق في عهد الملك المعظم :

لقد تولى هذا المنصب خلال حكم الملك المعظم لدمشق اكثر من شخصية لكل واحد منهم كفاءات خاصة أهله بأن يتولى هذا المنصب ، ففي سنة (٦١٢هـ/١٢١٥م) تولى القاضي عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضائل (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) المعروف بجمال الدين الحرساني منصب قاضي القضاة بدمشق بأمر الملك العادل^(٤)، وكان لكفاءته وخبرته الواسعة في الفقه الشافعي ، فضلاً عن كونه من المقربين إلى الملك العادل^(٥) دور في إسناد هذا المنصب إليه ، أما عن ممارسة الحرساني لقضائه ، فكان يقضي بالحق ، وانه كان اعدل القضاة وأقومهم^(٦) لا تأخذه في الحق لومة لائم ، نستدل على ذلك من حادثة للمعظم

(١) عن منصب قاضي القضاة ينظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ص ٣٥-٣٧ ؛ الانباري :

منصب قاضي القضاة ، ص ٨٩ وما بعدها .

(٢) صفاء حافظ عبد الفتاح : نظم الحكم في الدولة العباسية ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٨٦ ،

ص ٢١٥ ؛ الانباري : منصب قاضي القضاة ، ص ٩١ .

(٣) الذهبي : تاريخ ، طبقة ٦٣ ، ص ٢٠ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٠ ؛ شمس الدين محمد بن علي بن طولون : الثغر

الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام (المشهور بقضاة دمشق) ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ،

دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٦ ، ص ٥٥ .

(٥) ابو شامة : الذيل ، ص ١٠٨ .

(٦) ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٦٩ ؛ ابن طولون : قضاة دمشق ، ص ٦٠-٦١ .

مع القاضي الحرستاني ، فقد كان للملك المعظم تجارة مع شخص يدعى ابن قوام^(١) بدمشق ، فمات ابن قوام وكانت له تركة صادرها الملك المعظم لاحقاً^(٢) ، ثم أرسل إلى القاضي جمال الدين الحرستاني يقول له "هذا الرجل كان يتجر بمالي والتركاة لي وأريد تسليمها"^(٣) ، لكن القاضي رفض ذلك وأرسل إلى المعظم يطلب منه ان يقسم بان التركاة هي ماله كي يتحقق القاضي من ان المال للملك المعظم ، فلم يقسم المعظم لعدم تحققه من مقدار ماله بالضبط ، ولم يسلم إليه القاضي التركاة^(٤) . وهذا إنما يدل على نفاذ وقوة سلطة القضاء وحكم القاضي حتى إذا كان الأمير أو السلطان هو طرف في القضية . وبقي الحرستاني في منصبه إلى ان توفي سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م)^(٥) .

وتولى منصب قاضي القضاة خلفاً لجمال الدين الحرستاني القاضي الطاهر محمد بن علي بن محمد ابن الزكي (ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م) في نفس السنة التي توفي فيها الحرستاني^(٦) ، وكانت له حادثة مع الملك المعظم في شهور سنة (٦١٦هـ/١٢١٩م) ، فخلال فترة توليه منصب قاضي قضاة دمشق وتحديدًا في الفترة التي تلت وفاة الملك العادل سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) دارت بين القاضي زكي الدين والملك المعظم خلافات وأراد عزله^(٧) لكنه لم يستطع ذلك في حياة والده ربما خوفاً منه .

بعد وفاة الملك العادل مرضت أخته ست الشام^(٨) (ت ٦١٦هـ/١٢١٩م) عمه الملك المعظم ، فأرسلت إلى القاضي زكي الدين وأوصت بدارها ان تكون مدرسة^(٩) ، فحضر إليها

(١) لم نجد له ترجمة .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٠ .

(٣) المصدر نفسه والجزء والقسم والصفحة .

(٤) المصدر نفسه والجزء والقسم والصفحة ؛ ابو شامة : الذيل ، ص ١٠٧ .

(٥) ابن طولون : قضاة دمشق ، ص ٥٥ .

(٦) ابو شامة : الذيل ، ص ١٠٨ .

(٧) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠٤ ؛ ابو شامة : الذيل ، ص ١١٧ .

(٨) ينظر ترجمتها في : ابو شامة : الذيل ، ص ١١٩ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٨٤ ؛ الحنبلي : شفاء شفاء ، ص ص ٢٢٩-٢٣٠ .

(٩) ابو شامة : الذيل ، ص ١١٨ ؛ الحنبلي : شفاء ، ص ٢٨٣ .

ومعه بعض الشهود ، فلما سمع المعظم بتلك الأنباء لم يرق له ذلك وغضب على القاضي ووجد له "سبيلا إلى إظهار ما كان في نفسه"^(١)، وبذلك اجتمعت الاسباب لدى المعظم للايقاع به ولسان حاله يقول : "يحضر إلى دار عمتي [يقصد القاضي] من غير إذني ويسمع كلامها"^(٢)، ويظهر ان المعظم كان يريد ان يتخلص من القاضي جمال الدين ، فعمد إلى اتخاذ إجراء فيه إهانة وتحقير للقاضي عندما بعث إليه "بقجة فيها قباء"^(٣) وكلوتة^(٤)»^(٥)، وهذه الملابس كانت خاصة بالولاة ولا تليق بالقضاة وأمره ان يحكم بين الناس وهما عليه^(٦). فكان لذلك التصرف وقع كبير في نفس القاضي ، ولم يمتد به الأجل طويلا حيث توفي في اوائل سنة (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) متأثرا بتلك الحادثة على حد ذكر سبط ابن الجوزي^(٧) المعاصر له .

لقد كان لتلك الحادثة اثر سلبي ليس على القاضي فحسب بل على سمعة الملك المعظم نفسه وعدت من غلطات الملك المعظم^(٨)، وفي ذلك انشد الشاعر ابن عنين الذي كان مقيماً بدمشق حينذاك منتقداً تصرف المعظم :

يا أيها الملك المعظم سنة أحدثتها تبقى على الأباد
تجري الملوك على طريقك بعدها خلع القضاة وتحفة الزهاد^(٩).

(١) ابو شامة : الذيل ، ص ١١٧ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠٥ .

(٣) قباء : وجمعه اقبية ، فارسي معرب ، وهو لباس خارجي للرجال يطوى تحت الابط بصورة منحرفة . دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، ترجمة : اكرم فاضل ، بغداد ، مديرية الثقافة العامة، ١٩٧٨ ، ص ٢٨٥ .

(٤) الكلوتة : تجمع على كلاوات وهي طاقية تؤلف هيكل العمامة ، على شكل غطاء للرأس تلبس وحدها او بعمامة . وتسمى أيضاً كلفته وكلفة . ينظر : دوزي : المعجم المفصل ، ص ص ٣١٢-٣١٣ .

(٥) ابو شامة : الذيل ، ص ١١٧ .

(٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٢ ؛ الحنبلي : شفاء ، ص ٢٨٣ .

(٧) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠٥ .

(٨) المصدر نفسه والجزء والقسم والصفحة .

(٩) ابن عنين : ديوانه ، ص ٩٣ .

وتلاه في منصب القضاء بدمشق جمال الدين يونس بن بدران المصري (ت ٦٢٣هـ/١٢٢٦م) حيث عينه الملك المعظم في هذا المنصب في (رجب ٦١٨هـ/آب ١٢٢١م)^(١)، وكان جمال الدين قبل ذلك وكيلا لبیت المال بدمشق^(٢)، فضلا عن ذلك فقد اسند اليه المعظم مهمة التدريس في المدرسة العادلية سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢م)، ويبدو ان كفاءاته خصوصا في الفقه الشافعي وكذلك إخلاصه وعفته في نفسه^(٣)، قد ساهمت ساهمت في رفع شأنه لدى ملوك بني أيوب وحاز على ثقتهم مما دفع الملك المعظم إلى إسناد أكثر من منصب إليه .

أما آخر من تولى منصب قاضي القضاة بدمشق في حياة المعظم ، فهو القاضي شمس الدين أبو العباس احمد بن خليل بن سعادة الخوي (ت ٦٣٧هـ/١٢٣٩م) عندما أناط اليه الملك المعظم منصب قاضي قضاة دمشق في (ربيع الاول ٦٢٣هـ/آذار ١٢٢٦م)^(٤)، بعد بعد وفاة القاضي جمال الدين المصري وكان الخوي إضافة إلى براعته في الفقه عالما بأصول الطب ، قدم الى دمشق في ايام الملك المعظم^(٥)، ولما علم المعظم ما هو عليه من العلم والدراية وسداد الرأي اكرمه وجعله من خواصه^(٦)، واستمر قاضيا بدمشق الى ما بعد وفاة الملك المعظم .

ج - النيابة :

يعد منصب النيابة من المناصب الهامة في الدولة ولا سيما الدولة الأيوبية ، ويقوم هذا المنصب على إدارة المدن الواقعة تحت حكم الملك أو السلطان الذي يقوم بدوره في تعيين

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٢٢ ؛ ابو شامة : الذيل ، ص ١٣٠ ؛ ابن طولون : قضاة دمشق ، ص ٦٤ .

(٢) ابو شامة : الذيل ، ص ١١٧ ؛ النعيمي : الدارس ، ج ١ ، ص ١٨٦ .

(٣) ابو شامة : الذيل ، ص ١٤٨ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٣٩ ؛ ابو شامة : الذيل ، ص ١٤٨ ؛ ابن طولون : قضاة دمشق ، ص ٦٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٣ .

(٥) ابن ابي اصبيعة : عيون الانباء ، ص ٦٤٦ .

(٦) المصدر نفسه والصفحة .

نواب عنه على تلك المدن ، وغالبا ما يكونون من الأشخاص المقربين إلى الملك أو من قادته العسكريين^(١).

ولكون المنطقة التي حكمها الملك المعظم يقع ضمنها العديد من المدن ، فكان من الصعب عليه إدارتها لوحده ، والوقوف على جميع أحداثها ، فلجأ إلى تعيين بعض النواب على تلك المدن الواقعة ضمن سيادته ، ولأجل ذلك استعان الملك المعظم بعدد من اخوته لإدارة بعضها ، ففي سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) وبعد استقلال المعظم بحكم دمشق استتاب شقيقه الأصغر العزيز عماد الدين عثمان (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) على بانياس للقيام بإدارتها^(٢)، في حين كان أخوه الأصغر -غير الشقيق- الملك الصالح اسماعيل (ت ٦٤٨هـ/١٢٥٠م) في خدمته على مدينة بصرى وأعمالها^(٣).

لم تكن سياسة الملك المعظم في تعيين نوابه ورجال إدارته حصرا على أفراد أسرته فحسب بل انه اختار لذلك المنصب بعض رجال دولته ممن وجد فيهم كفاءات إدارية وخبرة سياسية مثال ذلك الامير عز الدين ايبك المعظمي (ت ٦٤٥هـ/١٢٤٧م) استاد دار^(٤)الملك المعظم ومن مماليكه المقربين فقد أسند إليه إدارة صرخد وأعمالها في حدود سنة (٦١١هـ/١٢١٤م)^(٥). والجدير بالذكر ان المصادر التاريخية لم تزودنا بشيء من التفصيل

(١) سوادى عبد محمد الرويشدي : إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ ، بغداد ، مطبعة الارشاد ، ١٩٧١ ، ص ١٧٥ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢١٠ ؛ ابو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١١٤ .

(٣) ابو شامة : الذيل ، ص ١١٣ ؛ ابن الفرات : تاريخ ، مج ٥ ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

(٤) استاد دار : هو منصب اداري في بيوت الملوك والسلاطين يتولى القائم به كل ما يتعلق بامور بيوت السلطان من المطابخ والحاشية والغلمان ، كما يتصرف بكل حرية في النفقات التي تجري للممالك وغيرهم . للمزيد من التفاصيل ينظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢١ .

(٥) ابو شامة : الذيل ، ص ٨٧ ؛ ابن شداد : الاعلاق ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٦٠ ؛ الذهبي : تاريخ ، طبعة ٦٣ ، ص ٨ ؛ الداوداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٧٧ .

عن نيابة الامير عز الدين وتطوراتها والتي ربما استمرت حتى وفاة الملك المعظم سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م) .

كما كان حسام الدين أبي سعد قايمار بن عبدالله المعظمي^(١) والياً على إدارة القدس ويبدو من لقبه انه كان أحد ممالك المعظم ، أما عن الزمان الذي تولى فيه حسام الدين إدارة القدس فليس لدينا أي معلومات تبين ذلك ، لكن يظهر انه كان بها في سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) نستدل على ذلك من نقش موجود على قبة المدرس النحوية^(٢) التي أنشأها المعظم بالقدس حيث يشير النقش ان بناء المدرسة قد تم في سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) بأمر من الملك المعظم عيسى جاء فيه "... وجرى ذلك [أي بناء المدرسة] على يد عبده الراجي عفو ربه الامير حسام الدين ابي سعد قايمار بن عبدالله المعظمي الوالي بالبيت المقدس الشريف وذلك ي شهور سنة اربع وستمئة"^(٣)، ففي هذا النقش اشارة واضحة ان حسام الدين كان نائباً عن الملك المعظم بالقدس وقت بناء المدرسة الا انه لم يرد أي ذكر له في المصادر التي أرخت لتلك الفترة ، مما جعل فترة نيابته على المدينة وطبيعتها غامضة وغير معروفة .

ومن نواب الملك المعظم على القدس عزالدين عمر بن يغمور المعظمي والذي كان نائباً على القدس خلال سنة (٦١٠هـ/١٢١٣م) نستدل على ذلك من كتابة موجودة على جدران برج في القلعة التي بالقدس الشريف يذكر انه "تولى عمارته عز الدين عمر بن يغمور المعظمي في شهور سنة عشر وستمئة والحمد لله رب العالمين"^(٤)، وهذا هو الشاهد الوحيد على نيابة عز الدين على القدس دون أي تفاصيل أخرى .

(١) لم نجد له ترجمة .

(٢) سيرد ذكرها مفصلاً في الصفحات اللاحقة .

(٣) نقلاً عن ك كامل جميل العسلي : معاهد العلم في بيت المقدس ، عمان ، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٨١ ، ص ١٠٤ .

(٤) نقلاً عن : شوقي شعث : التراث المعماري في القدس الشريف بالعهد الايوبي ووسائل صيانتها وترميم، بحوث الندوة العلمية حول القدس وتراثها الثقافي ، الرباط ، ١٩٩٣ ، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، ١٩٩٥ ، ص ٢٩٥ .

٣ - جهود الملك المعظم العمرانية :

أ. أماكن التعليم :

انتشرت في بلاد الشام مؤسسات تعليمية كثيرة ومتنوعة ، فقد شيدت دور القرآن والحديث والمدارس لما كان لها من علاقة وثيقة بالتعليم فقد أنشأت تلك المؤسسات لتحتضن مختلف العلوم وخاصة الفقهية منها ، وتساهم في نشرها بين جمهور المسلمين^(١) ولا سيما ان بلاد الشام كانت تشهد تحدياً صليبياً لمشاعر المسلمين وكياناتهم السياسية التي جاهد آل زنكي ومن بعدهم الأيوبيون بقيادة صلاح الدين لكي تكون كياناً سياسياً موحداً مادياً وروحياً لمواجهة هذا التحدي ، فتسابق الجميع لدعم الحركة العلمية وإنشاء مؤسساتها^(٢).

أما عن جهود الملك المعظم العمرانية في مجال بناء المؤسسات التعليمية ، فإنه يحتل مكانة رائدة بين الأمراء الأيوبيين الذين ساهموا بشكل واسع في حركة الإعمار والبناء ولاسيما أماكن التعليم سواء في دمشق أو بالقدس الشريف الذي احتل مركز الصدارة بين مدن الشام ، فقد بذل المعظم جهوداً تثير الإعجاب في مجال بناء المؤسسات التعليمية وخاصة المدارس^(٣)، ويأتي الملك المعظم بعد عمه السلطان صلاح الدين الأيوبي في عدد المدارس التي أنشأها بالقدس ، فقد أسس وجدّد ثلاثة مدارس فيها ، كما أنه بنى بدمشق مدرسة وتمم أخرى ، أما عن المدرسين في تلك المدارس فيبدو ان السلطان أو من ينوب عنه كان يقوم بتعيينهم على أساس كفاءتهم العلمية^(٤)، ويقوم أيضاً بتخصيص الطلاب الذي يحق لهم التعلم فيها ، بالإضافة الى العلوم التي تختص المدرسة بتدريسها ، وللوقوف على دور الملك

(١) جان سوفاجيه : دمشق الشام لمحة تاريخية منذ اقدم العصور حتى العصر الحاضر ، ترجمة : فؤاد افرام البستاني ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٦ ، ص ٣٦ .

(٢) غانم عبدالله خلف : الحياة العلمية في بلاد الشام على عهد الايوبيين ، اطروحة دكتوراه (غير منشورة) ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ١٩٩٥ ، ص ١٤١ .

(٣) هادية دجاني وبرهان الدين الدجاني : الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين ، بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٩٤ ، ص ٥٠٢ .

(٤) ناظم رشيد : التعليم في ظل الدولة الزنكية والايوبية في الشلام ، مجلة آداب الرافدين ، ع ١٠ ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ١٩٧٩ ، ص ٢٧٩ .

المعظم في انشاء اماكن التعليم ولا سيما المدارس لابد من استعراضها بشيء من التفصيل ،
نبدوها من دمشق ، ثم نفرد للقدس جانباً خاصاً .

أولاً : المدارس التي انشأها المعظم بدمشق :

١ - المدرسة المعظمية (بدمشق) :

انشأ الملك المعظم مدرستين تحملان اسم (المعظمية) إحداها في دمشق والأخرى
بالقدس ، فأما التي بدمشق ، فمعلوماتنا عنها تمتاز بالندرة حيث ان المصادر التاريخية
المتوفرة لم تمدنا بالشيء الكثير عن طبيعة تلك المدرسة وحجمها ، فلا نعلم عدد الطلاب
الذين درسوا بها او الاوقاف التي وقفت لأجلها ، فكل ما متوفر عنها هو ان المعظم قام
بانشاء المدرسة المعظمية سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م)^(١) في موضع يعرف بالصالحية^(٢)، وتحديداً
في الجانب الغربي تحت جبل قاسيون^(٣) المطل على دمشق ، وكانت المعظمية من المدارس
الفقهية ومتخصصة بمذهب الإمام أبو حنيفة^(٤)، ويأتي ذلك انسجاماً مع انتماء الملك المعظم
للمذهب الحنفي .

٢ - المدرسة العادلية :

(١) ابن شداد : الاعلاق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٢٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢١٩ ؛ الحسن بن
احمد بن زفر الاربلي : مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها ، تحقيق : محمد احمد دهمان ، دمشق ،
مطبعة الترقى ، ١٩٤٧ ، ص ١٣ ؛ المقرئ : درر ، ق ٢ ، ص ٣٥١ ؛ محمد كرد علي : خطط الشام ،
دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٢٧ ، ج ٦٩ ، ص ٩٦ .

(٢) الصالحية : قرية كبيرة ذات اسواق وجامع في لحف جبل قاسيون من غوطة دمشق . الحموي : معجم
البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٩٠ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٤٩ ؛ النعمي : الدارس ، ج ١ ، ص ٥٧٩ ؛ ابن
طولون : القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية ، تحقيق : محمد احمد دهمان ، دمشق ، مكتب الدراسات
الاسلامية ، ١٩٤٩ ، ق ٢ ، ص ١٤٣ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢١٩ ؛ المقرئ : درر ، ق ٢ ، ص ٣٥١ .

سميت بالعادلية نسبة الى الملك العادل أبي بكر بن أيوب (٥٣٩-٦١٥هـ/١١٤٤-١٢١٨م) والد الملك المعظم ، وهي من اشهر المدارس الشافعية بدمشق^(١)، تقع على بعد حوالي ١٠٠ متر عن الزاوية الشمالية الغربية للجامع الاموي^(٢)، ويذكر ان الملك العادل شرع في بناء تلك المدرسة في سنة (٦١٢هـ/١٢١٥م)^(٣) لكنه توفي قبل ان يكتمل بناؤها ، ويروي ابن شداد "ان أو من انشأها نور الدين محمود بن زنكي [٥١١-٥٦٩هـ/١١١٧-١١٧٣م] وتوفي ولم تتم فاستمرت كذلك ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين ، ثم توفي ولم تتم"^(٤). وواضح من كلام ابن شداد ان فكرة إنشاء تلك المدرسة تعود لفترة حكم نور الدين محمود إلا أن وفاته حالت دون إتمامها ، فقام الملك المعظم خلال فترة حكمه لدمشق بإتمام بنائها وذلك في أواخر سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢م)^(٥)، وبعد انتهاء أعمال البناء بالمدرسة قام المعظم بنقل جثمان والده الملك العادل الذي كان مدفونا بقلعة دمشق ودفنه بتلك المدرسة سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢م) ونسبها اليه^(٦)، فعرفت فيما بعد بالمدرسة العادلية .

أما عن أولئك الذين تولوا التدريس بالمدرسة العادلية ، فكان أولهم جمال الدين يونس بن بدران المصري (ت ٦٢٣هـ/١٢٢٦م) قاضي قضاة دمشق بأمر من الملك المعظم^(٧) بعد اكتمال بناء المدرسة مباشرة ، وبعد وفاة جمال الدين المصري تولى التدريس بها شمس الدين

(١) محمود ياسين الحموي : دمشق في العصر الايوبي ، دمشق من المطبعة الهاشمية ، د.ت ، ص ٦١ .

(٢) عادل نجم عبو : المدرسة في العمارة الايوبية في سوريا ، مجلة الحوالات الاثرية العربية السورية ، ١٩٧٤ ، مج ٢٤ ، ص ٨٦ .

(٣) ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٦٨ .

(٤) الاعلاق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٤٠ .

(٥) ابن شداد : الاعلاق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٤٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ص ٢١٩-٢٢٠ ؛ النعمي : الدارس ، ج ١ ، ص ٣٥٩ ؛ الحموي : دمشق ، ص ٦١ .

(٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٧ ؛ ابن شداد : الاعلاق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٤٠ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ٧٨ ؛ النعمي : الدارس ، ج ١ ، ص ٣٥٩ .

(٧) ابو شامة : الذيل ، ص ١٤٨ ؛ النعمي : الدارس ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

ابو العباس احمد بن خليل بن سعادة الخوي^(١) (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) ، وبقي مدرسا بالعدلية حتى وفاة المعظم سنة (٦٢٤هـ / ١٢٢٦م) .

ثانيا : جهود الملك المعظم العمرانية بالقدس :

١ - المدارس :

أ- المدرسة المعظمية (بالقدس) :

كانت هذه المدرسة من كبريات المدارس في القدس ، فقد كان لها دور ملموس في الحركة الفكرية فيها^(٢) اما عن موقع المدرسة المعظمية فهي تقع في الجهة الشمالية من المسجد الأقصى تحديدا بين باب حطة وباب العتم^(٣)، ووفق تقديرات العمري (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) فان طولها يبلغ ٣٤ ذراعا (حوالي ٢٢م) وعرضها ٧ اذرع (حوالي ٥م)^(٤)، وتتألف مدرسة المعظم تلك من طابقين^(٥) يبلغ مجمل ارتفاعهما ٩ اذرع أي (حوالي ٦م)^(٦)، هذا ما يتعلق بمساحتها ، أما تاريخ بنائها فيعود إلى سنة (٦١٤هـ / ١٢١٧م)، (٦١٤هـ / ١٢١٧م)، نستدل على ذلك من نقش موجود على جدار المدرسة الجنوبي مكتوب عليه "أمر بعمله مولانا السلطان الملك المعظم شرف الدنيا والدين ابو العزائم عيسى بن أبي بكر ايوب الواقف لهذه المدرسة على الفقهاء والمتفقهة من أصحاب الإمام الاعظم أبي حنيفة ، رضي الله عنه وارضاه وذلك في شهور سنة اربع عشرة وستمائة للهجرة النبوية الشريفة تقبل الله منه وغفر له وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما"^(٧)، اما عن طبيعة التدريس

(١) ابو شامة : الذيل ، ص ١٤٨ .

(٢) العسلي : معاهد العلم ، ص ٢٧٣ ؛ رائف يوسف نجم وآخرون : كنوز القدس ، دم ، دن ، ١٩٨٣ ، ص ١٣٤ .

(٣) من ابواب المسجد الاقصى الشمالية .

(٤) ابن فضل الله العمري : مسالك الابصار في ممالك الامصار ، تحقيق : احمد زكي باشا ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٤ ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

(٥) نجم : كنوز ، ص ١٣٤ .

(٦) العمري : مسالك الابصار ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

(٧) نقلا عن : العسلي ، معاهد العلم ، ص ٢٧٤ .

في المدرسة المعظمية ، فلا يتوفر الكثير من المعلومات عن ذلك سوى انها كانت قد خصصت لتدريس الفقه الحنفي وكانت حصرا على طلاب هذا المذهب^(١) .

ب- المدرسة النحوية (القبة النحوية)^(٢):

لقد كان الملك المعظم ذا شغف بعلوم اللغة العربية ، ولا سيما النحو ، ويبدو ان ولعه بالنحو دفعه إلى تخصيص مدرسة خاصة لتدريسه ، فأمر في سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) ببناء مدرسة عرفت بالمدرسة النحوية أو القبة النحوية^(٣)، ويظهر ان المعظم كان قد اسند مهمة القيام ببناء هذه المدرسة إلى نائبه على القدس الأمير حسام الدين أبي سعيد قايماز بن عبدالله المعظمي ، نستدل على ذلك من النقش الموجود على قبة المدرسة من الداخل في جهة الشمال يقول "... أمر بإنشاء هذه القبة المباركة وما يليها من العمارة مولانا السلطان الملك المعظم شرف الدنيا والدين ... وأجرى ذلك على يد عبده الراجي عفو ربه الامير حسام الدين أبي سعيد قايماز بن عبدالله المعظمي الوالي بالبيت المقدس الشريف وذلك في شهر سنة اربع وستمائة"^(٤).

أما عن موقع المدرسة فهي تقع في أقصى الطرف الجنوبي من صحن الصخرة الشريفة^(٥)، وتتكون المدرسة النحوية من غرفتين وصالة في الوسط وتعلو الغرفة الغربية قبة لطيفة ويغطي الغرفة الشرقية والصالة سقف أفقي ، أما مدخل المدرسة فيقع في الجهة الشمالية^(٦)، وبالنسبة إلى تنظيم المدرسة فيظهر ان الملك المعظم كان قد عين فيها شيخا

(١) الحنبلي : الانس ، ج ١ ، ص ٤٠٣ ؛ رشاد الامام : مدينة القدس في العصر الوسيط ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٦ ، ص ١٩١ .

(٢) للمزيد من التفاصيل عن المدارس النحوية ونشأتها ينظر : شوقي ضيف : المدارس النحوية ، ط ٢ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨ .

(٣) الحنبلي : الانس ، ج ٢ ، ص ٣٢ ؛ الامام : مدينة القدس ، ص ١٩٠ ؛ شعث : تراث ، ص ٢٩٤ .

(٤) نقلا عن : العسلي : معاهد العلم ، ص ١٠٤ .

(٥) العمري : مسالك الابصار ، ج ١ ، ص ١٤٥ ؛ كرد علي : خطط ، ج ٦ ، ص ١١٩ ؛ عبد اللطيف الطيباوي الطيباوي : بعض المدارس الاسلامية في القدس الشريف ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٥٨ ،

ج ٢ ، ١٩٨٣ ، ص ٢٤٢ .

(٦) نجم : كنوز ، ص ١٢٠ .

يدعى شمس الدين بن رزين البلعكي^(١) لتولي مهمة التدريس بها^(٢)، ولم تشر المصادر إلى

الزمان الذي تولى فيه الشيخ البلعكي التدريس بالمدرسة النحوية ، كما جعل المعظم فيها نفرا من طلاب النحو يقدر عددهم بخمسة وعشرين طالبا^(٣)، وقد شرط المعظم على الطلبة المنتمين إليها ان يختصوا باللغة والنحو^(٤)، كما وقف عليها قرية تسمى بيت لقيا من قرى القدس الشريف^(٥).

ج- المدرسة النصرية :

لم يكن اهتمام الملك المعظم عيسى منصبا على بناء المدارس فحسب ، بل انه أولى اهتماما ملحوظا ببعض المدارس الأخرى التي كانت قائمة في بيت المقدس ، ومن بين تلك المدارس المدرسة النصرية او (الناصرية) ، وجاءت تسميتها نسبة الى مؤسسها الشيخ نصر بن ابراهيم بن داود المقدسي^(٦) (ت ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م) ، وتقع المدرسة النصرية بجوار باب الرحمة في الجانب الشرقي من سور المسجد الأقصى^(٧).

وعندما آلت القدس إلى حكم الملك المعظم قام بإعادة بناء المدرسة المذكورة من جديد، وجعلها زاوية لقراءة القرآن وتدريس النحو^(٨) ووقف عليها كتبا من جملتها كتاب (إصلاح

(١) لم نجد له ترجمة :

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢١٢ .

(٣) العمري : مسالك الابصار ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

(٤) المقريزي : درر ، ق ٢ ، ص ٣٤٠ .

(٥) العمري : مسالك الابصار ، ج ١ ، ص ١٤٦ ؛ العسلي : معاهد ، ص ١٠٦ .

(٦) الحنبلي : الانس ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

(٧) الحنبلي : الانس ، ج ٢ ، ص ٣٤ ؛ كرد علي : خطط ، ج ٦ ، ص ١١٩ .

(٨) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(إصلاح المنطق) لأبي يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن السكيت^(١)، أما عن السنة التي بادر معظم بإعادة بناء المدرسة النصرية ، فلا نعلم بالضبط متى تم ذلك ، إلا انه يروي لنا مجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٨هـ / ١٥٢١م) انه قد اطلع على نسخة من كتاب (اصلاح المنطق) السابق الذكر ، وعلى ظهره الوقف وهو مؤرخ في (ذي الحجة ٦١٠هـ / نيسان ١٢١٣م)^(٢)، وعلى أساس ذلك يمكن الاستدلال ان إعادة بناء المدرسة قد جرى قبل ذلك التاريخ .

وممن تولى التدريس بالمدرسة النصرية في عهدها الجديد الفقيه الشيخ تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن الصلاح (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م)^(٣)، وليس لدينا أي تفاصيل عن الفترة التي قضاها ابن الصلاح مدرساً بها .

أما بالنسبة لبقية المدارس التي كانت قائمة والتي أنشأت سواء في عهد الزنكيين أو الأمراء الأيوبيين قبل عهد معظم على حد اطلاقنا على ما يشير إلى ان الملك معظم غوّها أو طوّرها ما عدا المدرسة النصرية السابقة الذكر .

٢ - المسجد الأقصى وجهود الملك معظم في ترميمه :

لقد وجه الملك معظم اهتماما كبيرا بالقدس وخصوصا بالمسجد الأقصى من خلال أعمال الترميم والصيانة التي شملت عددا من ابواب المسجد ، شأنه في شأن اغلب الأمراء الأيوبيين الذين ساهموا بشكل او بآخر في العناية بالمسجد الأقصى خاصة والمدينة المقدسة بشكل عام .

أما فيما يتعلق بالمسجد الأقصى فقد ساهم الملك معظم بشكل كبير في ترميم وتجديد بعض أجزائه ، وخاصة ابوابه ، وفي هذا الصدد يذكر الحنبلي (ت ٩٢٨هـ / ١٥٢١م) ان "غالبا الابواب الخشب المركبة على ابواب المسجد [الأقصى] عملت في ايامه واسمه

(١) المصدر نفسه والجزء ، ص ٣٢ ؛ الامام : مدينة القدس ، ص ١٩٠ ؛ العسلي : معاهد ، ص ٩٩ .

(٢) الانس ، ج ٢ ، ص ٣٢ .

(٣) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

مكتوب عليها^(١)، فقد قام المعظم في حدود سنة (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) بتجديد وعمارة باب الناظر والذي كان يعرف قديماً باب ميكائيل^(٢)، ويقع هذا الباب على الجهة الشمالية الغربية من سور المسجد الأقصى ، وهو باب ضخم محكم البناء له مصراعان من الخشب السميك المصنوع بالنحاس^(٣). كما قام المعظم بتجديد بناء باب العتم الواقع في الجهة الشمالية من المسجد الأقصى عند المدرسة المعظمية وذلك في حدود سنة (٦١٠هـ/١٢١٣م)^(٤) وقام أيضاً بإعادة إعمار باب حطة سنة (٦١٧هـ/١٢٢٠م)^(٥) الواقع إلى الشمال من المسجد الأقصى إلى جهة اليمين من باب الفتح .

كما قام المعظم بإضافة بعض المباني الجديدة إلى القدس (كبرج القلعة) الذي يقع في الجانب الغربي من مدينة القدس ، جُددت في العصر الأيوبي وأضيف إليها عدد من الأبنية خصوصاً في عصر الملك المعظم الذي أولى القلعة اهتماماً خاصاً ، ففي عام (٦١٠هـ/١٢١٣م) قام بإضافة برج جديد إلى القلعة المذكورة يقع في وسطها تقريباً^(٦)، نستدل على ذلك من كتابة موجودة على أحد جدرانه فوق حجر كلسي هذا نصها "بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله محمد رسول الله . عمل هذا البرج المبارك بأمر مولانا الملك المعظم شرف الدنيا والدين ، أبي المظفر عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب بن شادي ، وتولى عمارته عزالدين عمر بن يغمور المعظمي في شهور سنة عشر وستمئة والحمد لله رب العالمين"^(٧).

ثالثاً - تحسين طريق الحج بين دمشق ومكة وبناء بعض المنشآت الخدمية :

أ - طريق الحج :

(١) الحنبلي : الانس ، ج ٢ ، ص ٤٠٣ .

(٢) المصدر نفسه والجزء ، ص ٣٠ .

(٣) نجم : كنوز القدس ، ص ١١٨ .

(٤) شعث : التراث ، ص ٢٩٥ .

(٥) المرجع نفسه والصفحة .

(٦) نجم : كنوز القدس ، ص ١٢٨ .

(٧) نقلا عن : شعث : التراث ، ص ٢٩٥ .

لم تقتصر جهود الملك المعظم على إنشاء المؤسسات التعليمية فحسب ، بل وجه اهتماما ملحوظا لتحسين طرق المواصلات في مملكته ولا سيما ذلك الطريق الذي يسلكه حجاج البيت الحرام والممتد من دمشق الى مكة المشرفة^(١) بهدف تسهيل مهمة السفر على الناس لأداء فريضة الحج ، ففي سنة (٦١١هـ/١٢١٤م) خرج الملك المعظم من دمشق قاصدا البيت الحرام لأداء فريضة الحج^(٢)، ويبدو ان سفر المعظم إلى مكة جعله يقف بنفسه على الصعوبات التي تواجه الحجاج المستخدمين لهذا الطريق ، الأمر الذي دفعه إلى إصدار أوامره بالقيام بترميم وتحسين ذلك الطريق من باب الجابية في دمشق وحتى مكة المشرفة^(٣)، وقد شملت أعمال الترميم تلك تسهيل مواضع كانت وعرة ورفع الصخور^(٤) التي كانت تعيق الحجاج .

وتجدر الإشارة إلى ان أعمال الترميم والصيانة على الطريق استمرت الى فترة لاحقة نستدل على ذلك من قول ابي شامة ان الملك المعظم كان قد "سّر في سنة اثنتين وعشرين وستمئة ، وهي السنة التي حجبت فيها ، من مسح الارض من باب الجابية الى جبل عرفات وكتبها له منزلة منزلة"^(٥)، ويظهر من هذا النص ان المعظم استمر في عنايته بالطريق حتى فترة لاحقة من حجه إلى البيت الحرام .

ب . المنشآت الخدمية :

بالاضافة الى اهتمام المعظم بترميم الطريق المذكور وتحسينه ، فانه قام بجهود طيبة في سبيل تهيئة سبل الراحة لأولئك الحجاج القادمين من الشام ، ومن انجازات المعظم في هذا المجال انه بنى بركة للمياه بالقرب من تبوك^(٦) في منتصف المسافة تقريبا بين الشام

(١) التفاصيل عن هذا الطريق ينظر : سليمان عبد الغني المالكي : طريق حجاج الشام ومصر منذ الفتح

الاسلامي الى منتصف القرن السابع الهجري ، مجلة الدارة ، الرياض ، ١٩٨٤ ، ١٤ ، ص ٨-١٢ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٦٩ ؛ ابو شامة : الذيل ، ص ٨٧ ؛ الذهبي : تاريخ ، طبعة ٦٣ ، ص ١٨٦ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٥٠ .

(٤) ابو شامة : الذيل ، ص ١٥٢ .

(٥) الذيل ، ص ١٥٢ .

(٦) تبوك : حصن بين وادي القرى والشام عند منتصف المسافة تقريبا على طريق الشام ومكة . ياقوت الحموي : الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٤ .

والحجاز^(١)، سميت (بركة المعظم) ، وهي واسعة وضخمة يتجمع فيها ماء المطر ليرد منها الحجاج اثناء رحلتهم الى البيت الحرام^(٢).

وكذلك أمر المعظم بإنشاء حمامين أحدهما للنساء والآخر للرجال بالقرب من مدينة معان^(٣) على طريق الحجاج أيضاً ، كما شيد بالموقع نفسه دار مصيف لاستقبال الحجاج القادمين من الشام^(٤)، ويبدو ان الملك المعظم كان يهدف من بناء تلك المنشآت الخدمية تكوين ط يشبه مجعاً صغيراً لاستراحة الحجاج من عناء السفر ، ومما لا شك فيه ان جهود الملك المعظم تلك إنعسكت إيجاباً على أوضاع الحجاج وساهمت بشكل فاعل في تسهيل سفرهم عبر هذا الطريق ويبدو ان المعظم استمر على سياسة الصيانة والتعمير لتأمين طريق الحج حتى وفاته ، وفي هذا الصدد يروي سبط ابن الجوزي انه لو امتد الأجل بالملك المعظم " لسار الناس إلى مكة بغير دليل"^(٥).

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٦٩ ؛ الصفدي : تحفة ، ق ٢ ، ص ١٠٩ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٦٧ .

(٢) ابو عبدالله محمد بن ابراهيم بن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (المشهور برحلة ابن بطوطة) ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٤ ، ص ١١٢ ؛ عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الجزيري : درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٦٣ ، ص ٤٥٨ .

(٣) معان : وهي مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء (ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٥٣) وهي تقع الآن جنوب المملكة الاردنية تبعد عن عمان ٣٢٤ كم على طريق عمان العقبة : الصفدي : تحفة ، ق ٢ ، ص ١١٠ ، هامش ١ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٥٠ ؛ الذهبي : تاريخ ، طبعة ٦٣ ، ص ٢١ ؛ الحنبلي : الحنبلي : شفاء ، ص ٢٨٤ .

(٥) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٥٠ .

المبحث الأول

سياسة المعظم الحربية في الشام

حتى سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م)

١- جهود المعظم العسكرية في محاربة الصليبيين بعكا (٦٠٧هـ/١٢١٠م) ونتائجها :

تميزت الفترة التي حكم فيها الملك المعظم دمشق نائباً عن أبيه الملك العادل منذ سنة (٥٩٢هـ/١١٩٥م) وحتى وفاة الأخير سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) بأنها فترة هدوء وسلم في أغلبها قياساً بعهد السلطان صلاح الدين ، فقد كان الملك العادل يميل للمهادنة والصلح^(١) متى ما توفرت فيه مصلحته وكلما وجد ذلك ضرورياً دون التسرع في استخدام القوة ضد أعدائه، وبوجه عام ، فإن سياسة العادل تجاه الصليبيين كانت تتسم "بالتسامح والبعد عن التعنت"^(٢).

عقدت الهدنة بين المسلمين والجانب الصليبي سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م)^(٣) والتي انتهت أمدها على ما يبدو سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م)^(٤) على أثر التحركات التي قامت بها عساكر الصليبيين في الشام بعد أن تحشدت قواتهم في عكا^(٥) ضد المدن الإسلامية ، وهنا يبرز دور الملك المعظم في مواجهة تلك التحركات ، فقد جاء رده على الاستفزازات الصليبية ضد

(١) يمكن الإشارة هنا أن الملك العادل لم يترك فرصة وجد فيها الجانب الصليبي مستعداً لعقد هدنة الاواستثمرها في إبرام هدنة جديدة ، فقد عقد الهدنة مع الصليبيين سنة (٥٩٤هـ/١١٩٧م) وسنة (٦٠١هـ/١٢٠٤م) وكذلك عام (٦٠٤هـ/١٢٠٧) وجدها سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م) حيث استمرت حتى عام (٦١٤هـ/١٢١٧م) . ينظر : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ص ١٦٨، ١٧٥ ، ٢٠١ .

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧١ ، ج ٢ ، ص ٩٥٠ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ص ٢٩٦ - ٢٩٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٧٥ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٤٩ .

(٤) لم يرد في مصادرنا المعتمدة أي إشارة صريحة إلى امد تلك الهدنة .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٠١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٧١ .

المسلمين بان توجه على رأس جيشه قاصدا عكا ، ويظهر ان حملة المعظم كانت بقرار وتوجيه من الملك العادل الذي كان متواجداً حينها في دمشق^(١) ومع ان المصادر لم تشر اشارة صريحة إلى ان الملك العادل أمر ابنه المعظم بقيادة حملة عسكرية ضد عكا ، لكن تواجده بدمشق وخروجه هو الآخر منها على أثر التحركات الصليبية ربما دل على ذلك ، ومن ثم ارغام الصليبيين لطلب الهدنة يشير إلى سياسة العادل في الضغط عليهم لاجبارهم على الدخول في هدنة جديدة وبالفعل فقد تقررت بين الطرفين " الهدنة مدة معلومة"^(٢).

وكان الملك المعظم قد سار إلى نابلس واستقر هناك لفترة من الزمن قبل المبادرة بهجومه المرتقب على عكا ولا نعلم بالضبط في أي فترة بدأت الحملة بالتحرك صوب نابلس الا ان المؤرخ سبط ابن الجوزي الذي يعد افضل من وصف تلك الحملة كونه شاهد عيان عليها يذكر فترة خروجه من دمشق إلى نابلس والالتحاق بالملك المعظم في (٦ ربيع الاول ٦٠٧هـ / ٢٨ آب ١٢١٠م)^(٣) وهذا يدل على ان خروج الملك المعظم إلى نابلس كان قبل هذا التاريخ ، فبدأ الملك المعظم يستعد لمواجهة عسكرية بعد ان تحشدت لديه اعداد كبيرة من العساكر الاسلامية خصوصا من المتطوعين للجهاد وقد افاض سبط ابن الجوزي في وصف حماس المسلمين بدمشق ورغبتهم في الجهاد^(٤). حيث قام بنفسه بتحشيد مجموعة من المجاهدين^(٥) والتوجه بهم للانضمام إلى قوات الملك المعظم بنابلس^(٦).

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٠١ .

(٢) المصدر نفسه والجزء ، ص ٢١٩ .

(٣) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ص ٥٤٤-٥٤٥ .

(٤) يذكر سبط ابن الجوزي ان النساء بدمشق قطعن شعورهن ليجدن لها حبالا لخيال المجاهدين وانه جمع منها على هيئة الخيل وينقل كذلك مدى تحمس الناس واستعدادهم للتطوع في الجهاد فقد كانت معه من قرية واحدة من قرى دمشق تدعى (زملكا) ثلاثمائة رجل بالعدد والسلاح . للمزيد ينظر : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ص ٥٤٤-٥٤٥ .

(٥) ربما كانت تلك المبادرة من قبل سبط ابن الجوزي لجلب انظار الملك المعظم خصوصا انه اللقاء الاول بينهم على حد قوله "ولم اكن قد اجتمعت به [بالمعظم] قبل ذلك اليوم" . مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٤٥ .

(٦) المصدر نفسه والجزء والقسم والصفحة .

عندما تكاملت العساكر لدى الملك المعظم بوصول جموع المجاهدين ، قرر حينها التحرك صوب عكا ، ووضح من كلام سبط ابن الجوزي انه جرت بين الطرفين مواجهات عسكرية قام جيش المعظم خلالها باعمال هدم لعدد من المواقع الصليبية اسفرت عن قتل وأسر البعض منهم^(١)، فضلاً عن ذلك فقد قامت عساكر المعظم بقطع اشجار البساتين واتلاف مزروعات الصليبيين القريبة من عكا^(٢). ان هذا الاجراء يدل على سياسة ضغط اقتصادي على الجانب الصليبي انتهجها الملك المعظم ربما لابعاد تجمعاتهم عن قرى ومدن المسلمين .

لقد ساهمت تلك العمليات العسكرية في بث الرعب في صفوف الصليبيين حتى انهم "لم يتجاسروا ان يخرجوا من عكا"^(٣)، كما دفعهم ذلك إلى عدم الدخول في مواجهة حاسمة مع جيش المعظم الذي وصل كما يبدو إلى الحدود القريبة لعكا ، رغم قيام عساكر المسلمين باعمال التخريب أملاً في استفزاز صليبي عكا للخروج اليهم الا ان المعظم لم يفلح في جرهم إلى معركة حاسمة يمكن تخليدها ، وبعد انتهاء تلك الحملة التي استغرقت حوالي ثمانية اشهر عرج المعظم على جبل الطور ليكلل حملته بانشاء قلعة حصينة فوقه .

تشيد قلعة الطور :

بعد الانتصار الذي حققه الملك المعظم على الصليبيين في عكا سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م) يبدو ان المعظم اراد الافادة من حصيلة ذلك النصر العسكري بأن يعزز مواقع الدفعية في المنطقة ، فقرر بناء قلعة حصينة على جبل الطور^(٤). لما يتميز به من

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٤٥ .

(٢) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٣) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٤) يذكر ياقوت الحموي "انه جبل مطل على طبرية الاردن بينهما اربعة فراسخ (حوالي ٢٤ كم) على رأس بيعة واسعة محكمة البناء موثقة الارجاء يجتمع في كل عام بحضرتها سوق ، ثم بنى الملك المعظم هناك قلعة حصينة وانفق عليها الاموال الجمة واحكمها ذات الاحكام " . ينظر : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٧ .

موقع جغرافي مهم فهو مكان مرتفع يقع على بعد اربعة فراسخ^(١) (حوالي ٢٤ كم) على الساحل الغربي لبحيرة طبرية ، بالاضافة إلى ذلك فان موقع القلعة الجديد يقع بالقرب من عكا والتي تعد من أقوى المراكز الصليبية بالشام واكثرها اشارة لقلق المسلمين فمن ذلك اراد المعظم بناء تلك القلعة لتكون بمثابة عين لمراقبة تحركات الصليبيين والسيطرة التامة على المنطقة كون جبل الطور يشرف على اقليم الناصرة أيضاً^(٢)، وبذلك يكون الملك المعظم قد هياً لنفسه موقعاً متقدماً يكون بمثابة خط دفاعي امامي ضد الجبهة الصليبية^(٣)، ومن جهة أخرى فانه يعد نقطة انذار مبكرة لاي هجوم صليبي على املاك المسلمين .

شرع الملك المعظم في عمارة قلعته فوق جبل الطور في (ذي الحجة ٦٠٧هـ / ايار ١٢١١م)^(٤)، والجدير بالذكر ان المعظم استخدم في بناء القلعة الجديدة اعداد كبيرة من الايدي العاملة مستعينا في ذلك ببعض افراد اسرته عندما دعاهم للمشاركة في عملية البناء ، وكان اخوه الاشرف اول من اعانه^(٥)، فأمدّه بعساكر لمساعدته في البناء اما عن حجم القلعة فلا نعلم عنها الكثير لكن يبدو انها كانت كبيرة وتحتاج إلى قوى اضافية الأمر الذي دفع المعظم إلى طلب المساعدة من صاحب حلب الملك الظاهر غازي^(٦)، كما ان الملك العادل -سلطان الدولة الايوبية - عندما رأى حجم القلعة التي كان ولده المعظم مباشراً ببناءها ومدى حصانتها وجد من الضروري اعانته فمد له يد المساعدة "واحضر الصناع من كل بلد واستعمل جميع امراء العسكر في البناء ونقل الحجارة ، فكانت في البناء خمسمائة بناء"^(٧).

(١) الفرسخ يساوي حوالي ٦ كم . فالتتر هنس : المكايل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري ،

ترجمة كامل العسلي ، عمان ، الجامعة الاردنية ، ١٩٧٠ ، ص ٩٤ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٤٥ .

(٣) عمران : الحملة ، ص ١٠١ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٤٥ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ٧٥ .

(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٤٥ .

(٦) المصدر نفسه والجزء والقسم والصفحة .

(٧) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٧٦ .

ان القلعة بقوتها وحصانتها ، وما شكلته من تهديد على المواقع الصليبية اشارت الرعب والفرع في صفوفهم بالشام سرعان ما جنحوا إلى السلم بعد ان عاثوا في بلاد المسلمين غزوا ونهبوا ، وأرسلوا إلى الملك العادل في طلب الصلح وبذلك تكون سياسة الملك المعظم في استعمال المكان كعامل تهديد للضغط على الصليبيين واجبارهم على اقرار مبدأ الصلح قد نجحت أيما نجاح ، وان تلك السياسة أسفرت عن هدنة عقدت بين الطرفين في سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م)^(١).

يبدو ان الاحداث السالفة أشعرت الصليبيين بخطورة الموقف بأن المسلمين في الشام يرغبون في القيام بعمل خطير ضدهم الأمر الذي دفع صليبي الشرق ان يرسلوا اخوانهم من بني جلدتهم في الغرب الاوربي " يعرفوهم بعمارة الطور"^(٢)، ويطلبون منهم ارسال نجدات لمواجهة تلك المستجدات على الساحة العسكرية الشامية ، وتجدر الاشارة هنا ان ذلك أثار كبار رجال الدولة والدين في اوربا وعلى رأسهم البابا انوسنت الثالث^(٣)(٥٩٥-٦١٣هـ/١١٩٨-١٢١٦م) الذي اشار إلى خطورة قلعة الطور على الكيان الصليبي في الشرق خلال حديثه في البيان الذي اصدره سنة (٦١٠هـ/١٢١٣م) الداعي إلى تنظيم حملة صليبية جديدة حيث قال في مجمل حديثه "ان المسلمين بنو حصنا جديدا على جبل الطور وهو المكان الذي شهد عظمة المسيح ومجده ، وانهم باتوا يهددون عكا وهي آخر ما تبقى من

(١) لم تذكر المصادر العربية امد الهدنة ، واكتفت بذكر عقدها فقط . ينظر سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان،

ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٤٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٠١ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ ، مج ٥ ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

(٣) البابا انوسنت الثالث : اسمه لوثر اوف سجنى ، وهو من المع البابوات الذين تولوا منصب البابوية في

العصور الوسطى وينتمي انوسنت إلى عائلة رومانية عريقة تدعى عائلة (كونتي) سادت مقاطعة سجنى ،

وكان عمره في حدود السابعة والثلاثين عندما تولى منصب البابوية سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م) وهو من ابرز

الدعاة للحملة الصليبية الخامسة على مصر الا انه مات سنة (٦١٣هـ/١٢١٦م) قبل ان تتوجه الحملة

المذكورة لتحقيق مقصدها . للمزيد ينظر : اسمت غنيم : الدولة الايوبية والصليبيون ، الاسكندرية، دار

المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨ ، ص ٦٨ وما بعدها .

مملكة بيت المقدس^(١)، وهنا يظهر بوضوح محاولة البابا انوسنت إثارة عواطف الصليبيين من خلال ربط المسألة بشخص المسيح (عليه السلام) وجعلها في قالب الدين .

وهكذا مضى الملك المعظم قدماً في بناء قلعته التي استمر العمل فيها حتى نهاية عام (٦٠٨هـ/١٢١١م)^(٢)، فلما فرغ من بنائها شحنت بالرجال والسلاح ، ويرى أحد الباحثين ان انشاء قلعة الطور وموقعها القريب من عكا وما شكلته من تهديد لها كان من الأسباب المباشرة التي أدت لقدم الحملة الصليبية الخامسة^(٣)، ومما يدل على ذلك وضع حصار قلعة الطور في مقدمة الأعمال العسكرية التي قامت بها القوات الصليبية التي اجتمعت في عكا سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م)^(٤)، والتي كانت مقدمة للحملة الصليبية الخامسة على مصر .

٢. انتهاء الهدنة والخطوات الدفاعية وبدء المجابهة سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م).

أ. تحشد الصليبيين في عكا ودور الملك المعظم في مواجهتهم :

عندما انتهت الهدنة السابقة بين المسلمين والجانب الصليبي سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م)^(٥)، استغل صليبيو الشام الوضع السياسي الجديد وما ترتب عليه ، فأخذوا يعدون العدة على قدم وساق بقيادة الملك جان دي برين -حاكم مملكة بيت المقدس الاسمية - عازمين الهجوم على ممتلكات المسلمين بهدف استرجاع بيت المقدس ، كما كان الأخير قد بادر بارسال الرسل إلى روما يطلب اعداد حملة جديدة تصل إلى الشرق عند انتهاء اجل

(١) عاشور : الحركة ، ج ٢ ، ص ٩٥٦ .

(٢) ابو شامة : الذيل ، ص ٧٠ .

(٣) عمران : الحملة ، ص ١٨٦ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٥ ؛ ابن العديم : زبدة ، ج ٣ ، ص ١٨٠ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٨٧ .

(٥) المقصود هدنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م) ، والتي لم تذكر المصادر العربية امدها بشكل صريح ، الا انها اشارة وفي سياق حوادث سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) إلى انتهاء أمد تلك الهدنة فمن خلال ذلك يمكننا ان نستدل على ان أمد الهدنة كان سبع سنوات . ينظر : سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٨٣ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ١٠٢ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٧٦ .

الهدنة"^(١)، فما ان حل خريف سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) حتى بدأت جموع الصليبيين بالوصول إلى الشام^(٢). وكان معظمهم من الالمان والهنكاريين بقيادة اندريه الثاني^(٣)(٦٠٢-٦٣٣هـ/١٢٠٥-١٢٣٥م) ملك هنكاري^(٤) وتحشدت جيوشهم بعكا "عازمين على قصد القدس الشريف وانتزاعه من ايدي المسلمين"^(٥).

وما ان وصلت انباء تلك التحركات إلى الملك العادل والذي كان حينذاك بمصر حتى بادر بالمجيء إلى بلاد الشام^(٦) نجدة لولده المعظم حيث "وصل إلى الرملة"^(٧)، ثم إلى لُد^(٨)^(٩) وسار منها إلى نابلس الا ان العادل فوجيء بان الصليبيين قد سبقوه إلى المنطقة، فآثر الانسحاب نحو بيسان لعدم قدرته على الدخول في معركة حاسمة ضد ذلك التجمع الصليبي إذ كان المسلمون في قلة ولم تتكامل العساكر^(١٠). وفي تلك الاثناء يظهر الملك المعظم في موقع المعارض لسياسة والده في الانسحاب امام العدو ، ومؤكداً رغبته في قتال

(١) عاشور : الحركة ، ج ٢ ، ص ٩٥٢ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٩ ، ص ٣١٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٣٥٤ ح عاشور : الحركة، ج ٢ ، ص ٩٥٧ ؛

W.B. Stevenson : The crusaders in the east, Beirut, Slim press, 1988, P303 .

(٣) تسميه المصادر العربية (ملك الهنكر والهنكري) . ينظر : سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٨٣ ؛ ابو شامة : الذيل ، ص ١٠٢ .

(٤) تعرف هذه الحملة بالحملة الهنكارية . عاشور : الحركة ، ج ٢ ، ص ٩٥٧ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .

(٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٤ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٨٣ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٩٣ ؛ غنيم : الدولة الايوبية ، ص ٧٢ .

(٧) الرملة : بلدة تقع إلى الشمال الغربي من بيت المقدس على مسيرة يوم ، بينها وبين لُد ثلاثة فراسخ (حوالي ١٢كم) باتجاه الجنوب . أبو الفداء : تقويم ، ص ٢٤١ .

(٨) لُد : قرية تقع قرب القدس من ناحية الغرب في نواحي فلسطين . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٥ .

(٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .

(١٠) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٤ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٨٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٥٥ ؛ رنسيان : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ .

الصليبيين مباشرة ، الا ان الملك العادل لم يرق له ذلك من ابنه و "شتمه بالعجمية"^(١) ، وقال له بمن أقاتل اقطعت الشام ممالكك ، وتركت أولاد الناس الذي يرجعون إلى الاصول"^(٢). ان ان شتم الملك العادل للمعظم فيه نقد كبير لسياسة الاخير وسوء إدارته على ما يبدو خصوصا ما يتعلق بتقسيم الأراضي على الأمراء ، والذي أثار على تركيبة الجيش الشامي وتنظيمه حتى اصبح لا يمكن الاعتماد عليه - في نظر العادل - للدخول في أي مواجهة ضد الصليبيين .

استغل الصليبيون انسحاب العساكر الإسلامية فتقدموا صوب بيسان في جمع كبير ، وتمكنوا من الاستيلاء على المدينة وغنموا منها غنائم وفيرة ونهبوا البلاد من بيسان إلى نابلس^(٣) ، وعم الهلع المدن الإسلامية في الشام خوفا ان يصيبها ما أصاب بيسان ولمواجهة الأخطار المحتملة التي تهدد بيت المقدس قام الملك المعظم بقيادة مجموعة من العساكر والتوجه بهم صوب القدس للدفاع عنها فنزل بعساكره بين القدس ونابلس تحسبا لاي هجوم صليبي^(٤).

ب - حصار الصليبيين لقلعة الطور (٦١٤هـ/١٢١٧م) :

ما ان تمكن الصليبيون من تحقيق بعض الانتصارات خلال غاراتهم السابقة على بيسان وبعض المدن الشامية حتى بدأوا بالاستعداد للهجوم على قلعة الطور التي كان الملك المعظم قد بناها سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م) والتي كانت تعد من الأهداف الرئيسية لحملة الصليبيين تلك ، فبعد ان تراجع الصليبيون إلى مرج عكا قاموا بتوجيه قواتهم العسكرية صوب

(١) هذه اشارة واضحة إلى أن افراد الأسرة الايوبية كانوا يتكلمون بلغة غير عربية وهي اللغة الكوردية لكونهم اكراد كما اسلفنا .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٨٣ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٤ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٨٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٥٥ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٨٣ ؛ ابن الفرات : تاريخ ، مج ٥ ، ج ١ ، ص ٢٢٢ ؛ الداوداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٩٥ .

قلعة الطور^(١) لشن هجوم مباغت عليها بهدف السيطرة لما تشكله أهمية حيوية في المنطقة من جهة ، وتهديدها لامن الصليبيين من جهة أخرى .

تقدمت القوات الصليبية حتى وصلت إلى قلعة الطور يوم الاربعاء (٢٨ شعبان ٦١٤ هـ / ٣٠ تشرين الثاني ١٢١٧ م)^(٢)؛ وضربوا حصاراً شديداً على القلعة ، لكن يبدو ان الظروف الجوية لم تكن جيدة لتسمح بشن هجوم سريع على القلعة ، خاصة إذا علمنا ان تلك المواجهات دارت في شتاء عام (٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) واستمر حصار القلعة إلى يوم الاحد (٢ رمضان / ٤ كانون الاول) من نفس السنة ، حيث تذكر المصادر انه كان يوماً كثيف الضباب^(٣)، فاستغل الصليبيون ذلك لكون الرؤية تكون شبه معدومة في مثل تلك الحالات وهاجموا القلعة فلم يشعر المسلمون "الا وهم [الصليبيون] عند الباب قد الصقوا رماحهم بالسور ففتح المسلمون الباب وخرج اليهم الفارس والراجل وقاتلوهم"^(٤) ، فتراجع الصليبيون ولم يتمكنوا من دخول القلعة ، فعاودوا الكرة ثانية يوم الثلاثاء (٤ رمضان) على أمل القضاء على حامية القلعة ، واستخدموا هذه المرة سلماً عظيماً لصعود سور القلعة^(٥)، فكان نصيبها الفشل كسابقتها لما أبداه حماة القلعة من مقاومة عنيفة ضد الصليبيين ، فأيقن الغزاة عدم قدرتهم على احتلال القلعة ، الأمر الذي اجبرهم على انسحاب نحو عكا في يوم الخميس (٦ رمضان ٦١٤ هـ / ٨ كانون الاول سنة ١٢١٧ م)^(٦)، وبعد ان غادرت القوات الصليبية حضر الملك المعظم وصعد إلى القلعة " واطلق المال والخلع وطيب قلوب الناس"^(٧). مكافأة لحاميتها لما أبدوه من بسالة في الدفاع عنها .

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٨٤ .

(٣) المصدر نفسه والجزء والقسم والصفحة ؛ ابو شامة : الذيل ، ص ١٠٢ ؛ عمران : الحملة ، ص ١٨٦ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٨٤ .

(٥) المصدر نفسه والجزء والقسم والصفحة .

(٦) المصدر نفسه والجزء والقسم ، ص ٥٨٥ .

(٧) المصدر نفسه والجزء والقسم والصفحة .

كان من نتائج الهجوم الصليبي على قلعة الطور ، ان شعر الملك العادل بخطورة تلك القلعة على المسلمين إذا ما تمكن الصليبيون من السيطرة عليها ، الأمر الذي دفعه إلى إصدار أوامره لولده الملك المعظم بهدم القلعة ، ويروي سبط ابن الجوزي ان الملك العادل - الذي كان مقيماً حينها بالشام - استدعى المعظم وقال له : "قد بنيت هذا الطور ، ويكون سبباً لخراب الشام وقد سلم الله من كان فيه من ابطال المسلمين وسلاح الدنيا والذخائر"^(١).

الجدير بالذكر ان سياسة العادل تلك جاءت بعد نزول القوات الصليبية على دمياط في (ربيع الاول ٦١٥هـ/ ايار ١٢١٨م) ، وفي وقت كان المسلمون بأمس الحاجة إلى المزيد من الجنود والسلاح لمواجهة الخطر الصليبي على مصر ، الأمر الذي جعل الملك المعظم يوافق على ازالة القلعة رغم انه تباطأ في بداية الأمر الا ان المصلحة اقتضت ذلك، فأمر بهدم القلعة ونقل جميع ما كان فيها من العدد والذخائر إلى القدس ودمشق^(٢) وغيرها من المدن.

٣- الحملة الصليبية على مصر وسياسة المعظم على أثرها في بلاد الشام .

أ- سير الحملة الى دمياط :

كان البابا انوسنت الثالث (٥٩٥-٦١٣هـ/١١٩٨-١٢١٦م) قد دعا إلى حملة صليبية جديدة ، وذلك ضمن أعمال مؤتمر اللاتيران الكنسي^(٣) الذي عقد سنة

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٣ .

(٢) المصدر نفسه والجزء والقسم ، ص ٥٩٢ .

(٣) مؤتمر اللاتيران الكنسي : يعد هذا المؤتمر من اكبر الاجتماعات المسيحية في اوروبا . عقد هذا المؤتمر في كنيسة لاتيران في ١١ تشرين الثاني ١٢١٥م (٢٠ رجب ٦١٢هـ) للنظر في مسائل متعلقة بالشؤون الكنسية وتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، فضلاً عن الاعداد لحملة صليبية جديدة والتي عرفت بالخامسة فيما بعد وهو الهدف الرئيسي الذي عقد من اجله هذا المؤتمر اتخذت في المؤتمر عدة قرارات منها تحديد موعد (١ حزيران ١٢١٧/ ٢٤ صفر ٦١٤م) لإبحار الحملة إلى للشرق بالإضافة إلى تحريم التجارة مع المسلمين. للمزيد ينظر : عمران : الحملة ، ص ١٥١ وما بعدها .

(٦١٢هـ/١٢١٥م) على ان تكون وجهة تلك الحملة هي مصر^(١) بعد ان أدرك الصليبيون حقيقة هامة وهي ان الايوبيين لم يتمكنوا من الانتصار عليهم إلا بعد سيطرتهم على مصر التي كانت بمثابة القلعة الحصينة التي تمد جيوش الأيوبيين بالإمدادات المادية والمعنوية^(٢). وإذا كانت الحملة الصليبية الرابعة^(٣) (٥٩٩-٦٠١هـ/١٢٠٢-١٢٠٤م) قد خرجت عن الخطة الموضوعية لها واتجهت إلى القسطنطينية بدلا من مصر فان الحملة الخامسة التزمت بالطريق المرسوم لها واتخذت من مصر هدفاً وميداناً للقتال^(٤).

مهما كانت التصورات الصليبية عن دور مصر وعلاقتها ببلاد الشام ، فان جموع الصليبيين أخذت تتوافد من اوربا على بلاد الشام وتحديدا إلى عكا أقوى المراكز البحرية للصليبيين في الشرق آنذاك تلبية لدعوة البابوية^(٥)، واجتمعت تلك الجيوش بمن تبقى من جنود الحملة الهنكارية التي غزت بلاد الشام سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) والتي كانت قد استقرت بعكا فعندما اكتملت استعدادات الصليبيين المجتمعين في بلاد الشام خرج أسطولهم^(٦) متوجها صوب دمياط (بداية ربيع الأول ٦١٥هـ/أواخر ايار ١٢١٨م)^(٧)،

(١) ينظر : الخارطة رقم (٢) ، ص ١٢٨

(٢) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٧ ، ج ٢ ، ص ١٠٣ ؛ غنيم : الدولة الايوبية ، ص ٦٧ ؛ سعداوي : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ ، ص ٦٤ .

(٣) عن الحملة الصليبية الرابعة ، ينظر : أرست باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العريني ، ط ٢ ، بيروت ، دار النهضة ، د.ت ، ص ص ١٩٤-٢٠٤ .

(٤) عاشور : الحركة ن ج ٢ ، ص ٩٦٤ .

(٥) الشيال : تاريخ مصر ، ج ٢ ، ص ١٠٣ ؛ عاشور : مصر والشام ، ص ٧٣ ؛ عمران : الحملة، ص ١٩٧ .

(٦) يذكر الدكتور جمال الدين الشيال واصفا الاسطول الصليبي انه كان ضخما يحمل نحو سبعين الف فارس واربعمئة الف راجل توجهوا نحو دمياط ، ولم يشر الدكتور الشيال إلى المصدر الذي اسقى منه تلك المعلومات. ينظر : تاريخ مصر ، ج ٢ ، ص ص ١٠٣-١٠٤ .

(٧) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٢ ؛ الداوداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٩٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٢٢ ؛ الباز العريني : الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٧ ، ص ١٢٠ .

ونزل الجيش الصليبي على الشاطيء الغربي لنهر النيل^(١)، الا انه لم يتيسر لسفنه المضي قدما نحو مدينة دمياط عبر النيل بسبب ما امتد عبر النهر من سلسلة حديدية ضخمة كانت قائمة بين برجين قويين مشحونين بالرجال^(٢)، والمعروف (برج السلسلة) .

وصلت أنباء نزول القوات الصليبية على بر دمياط إلى الملك الكامل ، الذي كان نائباً عن أبي في مصر ، فسار على رأس الجيش المصري نحو دمياط لصد الهجوم الصليبي، والحفاظ على المدينة من السقوط بأيدي الغزاة ، فنزل بناحية العادلة الواقعة بالقرب من مدينة دمياط^(٣)، وبعث إلى ابيه الملك العادل الذي كان حينذاك في بلاد الشام يطلب منه منه دعماً عسكرياً من القوات الشامية لصد الخطر الصليبي ، وتلبية لدعوة الكامل ولضرورة تدارك الموقف اصدر الملك العادل أوامره بإرسال معظم القوات العسكرية التي كانت موجودة تحت امرته في الشام إلى مصر لنجدة الكامل^(٤)، وفي تلك الاثناء توالى الهجمات الصليبية على برج السلسلة الذي يعد بمثابة السد الحاجز بوجه السفن الصليبية^(٥). فبدون السيطرة على ذلك البرج وازالة السلاسل الممتدة ، لن يتمكن الصليبيون من احتلال مدينة دمياط ، وبعد مضي حوالي ثلاثة اشهر على حصار القوات الصليبية لدمياط تمكنوا اخيراً من الاستيلاء على برج السلسلة في (أواخر جمادي الاولى ٦١٥هـ/نهاية آب ١٢١٨م)^(٦) الأمر الذي افزع المسلمين في مصر لما لهذا البرج من أهمية في حماية بلادهم من أي غزو من جهة البحر .

(1)Stanly lane-poole : A History of Egypt in the middle eges, Holand, Frank cass & Co. LTD, 1968, p219 ; Stevenson : The crusaders, p 303 .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٨٨ ؛ العريي : الشرق الادنى ، ص ١٢١ ؛ رنسيما : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٧٠ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١١٨ ؛ الشيال : تاريخ مصر ، ج ٢ ، ص ١٠٤ ؛ رنسيما : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٧٠ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٦١ ؛ الداوداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٩٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٨٩ .

(٥) يصف أبو شامة هذا البرج بأنه "قفل الديار المصرية" ومن كلامه يظهر ان لهذا البرج اهمية بالغة لمن اراد اراد غزو مصر من جهة البحر . الذيل ، ص ١٠٩ .

(٦) أبو شامة: الذيل، ص ١٠٩؛ ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٧٨؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١ ص ١٨٩.

ب - سياسة الملك المعظم في الشام قبل توجهه إلى مصر :

لم يكد نبأ ذلك الانتصار الذي حققه الصليبيون في مصر باستيلائهم على برج السلسلة ان يصل إلى اخوانهم في بلاد الشام حتى تشجعوا للقيام ببعض العمليات العسكرية ضد بعض المواقع الاسلامية ، حيث خرج جزء من حامية عكا من الفرسان الداوية^(١) للاغارة على مدن وقرى المسلمين^(٢) القريبة منهم ، الأمر الذي استدعى من الملك المعظم القيام بعمل عسكري من شأنه صد تلك الغارات فخرج على رأس جيشه والتقى بالصليبيين قرب حصن القيمون^(٣) حيث دارت بين الجانبين معركة انتصر فيها المعظم وتمكن من ابادة الصليبيين عن آخرهم وذلك في (٥ جمادى الاخر ٦١٥هـ / ٢٩ آب ١٢١٨م)^(٤)، ومن الواضح ان الملك المعظم قد احرز انتصارا ساحقا في تلك المواجهة ، حيث لم ينح من الفرسان الداوية سوى مائة فارس أسره المعظم وقادهم جميعا إلى مدينة القدس وأعلامهم منكسة^(٥).

يبدو ان تلك العملية العسكرية كانت بمثابة رسالة لإشعار الصليبيين ان المسلمين في بلاد الشام على أتم الاستعداد للقضاء على أي محاولة تستهدف أملاكهم ، وفي ضوء تلك المستجدات استمر الملك المعظم قدماً في سياسته الرامية إلى ممارسة الضغط المتواصل

(١) الداوية : منظمة دينية عسكرية تطلق على جماعة فرسان المعبد ، تأسست هذه المنظمة سنة (٥١٣هـ/١١١٩م) لحماية طريق الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس ، وتحولت مع الزمن إلى هيئة حربية دينية . للمزيد من التفاصيل ينظر : التكريتي : الايوبيون في شمال الشام والجزيرة ، بغداد ، دار الرشيد ، ١٩٨٠، ص ٢٧٥ .

(٢) ابو شامة : الذيل ، ص ١٠٩ .

(٣) القيمون : حصن منيع يقع بالقرب من مدينة الرملة من اعمال فلسطين . ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٤٢٤ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٢ ؛ الداوداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٩٧ ؛ الذهبي : تاريخ ، طبقة ٦٢ ، ص ١٩ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

(٥) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٣ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ١٠٩ .

على صليبيبي الشام كي يمنعهم من إرسال أي مساعدة عسكرية لآخوانهم النازلين بمصر^(١)، من جهة ولإجبار الصليبيين بمصر على إرسال جزء من قواتهم إلى الشام خوفاً على ممتلكاتهم هناك من جهة أخرى مما ساعد على تخفيف الضغط العسكري على المسلمين بمصر .

ومن جانب آخر فقد كان الملك المعظم وهو بالشام ينظر إلى الأحداث الدائرة في مصر ، والمستجدات على الصعيد العسكري بعين الحذر مما دفعه إلى ان يحتاط تحسباً لأي هجوم مباغت من قبل الجانب الصليبي ضد بلاد الشام ، فعلى الرغم من قوة مركزه الدفاعي وما حققه من انتصار ساحق على الفرسان الداوية بالقيمون، فإنه كان متخوفاً من الحرب في مصر ، وما قد تسفر عنه من نتائج محتملة تهدد مراكز المسلمين في الشام إذا ما أحرز الصليبيون أي انتصار ، الأمر الذي دفعه إلى اتخاذ بعض التدابير الدفاعية والتي من شأنها المحافظة على ممتلكاته من الخطر ، فعمد إلى تدمير بعض الحصون في الشام كحصني بانياس^(٢) وتبنين^(٣) خشية سقوطها بأيدي الصليبيين^(٤)، ويبدو في ان رؤية المعظم إلى تطورات الأحداث على الجبهة المصرية كان السبب وراء اتخاذه تلك الاجراءات تجاه بعض المراكز الحساسة في المنطقة ، فان سياسة المعظم تلك لم تكن جديدة فقد سبقتها هدم قلعة الطور في بداية سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) – كما أسلفنا – خوفاً من استيلاء الصليبيين عليها . ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان حركة المعظم في بلاد الشام السابقة كانت قبل توجهه إلى مصر للوقوف بجانب أخيه الملك الكامل.

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٢ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ١٠٨ ؛ ابن تغري بردي

: النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٢٢ .

(٢) بانياس : حصن منيع يقع إلى الجنوب الغربي من دمشق . أبو الفداء : تقويم ، ص ٢٤٩ .

(٣) تبنين : بلدة تقع على جبال بني عامر المطلّة على بانياس بين دمشق وصور إلى الجنوب الغربي . ياقوت

الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٤ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٨ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ١١٣ ؛ الذهبي : العبر ،

ج ٣ ، ص ١٦٤ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

المبحث الثاني

جهود المعظم لنصرة أخيه الملك الكامل

١ - توجه المعظم إلى مصر :

ان وفاة الملك العادل في (جمادي الآخرة ٦١٥هـ/آب ١٢١٨م) في خضم المواجهة بين الصليبيين والمسلمين في مصر التي كانت حينذاك تتعرض لأخطر هجمة صليبية ، كان له أثر بالغ على سير الأحداث وتطورها خصوصا على الملك الكامل نائب أبيه بمصر والذي وقع على عاتقه مهمة صد الهجمة الصليبية في الوقت الذي خانته بعض أمراء الجيش مما جعله في موقف حرج ، ويبدو ان انشغال أخيه الملك المعظم بوفاة والدهم ، وترتيب الاوضاع في دمشق من جهة ، وجهاد الصليبيين في الشام من جهة أخرى حال دون تمكنه من تقديم أي مساعدات عسكرية لأخيه الكامل بالسرعة اللازمة الا بعد استتباب الامور له بدمشق في الوقت الذي لم تنقطع كتب الملك الكامل عن أخيه المعظم كان آخرها نداء رواء سبط ابن الجوزي " وبعث الكامل إلى المعظم بالخلع وقال ادركني"^(١) فلبى المعظم نداء أخيه ، وتوجه على رأس جيشه إلى دمياط التي وصلها في (ذي العقدة ٦١٥هـ/كانون الثاني ١٢١٩م)^(٢) اي بعد حوالي سبعة اشهر من حصار الصليبيين لدمياط .

أ. القضاء على بؤر التآمر بين العسكر الكامل (مؤامرة ابن المشطوب) :

استقل الملك الكامل بحكم مصر بعد وفاة والده الملك العادل شأنه في ذلك شأن بقية اخوته حيث استقل كل واحد منهم في البلاد التي كانت تحت سيطرته لكن الأمور في مصر لم تجر بشكل حسن حيث واجه الملك العادل في بداية حكمه مؤامرة سياسية تهدف إلى

(١) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٨ .

(٢) الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ٧٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧ ؛ المقرئ : السلوك

، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٩٧ .

الاطاحة به دبرها أحد كبار أمرائه يعرف بعماد الدين احمد ابن المشطوب^(١)، (ت ٦١٩هـ/١٢٢٢م) الذي عمد إلى الاتفاق مع مجموعة من الامراء والجنود في (ذي العقدة ٦١٥هـ/كانون الثاني ١٢١٩م) ودبروا مؤامرة تهدف إلى الاطاحة بالملك الكامل وتعيين أخيه الملك الفائز ابراهيم بن العادل (ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م) محله في الحكم^(٢) مستغلين بذلك ما كانت تمر به المنطقة من ظروف سياسية وعسكرية حرجة متمثلة بوفاة الملك العادل - سلطان الدولة الايوبية - من جهة ، والتهديدات الصليبية لمصر من جهة أخرى ، لتحقيق مآربهم في الحكم والانفراد بالسلطة على الملك الفائز لما كان يتصف به من قلة خبرته السياسية وعدم كفاءته في السيطرة على زمام الأمور^(٣).

وقد تسربت أنباء تحركات ابن المشطوب التآمرية إلى الملك الكامل فسار إلى خيمة ابن المشطوب بنفسه وفاجأ المتآمرين "وهم مجتمعون وبين ايديهم المصحف وهم يحلفون لآخيه الفائز"^(٤)، فشعر الملك الكامل بضرورة تدارك الموقف للمحافظة على حياته فقرر ترك المعسكر^(٥)، والتوجه إلى اشموم طناح وتلبية لنداءات الكامل تحرك الملك المعظم من الشام متجهاً إلى دمياط لنجدة أخيه الكامل وفي (١٩ ذو القعدة ٦١٥هـ/ ٥ شباط ١٢١٩م) التقى مع أخيه^(٦) فأعلمه الكامل بتفاصيل المؤامرة التي دبرها ابن المشطوب

(١) هو أبو العباس احمد بن الامير سيف الدين أبي الحسن بن أبي الهيجاء المعروف بابن المشطوب الهكاري، وهو من الامراء الاكراد البارزين في الدولة الايوبية ، وقد كان صلاح الدين الايوبي قد أقطعته نابلس وكانت له حرمة وجاه كبير لدى ملوك الاسرة الايوبية لكن سوء تصرفاته انتهت به إلى السجن حيث توفي مسجوناً بحران سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢م) . للتفاصيل ينظر : ابن خلكان : وفيات ، ج ١ ، ص ص ١٨٠-١٨٤ .

(٢) أبو شامة : الذيل ، ص ١١٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٣٠ ؛ المقرئزي : المواعظ ، ج ٢ ، ص ٣٧٥ ؛ محمد عمارة : معارك العرب ضد الغزاة، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٥ ، ص ٦٨ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧ .

(٤) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٩٦ .

(٥) المصدر نفسه والجزء والقسم والصفحة .

(٦) ابن خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ٧٩ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٣٠ .

بالتواطؤ مع أخيهما الفائز^(١)، ولاشك ان قدوم المعظم لنصرة الكامل في تلك الظروف الحرجة كان له دور بارز في اعادة ثقة الكامل بنفسه وتقوية مركزه العسكرية خصوصا إذا علمنا ان الملك الكامل كان قد عزم على ما يبدو التخلي عن مصر والتوجه إلى اليمن التي كانت بيد ولده المسعود صلاح الدين يوسف^(٢) (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .

ان الملك المعظم وعد اخاه الكامل بالقضاء على المتآمرين واعادة الامور إلى نصابها باسرع وقت وتذهب بعض المصادر إلى ان المعظم اقسم لأخيه "انه لا ينزل عن فرسه حتى ينفيه [ابن المشطوب] من الديار المصرية"^(٣). ونستدل مما سبق على مدى الدعم الذي قدمه المعظم لأخيه الكامل وفعلا فقد قام المعظم بترتيب خطة من شأنها نفي ابن الشطوب من مصر وابعاده إلى الشام بهدوء دون اثاره أي قلق داخل المعسكر الاسلامي التي قد تؤثر سلبا على وحدة الجيش المواجه للصليبيين ، ومن المرجح ان الملك المعظم اخذ بنظر الاعتبار وجود اعداد كبيرة من الجنود الاكراد ضمن الجيش الاسلامي الأمر الذي دفعه إلى تنفيذ خطته بهدوء تام ، فسار إلى خيمة ابن المشطوب وطلب منه الخروج للمسايرة بعيدا عن المعسكر^(٤) بقوله " اركب والحقني حتى نتفق على أمر تكون فيه المصلحة"^(٥). فخرج معه معه ابن المشطوب ظنا منه ان المعظم قد استدعاه ليتفق معه على خلع الملك الكامل^(٦)، وسار الاثنان ، حتى ابتعدا عن المعسكر الكامل حيث كان المعظم قد جهز مجموعة من جنوده ممن يعتمد عليهم ويثق بهم لملازمة ابن المشطوب إلى الشام ، فقال له الملك المعظم

(١) الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ٧٧ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ٧٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ،

ق ١ ، ص ١٩٧ ؛ الحنبلي : شفاء ، ص ٣٠١ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧ ؛ أبو

الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٠ .

(٣) الداوداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٩٩ .

(٤) ابو شامة : الذيل ، ص ١٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٨ ؛ المقريزي : درر ،

ق ٢ ، ص ٣٤٣ .

(٥) الداوداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٩٩ .

(٦) ذكرى عزيز محمد صالح الصائغ : عصر الملك الكامل الايوبي ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية

الاداب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٨ ، ص ٢٣ .

ان الملك الاشرف قد ارسل في طلبك فسر اليه الان فهو محتاج اليك^(١)، ثم قام بتسليمه إلى الجنود وأمرهم ان لا يفارقوه حتى يخرجوه من الديار المصرية وينفوه إلى الشام^(٢).

وبذلك تمكن الملك المعظم من القضاء على تلك المؤامرة وترتيب الامور لصالح أخيه الملك الكامل محققا بذلك نصراً سياسياً تمكن من خلاله كسب ود واحترام أخيه الكامل وما يؤيد ذلك ان الكامل قدم إلى خيمة أخيه المعظم "وقبل الارض بين يديه"^(٣) اعترافاً منه بالجميل الذي أسداه اليه. اما الطرف الآخر في المؤامرة وهو الملك الفائز ، فقد ابعد هو الآخر عن الساحة المصرية حيث أرسله أخواه إلى بعض امراء بني ايوب في الشام طلباً للنجدة والمدد، فمضى إلى حماه ومنها إلى سنجار حيث توفي في الطريق في (شعبان ٦١٧هـ/تشرين الاول ١٢٢٠م)^(٤).

ب. ازالة تحصينات القدس :

بعد مرور شهرين من تواجد الملك المعظم عند أخيه الكامل في مواجهة الصليبيين المحاصرين لمدينة دمياط لم يتمكن الاخوان من زحزحة الصليبيين عن مواقعهم الذين تمكنوا من الاحاطة بالمدينة ومنع دخول الامدادات إليها^(٥)، وفي خضم تلك الاحداث اطلع المعظم على انباء مفادها ان الصليبيين عازمين على إرسال بعض القوات إلى الشام بهدف الاستيلاء على بيت المقدس^(٦)، فشعر بخطورة الموقف خصوصاً وان بلاد الشام تكاد تكون خالية من القوات الدفاعية التي يمكن لها مواجهة أي هجمة صليبية محتملة اذا ما علمنا ان كل القوات

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ١٠٢ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٦ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٨ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٩٧ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٧ ، ق ٢ ، ص ٦٠٢ .

(٤) ابو شامة : الذيل ، ص ١٢٣ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ٨٠ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٩٨ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٣٠ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٨ .

(٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠١ ؛ الذهبي : تاريخ ، طبعة ٦٢ ، ص ٢٣ ؛ الداوداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٠٠ .

العسكرية تقريبا مرابطة في دمياط نجدة للملك الكامل^(١)، الأمر الذي دفع المعظم إلى التفكير بإزالة تحصينات القدس الدفاعية واستحكاماتها التي كانت قد أصبحت في غاية العظمة والوثاقة لا سيما أن أعمال التحصين كانت مستمرة منذ أن حررها السلطان صلاح الدين سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م)^(٢)، فبعث إلى شقيقه العزيز عثمان (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ، والأمير عز الدين ايبك المعظمي (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) وهو أحد كبار الأمراء المقربين إلى الملك المعظم -وكانا بالقدس آنذاك يأمرهم بإزالة أسوار القدس واستحكاماته لضرورات عسكرية ، إلا أن الآخرين ترددا في تنفيذ ذلك متذرعين بأنهما سيدافعان عن المدينة إذا ما تعرضت لأي هجوم صليبي^(٣)، لكن ذلك لم يثن المعظم عن رأيه فكتب اليهما ثانية يحذرهم من خطورة الأمر بقوله "لو أخذوه [يعني بيت المقدس] لقتلوا من كان فيه وحكموا على دمشق وبلاد الشام فاجأت الضرورة إلى خرابه"^(٤). وبعد ما قدمه الملك المعظم من مبررات اقنع بها إدارة القدس القدس بضرورة تجريد المدينة من كافة الوسائل الدفاعية بدأت عمليات الهدم في (١ محرم ٦١٦هـ/١٩ آذار ١٢١٩م)^(٥)، التي شملت أسوار القدس وأبراجه.

لقد كان لسياسة المعظم تجاه بيت المقدس النابعة من رؤيته العسكرية لمجريات الأحداث وقع اليم في نفوس العامة ، وعن ذلك يصف المؤرخ ابن الجوزي أنه "وقع في البلد ضجة مثل يوم القيامة"^(٦)، ويرد في الوصف أنه خرج كل أهل البلد رجالا ونساء وتوجهوا

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٧ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠١ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ١١٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٢ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠١ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ١١٥ ؛ الحنبلي : شفاء ، ص ٣٠٥ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠١ .

(٥) المصدر نفسه والقسم والجزء والصفحة ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٨٢ ؛ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٠٢ ؛ العارف : تاريخ القدس ، ص ٨٤ .

The Encyclopaedia of Islam, Edition by C.E. Bosworth and others, Leiden, E.J. Brill, 1980, Vol. V,p331.

(٦) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠١ .

إلى المسجد الأقصى وخرج عدد من سكان القدس إلى دمشق ومصر^(١)، ونتيجة حتمية لتلك الاجراءات فقد تحولت مدينة القدس إلى مدينة مفتوحة غير قادرة على الدفاع عن نفسها ، لذلك فقد شرع المعظم إلى نقل جميع ما كان من سلاح واعتدة واموال^(٢).

ج - سقوط دمياط ونتأجه على سير الاحداث :

كان الصليبيون قد احكموا قبضتهم على دمياط وزادوا من استحكاما الحصار المفروض عليها فقد حفروا خندقا حول المدينة^(٣) لمنع وصول أي امدادات إلى الاهالي عذّه يدفعهم إلى الاستسلام فعلى الرغم من فشل المؤامرة التي دبّرت ضد الملك الكامل واعادة سيطرته على زمام الامور بدعم من أخيه المعظم الا ان الاخوة لم يتمكنوا من احراز أي تقدم يذكر لتخفيف الحصار عن دمياط رغم بعض المحاولات المستميتة لانقاذ المدينة كذلك التي قام بها بعض قوات الملك المعظم عندما جهز فرقة عسكرية مؤلفة من خمسمئة جندي من عساكر الشام بقيادة الناهض أبي الجرخي^(٤) - احد امراء الملك المعظم - للقيام بهجوم مباغت على القوات الصليبية المحاصرة لدمياط ، وربما كان هدف تلك الفرقة هو فتح ثغرة لايسال بعض الامدادات إلى داخل المدينة ، مهما كان الهدف من تلك الحركة فانها فشلت في احراز أي نصر يذكر عندما قتل القائد وكل الجنود الذين كانوا برفقته^(٥).

سارت الامور في دمياط من سيء إلى أسوأ في قلة المؤن ويأس الاهالي من وصول أي نجادات بالاضافة إلى عدم مقدرة العساكر الاسلامية فك الحصار المفروض على المدينة ، كل ذلك اضطر أهالي دمياط إلى مراسلة الجانب الصليبي لتسليم المدينة والخروج منها بأمان فوافق الصليبيون على العرض ، وبعد ان تم الاتفاق بين الجانبين فتح اهالي دمياط

(١) المصدر نفسه والقسم والجزء والصفحة ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٢ .

(٢) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٠٤ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٨ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٩٨ .

(٤) لم نجد له ترجمة .

(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠٣ ؛ ابو شامة : الذيل ، ص ١١٦ ؛ الذهبي : تاريخ ، طبعة ٦٢ ، ص ٦٢ .

أبواب المدينة في (٢٥ شعبان ٦١٦هـ/ ٥ تشرين الثاني ١٢١٩م)^(١) وبذلك سقطت دمياط بأيدي الصليبيين الذين ما ان دخلوا المدينة حتى نكثوا الاتفاق والعهد المبرم بينهم وبين المسلمين فغدروا بسكانها ووضعوا فيهم السيف قتلا ونهباً وحتى مسجد دمياط لم يسلم من النهب^(٢).

٢- عودة الملك المعظم إلى الشام ومحاولاته للقضاء على بعض تحصينات الصليبيين :

بعد الخسارة التي حلت بالمسلمين إثر سقوط دمياط ، أيقن الملك (الكامل) انه لأجدوى من القتال بما معه من العساكر المصرية والقوات الشامية التي كانت تحت امره أخيه المعظم ويبدو ان الكامل قد أُيس من امكانية تحرير دمياط آنذاك الأمر الذي جعله يطلب من الملك المعظم العودة إلى بلاد الشام بقوله "ما في مقامك ها هنا فائدة والمصلحة ان تنزل إلى الشام تشغل خواطر الفرنج وتستجلب العساكر من الشرق"^(٣)، واضح ان رؤية الكامل للحرب قد تغيرت بتحول ملحوظ من سياسة الهجوم إلى تعبئة المزيد من القوات من اجل الاعداد لمعركة حاسمة كما انه أدرك ان خير ما يقدمه الملك المعظم للمصلحة العسكرية هو شن هجمات مباغتة على بعض معاقل الصليبيين في الشام بالاضافة إلى تعبئة العساكر وجمع المجاهدين ومن ثم ارسالهم إلى مصر^(٤) استعداداً للمعركة الحاسمة لتحرير دمياط ، وفي هذا الصدد يروي المؤرخ سبط ابن الجوزي الذي كان وقتها مقيماً بدمشق . ان الملك المعظم بعث اليه برسالة يدعوه فيها إلى القيام بالوعظ في جامع دمشق وتحريض الناس على القتال والجهاد من اجل انقاذ اخوانهم في دمياط ، ثم أمر المعظم السبط وجموع المجاهدين يتوجهوا إلى نابلس للاجتماع هناك^(٥) دون الإشارة إلى الزمان الذي اتفقا عليه .

(١) ابو شامة : الذيل ، ص ١١٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٩٨ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠٣ ؛ الداوداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٠١ ؛ ابن

تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٣٨ ؛ الحنبلي : شفاء ، ص ٣٠٤ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠٣-٦٠٤ .

(٤) المصدر نفسه والقسم والجزء والصفحة ؛ ابو شامة : الذيل ، ص ١١٧ ؛ الذهبي : تاريخ ، طبعة ٦٢ ،

ص ٢٨ ؛ رنسيما : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٩٢ .

(٥) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠٤ .

بعد عودة الملك المعظم إلى بلاد الشام قام باستئناف عملياته الحربية ضد معاقل الصليبيين هناك بهدف التضييق عليهم من أجل تخفيف الضغط العسكري عن مصر وذلك بإجبار القوات الصليبية النازلة بدمياط لإرسال جزء من عساكرها إلى الشام^(١)، فما إن وصل المعظم إلى الشام حتى بادر بهجوم واسع استهدف قيسارية وذلك في شهر (محرم ٦١٧هـ/آذار ١٢٢٠م)^(٢) فحاصر قلعتها وأقام عليها المنجنوقات^(٣) التي ظلت تضرب القلعة وإصابته إصابات بالغة^(٤)، ففي الوقت الذي كان المعظم قد أحكم قبضته عليها . فان الصليبيين الموجودين في القلعة أدركوا أنه لا جدوى من المقاومة بعد ما رأوه من إصرار المعظم على الاستيلاء عليها ، فهربوا من المدينة تحت جناح الظلام^(٥). فدخلها المعظم بقواته وأصدر أوامره إلى الجنود بتدمير القلعة التي خربت تخريباً تاماً^(٦).

بعد أن تمكنت عساكر الملك المعظم من القضاء على قلعة قيسارية ، توجه شمالاً بمحاذاة الساحل وصولاً إلى قلعة عثليث^(٧) الواقعة إلى الشمال من قيسارية وإلى الغرب من مدينة الناصرة ، وتعد قلعة عثليث من أقوى معاقل الفرسان الداوية في الشام التي حاصرها المعظم ضمن عملياته الحربية في الشام^(٨) وكان هدفه أن ينزل بعثليث ما أنزله بقيسارية لكن

(١) عاشور : الحركة ، ج ٢ ، ص ٩٦٩ ؛ عمران : الحملة ، ص ٣٤٧ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠٤ ؛ الذهبي ، تاريخ ، طبقة ٦٢ ، ص ١٩ ؛ جب :

صلاح الدين ، ص ٢١٢ ؛ رنسيما : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٩٣ .

(٣) المنجنوقات : مفردة منجنيق وهي آلة استخدمت في حصار المدن والقلاع وخاصة في العصور الوسطى، ومن أنواعها ما يرمي السهام أو الحجارة . محمد شفيق غريال : الموسوعة العربية الميسرة ، دم، دار العلم ودار فرانكلين للطباعة والنشر ، دت ، ص ١٧٥٠ .

(٤) عمران : الحملة ، ص ٣٤٧ .

(٥) المصدر نفسه والصفحة .

(٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٠٤ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ١١٧ ؛ الداوداري : كنز

كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٠٢ ؛ نعمان قساطلي : الروض الغناء في دمشق الفيحاء ، ط ٢ ، ، بيروت ، دار

الرائد العربي ، ١٩٨٢ ، ص ٥٧ .

(٧) يقول ياقوت الحموي أن عثليث من الحصون الواقعة على سواحل بحر الشام (البحر المتوسط) ويعرف أيضاً

أيضاً بالحصن الأحمر . ينظر : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٨٥ .

(٨) جب : صلاح الدين ، ص ٢١٢ ؛ رنسيما : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٩٣ ؛ قساطلي : الروض ، ص ٥٧ .

قوتها وحصانتها علاوة على وصول الامدادات إلى حاميتها من قبل الجيش الصليبي المتمركز في مصر^(١) حال دون تمكن قوات المعظم من الاستيلاء عليها رغم المحاولات المتكررة التي قام بها المسلمون لدخول القلعة . واستمر حصار المعظم لقلعة عثليث استمر إلى شهر (شوال ٦١٧هـ/تشرين الثاني ١٢٢٠) دون ان يتمكن من احراز نصر ساحق على حاميتها الأمر الذي دفعه إلى الانسحاب نحو دمشق^(٢).

ان العمليات العسكرية التي قام بها الملك المعظم على ممتلكات الصليبيين في الشام قد حرم القوات الصليبية المحتلة لدمياط من أي امدادات يمكن ان تأتي إلى الامارات الصليبية في بلاد الشام ، وليس ذلك فحسب بل أدت تلك العمليات إلى سحب بعض القوات الصليبية من جبهة دمياط لمساندة اخوانهم في الشام وفي مقدمتهم الفرسان الداوية الذين اسرعوا بالعودة إلى قلعة عثليث عند سماعهم بأنباء حصار المعظم لها^(٣). كل ذلك ساهم دون شك في تخفيف الضغط الصليبي عن جبهة مصر .

٣. جهود الملك المعظم لتوحيد الجبهة الايوبية وتحرير دمياط :

بقى الملك الكامل في مواجهة العدو بعد سقوط دمياط في (شعبان ٦١٦هـ/تشرين الثاني ١٢١٩م) أملا في وصول الامدادات العسكرية من قبل اخوته وبقية امراء بني ايوب ففي مستهل سنة (٦١٨هـ/١٢٢١م) وبعد مرور اكثر من سنة على سقوط دمياط جدد الكامل نداءات الاستغاثة إلى اخويه الملك الاشرف والملك المعظم في طلب النجدة^(٤)، ويذكر بهذا

(١) عمران : الحملة ، ص ٣٤٨ .

(٢) رنسيما : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٩٣ .

(٣) عمران : الحملة ، ص ٣٤٨ ؛ رنسيما : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٩٣ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٩ ؛ الذهبي : تاريخ ،

طبعة ٦٢ ، ص ٢٥ .

الصدد انه "بعث إلى الافاق سبعين رسولا يستجد اهل الاسلام على قتال الافرنج ويستحثهم على انقاذ المسلمين منهم واغاثتهم" (١).

وصلت كتب الملك الكامل إلى أخيه الملك المعظم تدعوه إلى اتخاذ التدابير اللازمة من اجل تحرير دمياط ، فبدأ المعظم سعيه في سبيل توحيد الجبهة الايوبية وأبدى نشاطا ملحوظا في ذلك الوقت لتعبئة الجيوش وارسالها إلى مصر فلا غرابة في ذلك إذا علمنا انه كان "من احرص الناس على خلاص دمياط" (٢) فان المعظم سار إلى أخيه الاشرف موسى ووصل اليه في (محرم ٦١٨هـ/شباط ١٢٢١م) حيث اجتمع الاخوان بحران (٣) وخلال اللقاء جرى اتفاق بينهما الهدف منه توحيد الجهود لنجدة اخيهما الكامل من اجل انقاذ دمياط بعد ان اعلمه المعظم بالمستجدات على الساحة المصرية والخطر الصليبي المحدث بديار المسلمين كما أشار على أخيه الاشرف بأن "يسرع إلى مصر في عساكره ، ويستصحب معه ملوك أهل البيت [الايوبي] وعساكره" (٤).

واستطاع الملك المعظم خلال اجتماعه بالاشرف ان يقنعه بضرورة توحيد الجهود للوقوف صفا واحدا بوجه الخطر الصليبي واخذ الملك الاشرف يمارس دوره من اجل تجميع العساكر ، فارسل إلى حلب والقائم بامرها الاتابك شهاب الدين طغرل يطلب منه الدعم فلبى الدعوة بإرساله عددا كبيرا من الجنود لينضموا إلى جنود الاشرف (٥)، وبعد ان اتفق كل من الاشرف والمعظم على التوجه نحو مصر سار الملك المعظم ونزل بحمص وهو في طريقه إلى دمشق ، ويروي سبط ابن الجوزي الذي كان وقتها بحمص انه التقى بالملك المعظم في (ربيع الآخر ٦١٨هـ/ايار ١٢٢١م) فقال له المعظم " قد سحبت الاشرف إلى ها هنا باسناني

(١) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٩٥ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦١٩ .

(٣) المصدر نفسه والجزء والقسم ، ص ٦١٨ ؛ ابن العديم : زبدة ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٣٩ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٩٢ .

(٥) المصدر نفسه والجزء نفسه والصفحة .

وهو كاره ، وكل يوم اعاتبه في تأخره"^(١)، يبدو من خلال رواية سبط ابن الجوزي ان الملك المعظم قد بذل جهدا كبيرا في اقناع الملك الاشرف للمشاركة ضمن الجهود الرامية لتحرير دمياط ، ونتيجة لذلك توجه المعظم إلى السبط يدعوه للسير إلى الملك الاشرف الذي كان نازلا بعساكره في سلمية^(٢)، كي يطلب منه ان يسرع لنجدة مصر خشية استيلاء الصليبيين عليها ويظهر ان سبط ابن الجوزي كان يحظى بمنزلة رفيعة عند الاشرف فما ان وصل إلى سلمية حتى خرج الملك الاشرف لاستقباله وبعد اجتماعهما حذر السبط قائلا "المسلمون في ضائقة واذا اخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حضرموت وعدوا إلى مكة والمدينة والشام ، وانت تلعب قم الساعة وارجل"^(٣)، فما كان على الاشرف الا ان يصدر اوامره إلى جيشه بالتوجه إلى حمص حيث أخوه المعظم واجتمع الاخوان للتشاور حول كيفية الخروج إلى دمياط واستقر رأيهم ان يجتمعوا بدمشق ومنها ينطلقون إلى مصر^(٤).

خرج الملك المعظم بمن معه من العساكر متوجها إلى دمشق التي وصلها في (٤ اجمادي الاولى ٦١٨هـ / ٥ تموز ١٢٢١م)^(٥)، ثم لحق به الاشرف ، ويصف المؤرخ أبو شامة (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) الذي كان موجوداً بدمشق وقت دخول العساكر المعظمية والاشرفية قائلاً "وكنت حاضراً تحت القلعة [قلعة دمشق] وتلك العساكر تمر أميراً بعد أمير والكل يتضرعون ويدعون لهما بالنصر"^(٦). وبعد ان اكتملت العساكر لدى المعظم بدمشق توجه بمعية الملك الاشرف (مطلع جمادي الاخر ٦١٨هـ / نهاية تموز ١٢٢١م) متجهين صوب مصر^(٧)، وفي ذات الوقت الذي كان معظم امراء بني ايوب قد بادروا بالتحرك

(١) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦١٩ .

(٢) سلمية : بلدة في ناحية البادية من أعمال حماه وإلى الشرق منها . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٤٠ .

(٣) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦١٨ .

(٤) المصدر نفسه والجزء والقسم ، ص ٦٢٠ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ١٢٩ .

(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٢٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤١ .

(٦) الذيل ، ص ١٢٩ .

(٧) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٢٠ .

بجيوشهم لنجدة الكامل كالملك الناصر قلج ارسلان (ت ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م) صاحب حماه والملك المجاهد شيركوه الثاني (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) على رأس عساكر حمص والملك الأمجد بهرام شاه (ت ٦١٨هـ / ١٢٣٠م) صاحب بعلبك^(١).

وبذلك نجح الملك المعظم في تحشيد اغلب القوى الايوبية ولأجل ما كان للملك المعظم من الدور الرائد والقيادي في توحيد تلك القوى وحشد العساكر للتوجه إلى مصر فقد انشد الشيخ علم الدين السخاوي^(٢) (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) بهذه المناسبة بعض الابيات الشعرية مدح بها المعظم :

سرى الملك المولى المعظم في اللّجى	فاطلع نجم النصر بعد مغيبه
وردّ على الإسلام بعد كآبة	سرورا وداو الدين بعد شحوبه
نجلّى بعيسى غمّها واغتدى به	نريداً وأضحى فخرها من نصيبه ^(٣)

تحرير دميّاط :

أخذت الجيوش الإسلامية تتوافد على مصر وتنتهياً لمواجهة الصليبيين ووصلت تلك الانباء إلى معسكر الملك الكامل بالمنصورة^(٤) الذي كان قد أمر ببناءها على أثر سقوط دميّاط دميّاط في (شعبان ٦١٦هـ / تشرين الثاني ١٢١٩م)^(٥)، فخرج من معسكره بالمنصورة لاستقبال

(١) الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ٩٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٩٣ .

(٢) هو علي بن محمد أبو الحسن السخاوي ، من علماء اللغة والتفسير وله باع طويل في علم القراءات ، وله نظم جيد وبعض المصنفات ، اصله من (سخا) بمصر ، سكن دمشق وتوفي بها سنة (٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) .
للمزيد من التفاصيل ينظر : أبو شامة : الذيل ، ص ١٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ ؛ الصفدي : تحفة ، ق ٢ ، ص ص ١١٠-١١١ .

(٤) لم يكن هذا الموضع معروفا قبل أحداث الحملة الصليبية الخامسة ، فقد استحدثه الملك الكامل ليكون معسكراً لجيشه بعد سقوط مدينة دميّاط مباشرة . وهو موضع فسيح مثلث الشكل تقريبا يقع جنوب بحر اشمووم طناح على الشاطئ الشرقي للنيل ، ومن الواضح ان اختيار الملك الكامل لهذا المكان بالذات كان لاعتبارات استراتيجية حربية تتعلق بحصانة الموقع الطبيعية المتمثلة بالنهر الفاصل بينه وبين القوات الصليبية ، فضلاً عن كونه اقرب الاماكن لاستقبال النجدة العسكرية الايوبية من بلاد الشام ، كما انه يمتاز بقربه من القاهرة التي كانت مركز إدارة مصر . للمزيد من التفاصيل ينظر : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ص ٢٠١-٢٠١ ؛ عمران : الحملة ، ص ص ٣٣٨-٣٤٠ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٢ .

لاستقبال أمراء البيت الايوبي فكان أول الوافدين اليه الملك الاشرف موسى ، ثم تلاه الملك المعظم عيسى على رأس عساكر الشام وتبعهم بقية الامراء^(١)، لم تمض سوى بضعة ايام حتى تجمع لدى الملك الكامل بحلول (١٣ جمادي الاخر ٦١٨هـ/ ٣ آب ١٢٢١م) من العساكر ما يقارب ٤٠ الف جندي^(٢)، ولا شك ان ذلك الجمع الكبير من العساكر الاسلامية كان له أثرا كبيرا على الجانب الصليبي والقاء الرعب في نفوسهم حيث أيقنوا ان لا قدرة لهم على مواجهة المسلمين الأمر الذي دفعهم إلى طلب الصلح^(٣)، وأرسلوا إلى الملك الكامل بصفته سلطان الدولة الأيوبية وأخويه الملك المعظم والملك الاشرف يطلبون الامان لأنفسهم مقابل الجلاء عن دمياط دون قيد أو شرط^(٤).

ورغم التفوق العسكري للملك الكامل فانه فضل القبول بمبدأ الصلح في الوقت الذي كان بمقدوره القضاء على الجيوش الصليبية ، لكن يبدو ان الكامل قد ورث حنكة والده العادل ودهائه السياسي ، ففضل الحل السلمي الذي سوف ينهي الحرب لان الاقدام على حرب الصليبيين المتركزين بدمياط والقضاء عليهم قد يؤدي إلى حملة أخرى هدفها الانتقام^(٥).

وعلى هذا فقد تم الاتفاق على الصلح في (٧ رجب ٦١٨هـ/ ٢٨ آب ١٢٢١م)^(٦) بهدنة عقدت بين الطرفين مدتها ثمانى سنوات ، واطلاق سراح جميع الاسرى لدى الجانبين^(٧)، كما نصت على ان يكون من حق أي ملك اوربي يتوج في المستقبل

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ص ٩٤-٩٥ .

(٢) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٠٣ .

(٣) كان الملك الكامل قد طلب من الجانب الصليبي ابرام الصلح منذ سنة (٦١٦هـ/ ١٢١٩م) ولاكثر من مرة مقابل عروض سخية من ضمنها التنازل عن معظم فتوحات صلاح الدين بما فيها بيت المقدس لكن عروض الكامل لم تلق قبولا من قبل الصليبيين الذين طلبوا بالاضافة إلى ما تقدم ٣٠٠ الف دينار كتعويض لاعادة بناء تحصينات القدس التي أزالها المعظم سابقا . للتفاصيل : ينظر ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٨ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٢٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٩٧ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٠٨ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤١ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٩٧ ؛ سعداوي : الحرب ، ص ٧٦ .

(٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٩٩ ؛ الحنبلي : شفاء ، ص ٣٠٧ .

(٧) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٠٩ .

المستقبل ان ينقض الهدنة^(١)، وبعد إنهاء إجراءات عقد الصلح قام الصليبيون بتسليم دمياط للمسلمين في (٩ رجب ٦١٨ هـ / ١٠ ايلول ١٢٢١ م)^(٢)، وبذلك تمكن الملك الكامل بمساندة ودعم من اخويه الاشرف والمعظم وبقية أمراء بني أيوب من إفشال الحملة الصليبية الخامسة واستعادة دمياط .

(1) Lane – Pool, History, P.224 .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٢١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٩٩ ؛ الداوداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢١١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤٣ .

أولاً - علاقات الملك المعظم مع الخلافة العباسية :

تعود بداية العلاقات الأيوبية مع الخلافة العباسية إلى زمن نشوء دولة بني ايوب في مصر على يد صلاح الدين يوسف بن ايوب ، فبعد سيطرته على مقاليد الحكم في مصر قام بإنهاء الخطبة الفاطمية هناك ، و أعلن الخطبة السلمية باسم الخليفة العباسي المستضيء بنور الله (٥٦٦-٥٧٥هـ/١١٧٠-١١٧٩م) وذلك في سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م)، وبذلك تمكن من اعادة ديار مصر إلى حاضرة الخلافة العباسية .

أما فيما يتعلق بالملك المعظم وسياسته تجاه الخلافة العباسية ، فيبدو انه سار على نهج عمه السلطان صلاح الدين ووالده الملك العادل تجاه الخلافة حيث استمر بطاعته وولائه للخليفة ، وتجدر الإشارة هنا ان الملك المعظم عاصر خلال فترة حكمه ثلاث من خلفاء بني العباس ، أولهم الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٧٩-١٢٢٥م) ، ثم الظاهر بأمر الله (٦٢٢-٦٢٣هـ/١٢٢٥-١٢٢٦م) ، وأخيراً الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣-٦٢٤هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م) ، وطيلة فترة حكم الملك المعظم كان كسب رضى الخلافة هدفاً وسياسة دائمة سار عليها المعظم بل وكل البيت الايوبي لما لذلك من قيمة دينية وشرعية .

ان اول اشارة إلى اهتمام الخلافة العباسية بالملك المعظم تعود إلى سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٨م) عندما وصل إلى بلاد الشام الشيخ شهاب الدين السهروردي في شهر رمضان من تلك السنة مبعوثاً من قبل الخليفة الناصر لدين الله إلى الملك العادل يحمل إليه تقليداً رسمياً بحكم مصر وبلاد الشام ومعه الخلع والهدايا^(١)، فعندما وصل السهروردي إلى دمشق خلع على الملك العادل ثم على ابنه الملك المعظم الذي كان آنذاك نائباً عن أبيه بدمشق حيث خصه الخليفة بـ "عمامة سوداء وثوبا اسود واسع الكم"^(٢)، وفي ذلك إشارة صريحة إلى ان الخلافة العباسية كانت مهتمة بأبناء العادل أيضاً إضافة إلى والدهم ، وربما دل ذلك رؤية الخلافة المستقبلية لأولئك الابناء وما سيشغلونه من مناصب لاحقاً ، وبعد

(١) ابو شامة : الذيل ، ص ٦٣ ؛ أو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٩ ؛ ابن الفرات : تاريخ ،

مج ٥ ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٨٢ ؛ القلقشندي : مآثر الانافة ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

انتهاء مراسيم التقليد ركب الملك العادل وابنه الملك المعظم وعليهما خلع الخليفة ودخلا قلعة دمشق^(١)، تعبيرا عن تقديرهما للخليفة ورسوله .

ومن جانب آخر فان الملك المعظم شأنه شأن غيره من آل ايوب كان حريصا على كسب رضى الخليفة العباسي ومن اوجه ذلك المبادرة أحياناً ببلاغه عن الانتصارات التي كان يحققها في بلاد الشام ضد الصليبيين ، إشعاراً منه للخلافة على ما يبدو بقوة الايوبيين ووقوفهم بوجه الخطر الصليبي ، فعندما فشل الصليبيون في السيطرة على قلعة طور في خضم المواجهات بينهم وبين عساكر الملك المعظم سنة (٦١٤هـ/١٢٢٧م) ارسل إلى الخليفة الناصر لدين الله كتابا جاء في اوله بيتان شعريان :

لها إلى النصر إصدار وإيراد
ل للخليفة لا زالت عساكره
ان الفرنج بحصن الطور قد نزلوا
لا يغفلن فحصن الطور بغداد^(٢)

يبدو ان الملك المعظم اراد ان يلفت أنظار الخليفة بأنه اصبح فعالا في المنطقة اضافة إلى اثبات وجوده وما يتمتع به من كفاءة ضد الصليبيين ، كما ان الابيات السابقة لا تخلوا من اعتراف المعظم بولائه للخلافة بوصف عساكره بانها عساكر الخليفة وانها رهن اشارته .

وعلى صعيد آخر ، فان العلاقات بين الملك المعظم والخليفة الناصر اخذت منحاً جديدا في التطور مع مرور الزمن عندما بادر الاخير بالاتصال بمظفر الدين كوكبوري(٥٨٦-٦٣٠هـ/١١٩٠-١٢٣٢م) صاحب اربل وشجعه على التحالف مع المعظم وذلك في سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م)^(٣) ذلك التحالف الذي كان موجها ضد الملك الاشرف والملك الكامل ، أما عن السبب الذي دفع الخليفة الناصر لاتخاذ ذلك الموقف ، فيعود إلى ان الملك المسعود (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ابن الملك الكامل وخلال ادائه فريضة الحج سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢م) كان قد منع اعلام الخليفة الناصر من التقدم إلى جبل عرفة قبل اعلام

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٨٢ .

(٢) ابو شامة : الذيل ، ص ١٠٣ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٧١ .

ابيه الكامل^(١)، ويبدو ان ذلك كان قد اغضب الخليفة ودفعه إلى تشجيع مظفر الدين لدعم الملك المعظم في صراعه مع اخوته .

كما اظهر الملك المعظم ولاءه وإخلاصه تجاه الخلافة عندما رفض دعوة حليفه جلال الدين منكبرتي (٦١٧-٦٢٨هـ/١٢٢٠-١٢٣٠م) لمساعدته على غزو بغداد ، حيث كان الاخير قد عقد العزم على محاربة الخليفة الناصر لدين الله وذلك سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) متهما اياه بأنه كان وراء هلاك والده خوارزم شاه^(٢) سنة (٦١٧هـ/١٢٢٠م) ومما تجدر الإشارة اليه بهذا الصدد ان التهمة التي اشاعها جلال الدين منكبرتي ضد الخليفة الناصر ، وذكرها بعض المؤرخين مثل ابن الاثير^(٣)، لم تجد لها سنداً يؤيدها الأمر الذي يجعلها مجرد افتراضات اختلف حولها الباحثون^(٤). مهما كانت ادعاءات جلال الدين بشأن الخليفة ، فان الملك المعظم التزم بولائه المطلق للخليفة من خلال رفضه الاستجابة لدعوة جلال الدين في خروجه على الخلافة قائلاً "انا معك على كل أحد الا على الخليفة فانه امام المسلمين"^(٥)، ويظهر ان الملك المعظم لم يكن مستعداً للتخلي عن ولاءه للخلافة لاهميتها الروحية والمعنوية وما تضيفه من شرعية لحكمه خصوصاً وان المعظم كان يمر آنذاك بظروف سياسية وعسكرية لا يحسد عليها ، رغم ذلك فانه كان مستعداً لفقدان حليف قوي ومفيد جداً على ترك ولاءه للخلافة .

وعندما توفي الخليفة الناصر لدين الله سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) ، وتولى ابنه الظاهر بأمر الله (٦٢٢-٦٢٣هـ/١٢٢٥-١٢٢٦م) السلطة في بغداد ، بادر الملك المعظم بإيفاد القاضي الاشرف بن القاضي الفاضل مبعوثاً إلى بغداد لعزاء الخليفة الظاهر في وفاة والده

(١) الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ٩٥ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ١٣٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ص ١٢٤-١٢٥ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٣ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٣٤ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ١٤٤ ؛ الذهبي : تاريخ ، طبعة ٦٣ ، ص ٩ .

(٣) الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٦١ .

(٤) الجومرد وقادر : دور الخلافة العباسية في تشكيل العلاقات السياسية بين قوى الاطراف الاسلامية (٦١٢-٦٢٢هـ/١٢١٥-١٢٢٥م) ، مجلة دراسات العلوم الانسانية ، مج ٢٤ ، ملحق ١٩٩٧ ، ص ٥٩٤ .

(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٣٤ .

وتقديم البيعة والتهنئة لتولييه الخلافة^(١)، اما الخليفة الظاهر فقد قام بدوره بإيفاد رسول رفيع المستوى هو محي الدين يوسف بن الجوزي^(٢) (ت ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م) إلى الملك المعظم يحمل اليه الخلع والهدايا .

وصل مبعوث الخلافة إلى دمشق سنة (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) والبس المعظم خلعة الخلافة^(٣)، فضلاً عن ذلك ، فقد حمل المبعوث رسالة من الخليفة إلى الملك المعظم يطالبه التخلي عن تحالفه مع جلال الدين منكبرتي الذي وصفته الخلافة بالخارجي^(٤)، وتضمنت الرسالة أيضاً عرضاً من قبل الخليفة للتدخل بين المعظم واخويه الاشرف والكامل بهدف ازالة التوتر واعادة العلاقات إلى سابق عهدها بينهم ، لكن المعظم لم يستجب لدعوة الخليفة للتخلي عن حليفه جلال الدين^(٥)، ربما دفعه إلى ذلك عدم ثقته بمقدرة الخلافة على الايفاء بوعودها لضعف سلطتها على امراء المسلمين تلك السلطة التي كانت روحية إلى حد ما .

اما في خلافة المستنصر بالله الذي تولى السلطة بعد وفاة والده الظاهر سنة (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م)^(٦)، فلم تمدنا المصادر التاريخية المطلع عليها بأية معلومات عن اتصالات اتصالات جرت بين الخليفة المستنصر والملك المعظم سوى اشارة واحدة يوردها الحموي (ت ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م) مفادها ان الملك المعظم "سير ناصر الدين بن ايمن^(٧) احد خواص دولته

(١) الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ١١٧ .

(٢) هو أبو محمد يوسف بن عبد الرحمن ولد ببغداد سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) ، وتولى التدريس بالمدرسة المستنصرية وكان يتردد في الرسائل إلى الملوك ، وصار استاذ دار الخلافة . ابن خلكان : وفيات ، ج ٣ ، ص ١٤٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ص ١٧٥-١٧٦ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٦٣ .

(٤) ابو شامة : الذيل ، ص ١٤٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ص ١٤٧-١٤٨ ؛ الداوداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ص ١٨٠-١٨١ ؛ الذهبي : تاريخ ، طبقة ٦٣ ، ص ص ١٣-١٤ .

(٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٦٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٩١ .

(٧) لم نجد له ترجمة .

إلى المستنصر في العزاء"^(١)دون الإشارة إلى تفاصيل . وهنا يمكننا القول بان مجمل علاقات الملك المعظم بالخلافة العباسية طيلة فترة حكمه كانت علاقات حسنة حيث كان المعظم حذرا من حدوث ما يعكر صفو تلك العلاقات التي بقيت ايجابية حتى وفاته سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م).

ثانيا . علاقات الملك المعظم مع أمراء الأسرة الأيوبية :

كانت علاقة الملك المعظم بملوك وأمراء الأسرة الايوبية خلال حياة والده الملك العادل حسنة قائمة على احترام سيادة الآخرين ، وعدم التعدي أو التجاوز على املاك غيره، فقد تمكن الملك العادل بما يتمتع به من قوة شخصيته وحسن تدبيره السياسي من السيطرة تماماً على سياسة الاسرة الايوبية وتنظيم علاقاتها الداخلية . الأمر الذي ساهم وبشكل فاعل على تحقيق التوازن والتوافق في العلاقات بين الامراء الايوبيين خصوصا أولئك الأمراء أبناء العادل الثلاثة الكامل والمعظم والاشرف ، فاستمر الوفاق بين الاخوة طيلة حياة أبيهم وخلال الفترة التي تلت وفاته ببضع سنوات ، نستدل على ذلك من تحالفهم وما نتج عنه من توحيد الجبهة الاسلامية بوجه الخطر الصليبي المتمثل بالحملة الصليبية على دمياط (٦١٥-٦١٨هـ/١٢١٨-١٢٢١م)^(٢).

لم يقدر لذلك الاتفاق بين الاخوة ان يستمر طويلا إذ سرعان ما دب الشقاق بينهم، فبعد مضي سنة وستة اشهر على تحالفهم لتحرير دمياط بدأت الخلافات تجد طريقها بين الكامل والاشرف من جهة والملك المعظم من جهة أخرى ، تحركها اسباب مختلفة ومن ضمنها ما يتعلق بانعدام الثقة بنواياهم بعضهم تجاه بعض مما اسفر عن بعض التحركات العسكرية قام بها الملك المعظم في بلاد الشام ، ففي سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢م) قرر القيام بعمل عسكري ضد ابن اخته الملك الناصر قلج ارسلان بن محمد (٦١٧-٦٣٥هـ/١٢٢١-

(١) التاريخ المنصوري ، ص ١١٩ .

(٢) راجع : الفصل الثالث من هذه الرسالة ، ص

١٢٣٧م) امير حماه^(١) مدفوعا بعدة اسباب منها ان الملك الناصر كان قد تولى الحكم في حماه بدعم واسناد من الملك المعظم سنة (٦١٧هـ/١٢٢١م) ، ووعده لقاء مساعدته تلك بأن يقدم له مبلغا من المال حال سيطرته على السلطة هناك الا ان قلج ارسلان لم يفي بتعهداته تجاه خاله^(٢). مما دفع المعظم إلى مباغتته عسكريا ، فضلاً عن ذلك فقد صادف في الوقت نفسه ان هرب احد امراء الملك الكامل يعرف بمجاهد الدين اقبال^(٣) من مصر إلى بلاد الشام فكتب الكامل إلى أخيه المعظم ان يتتبع ذلك الامير ويقبض عليه^(٤) وبذلك اصبح موقف الملك المعظم اكثر قوة بعد ان تهيأت له ذريعة ثانية للخروج بعساكره بحجة ملاحقة مجاهد الدين اقبال .

بعد ان اصبحت الساحة السياسية مهياً للملك المعظم حينها خرج بعسكره في ذي الحجة من العام نفسه متوجها صوب حماه على امل الاستيلاء عليها ، وبعد وصوله إلى اطراف المدينة دارت بينه وبين عساكر حماه بعض المواجهات لم تسفر عن أي نتائج حاسمة^(٥)، لكنها فسحت المجال امام المعظم للقيام ببعض العمليات العسكرية على بعض المناطق التابعة لحماه فهجم على سلمية وهي بلدة واقعة إلى الشرق من حماه^(٦)، والتي كانت تابعة اداريا لأميرها فلم تصمد البلدة بوجه المعظم وبعد ان فرض سيطرته عليها قام بتعيين والي جديد هناك^(٧)، ولم يقف المعظم عند هذا الحد بما عرف عنه من عزيمة عالية في القتال ، فبعد ان استقر له الأمر في سلمية توجه بعساكره إلى معرة النعمان الواقعة إلى

(١) الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ٩٤ ؛ ابن العديم : زبدة ، ج ٣ ، ص ١٩٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

، ج ٤ ، ص ص ١١٨-١٧ ؛ الحنبلي : شفاء ، ص ٣٩٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ص ٨٦-٨٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣١ ؛ قسطلبي

: الروض ، ص ٥٨ .

(٣) لم نجد له ترجمة .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١١٧ .

(٥) المصدر نفسه والجزء ، ص ١١٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣١ ؛ احمد الصابوني : تاريخ حماه

، المطبعة الاهلية ، د.ت ، ص ٦٣ ؛ الصائغ : عصر ، ص ٢٦ .

(٦) أبو الفداء : تقويم ، ص ٢٦٥ .

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١١٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

الشمال من حماه^(١)، ودون ابداء أي مقاومة استسلمت المدينة ودخلها المعظم^(٢)، وهنا يمكننا القول ان الملك المعظم ومن خلال تحركاته السابقة اراد وبمناورة عسكرية الالتفاف حول حماه لمحاصرتها على أمل ان تستسلم له . واستنادا على ذلك بدأ بسلامية ثم استولى على المعرة التي سرعان ما وضع لها ادارة جديدة على أثر هروب واليها شهاب الدين بن القطب إلى حماه^(٣)، وعاد المعظم بعد ذلك إلى سلمية واقام بها حتى نهاية عام (٦١٩هـ/١٢٢٢م) وهو عازم على العودة مرة أخرى إلى قتال حماه^(٤).

ما ان وصلت انباء تحركات الملك المعظم العسكرية إلى اخويه الكامل والاشرف اللذان كانا وقتذاك بمصر حتى بادر الاخير باظهار مخاوفه من توجهات المعظم التوسعية في الشام ، وتجدر الاشارة هنا ان الملك الاشرف كان قد قدم إلى مصر خلال سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢م) ويروي ابن الاثير بهذا الصدد ان الاشرف عند مروره بدمشق وهو في طريقه إلى مصر لم يتصل بالملك المعظم ولم يستصحبه معه^(٥)، ويبدو انه كان ثمة تقارب وتوافق قد حصل بين الملك الكامل وأخيه الاشرف ، ومن المرجح ان الملك المعظم فسر ذلك التقارب بأنه اتفاق قد يكون هو مستهدفاً نتيجه ، الأمر الذي دفعه لقيادة بعض العمليات العسكرية في بلاد الشام والتي ربما كانت بمثابة رسالة سياسية يوحي فيها لآخويه بانه يشكل قوة عسكرية لها وزنها في الشام ، وهنا يبدأ الاشرف ببيان خطورة الموقف لآخيه الكامل ويفصح عن رؤيته لتحركات المعظم بأنه لن يقف عند هذا الحد بل سيتعداها إلى مناطق أخرى لذلك اشار على الكامل انه لابد من ايقاف المعظم "والانكار عليه وتهديده، وتخويفه من مغبة فعله ، والتقدم عليه بالرجوع إلى بلاده"^(٦).

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٥٦ ؛ محمد سليم الجندي : تاريخ معرة النعمان ، تحقيق : عمر رضا كحالة ، دمشق ، مطبعة الترقى ، ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ٣٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١١٩ .

(٣) المصدر نفسه الجزء والصفحة .

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣١ ؛ الحصيني : منتخبات ، ج ١ ، ص ١٦٩ ؛ الصابوني : تاريخ ، ص ٦٤ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٧١ .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٢٧ .

هذه التطورات جعلت الملك الكامل يسرع في اتخاذ بعض الاجراءات لتدارك الموقف ، فارسل الامير ناصح الدين أبا المعالي الفارس^(١)، - وهو من الامراء الحلبيين كان قد جاء بمعية الملك الاشرف إلى مصر - إلى الملك المعظم في رسالة مضمونها الأمر بالانسحاب من كل المناطق التي استولى عليها اiban العمليات العسكرية التي قام بها ضد صاحب حماه ، وفي الوقت نفسه كان الملك الاشرف ، قد تبلورت لديه مخاوف من توجهات أخيه المعظم التوسعية في الشام التي ربما تهدد ملكه إذا ما فسح له المجال ، نستدل على ذلك من حديث نقله لنا ابن واصل على لسان الأشرف وهو يخاطب أخاه الكامل قائلاً " ان تركنا الملك المعظم يحاصر حماه وبأخذها ، تعدى ذلك إلى غيرها واطمعت نفسه بالاستيلاء على البلاد كلها"^(٢)، ويبدو ان تلك المخاوف كانت وراء مبادرته هو الآخر بإيفاد الحاجب حسام الدين^(٣) إلى الملك المعظم الذي اجتمع لديه كل من رسول الاشرف بالاضافة إلى أبي المعالي الفارسي السابق الذكر مبعوثا من قبل الملك الكامل حيث ابلغه قائلاً " ان مولانا السلطان الملك الكامل يأمر المولى [الملك المعظم] بالرحيل وترك الخلاف"^(٤)، وهنا يظهر بوضوح ان الملك المعظم وبعد ان رأى معارضة أخويه له ووحدة موقفهما ان المضي قدما في سياسته العسكرية تجاه حماة ربما تؤدي إلى الدخول في مواجهة عسكرية مع اخويه في الوقت الذي لم يكن هو مستعدا لمثل تلك المواجهة مما حتمّ عليه ان يكون أكثر مرونة في موقفه فرد بالسمع والطاعة وتقرر الصلح بينه وبين الملك الناصر صاحب حماه^(٥).

لقد أدت الاحداث السالفة على الساحة الشامية ، وما نجم عنها من مواقف متقاربة للاشرف والكامل ضد سياسة الملك المعظم إلى شعوره بمخاوف من نوايا أخويه الأمر الذي انعكس على سياسة المعظم تجاه كل من الاشرف والكامل وهنا بدأت بوادر التحالفات تظهر على الساحة السياسية ، فما ان شعر الملك المعظم بضعف موقفه السياسي والعسكري حتى

(١) لم نجد له ترجمة .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٢٧ .

(٣) لم نجد له ترجمة .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٢٧ ؛ ابن العديم : زبدة ، ج ٣ ، ص ١٩٤ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٢٧ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٤ ؛ الحنبلي :

شفاء ، ص ٢٧٩ .

بادر في البحث وبجدية عن حليف قوي يقف إلى جانبه في أية مواجهة محتملة مستقبلا ، فلجأ إلى سياسة التحالفات مع بعض ملوك الاطراف الهدف منها الاستعداد لأي خطر محتمل يكون اساسه تحالف بين الكامل والاشرف فعمد المعظم إلى الاتصال بجلال الدين منكبرتي بهدف كسبه إلى جانبه والاستفادة من امكانياته العسكرية على اعتبار ان ذلك سيوفر له دعما كبيرا في المحافظة على ملكه^(١)، فأوفد الملك المعظم إلى جلال الدين منكبرتي سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢م) موفدا رفيع المستوى يدعى الصدر البكري^(٢)، وبرفقته جماعة من الصوفية من اهالي دمشق^(٣). أما عن المهمة الموكلة بالوفد فلا نعلم تفاصيل كثيرة عنها سوى انه بعث لتنظيم العلاقات السياسية مع جلال الدين منكبرتي لجعله سنداً للملك المعظم^(٤)، ويعد ذلك اول اتصال بين الطرفين حيث كان بادئاً لعلاقات طويلة ومتطورة بين جلال الدين منكبرتي والملك المعظم تلك العلاقات التي ساهمت وبشكل مباشر في تكوين تحالفات سياسية عدة في المنطقة ، واستمرت حتى وفاة المعظم سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م) .

استمر الملك المعظم قدما في توجهه نحو جلال الدين على امل الدخول في تحالف معه ليكون موقفه السياسي والعسكري اكثر قوة امام اخوته ، فما ان حلت سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م) حتى كان المعظم قد اعد لذلك الحلف ما يلزمه من الاتصالات ، فارسل احد رجاله يعرف بالملق^(٥) وهو من صوفية دمشق^(٦) في رسالة إلى جلال الدين منكبرتي تتضمن عرض تحالف عسكري .

وتجدر الاشارة هنا انه لم ترد معلومات وافية عن ماهية وطبيعة المشاركة التي قدمها جلال الدين منكبرتي والتي ربما كانت دعما وتأييدا على التحالف المزمع عقده حيث اننا لم نجد في المصادر المطلع عليها على أي نص يوضح مشاركة منكبرتي العملية في التحالف

(١) الجومرد : دور الخلافة ... ، مج ٢٤ ، ملحق ١٩٩٧ ، ص ٦٠٠ .

(٢) لم نجد له ترجمة .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٢٣ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ١٣١ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٩٨ ؛ الحنبلي : شفاء ، ص ٣١٠ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٢٣ .

(٥) لم نجد له ترجمة .

(٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٣٢ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ١٤٢ .

سوى انه كان ضمن التحالف مستنديين على كلام سبط ابن الجوزي "واتفق المعظم وابن زين الدين [مظفر الدين كوكبوري] مع الخوارزمي على الاشرف"^(١)، آخذين بنظر الاعتبار موقع سبط ابن الجوزي واطلاعه عن قرب على مجريات الاحداث ولا سيما من بلاط الملك المعظم .

كما ضم التحالف أيضاً مظفر الدين كوكبوري صاحب اربل حيث كان المعظم قد ارسل اليه ولده الاكبر الملك الناصر داوود (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٧م) خلال سنة (٦٢١هـ/ ١٢٢٤م)^(٢) يستميله للدخول في الحلف الذي كان موجهها ضد الملك الاشرف فسرعان ما وافق مظفر الدين على العرض^(٣) وهو يتطلع إلى تحقيق مصالحه الشخصية خصوصاً ضد بدر الدين لؤلؤ (ت ٦١٦-٦٥٧هـ/ ١٢١٩-١٢٥٨م) صاحب الموصل آنذاك حيث كان متحالفاً مع الملك الاشرف^(٤). بالإضافة إلى ما تقدم فإن الملك المعظم كان قد تمكن من استمالة أخيه الاصغر شهاب الدين غازي (ت ٦٤٥هـ/ ١٢٤٦م) الحليف الاقرب إلى الملك الاشرف حيث كان قد سلمه ادارة مدينة خلاط وجعله ولياً لعهده منذ اواخر سنة (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)^(٥)، وهنا يمكننا القول ان شهاب الدين غازي لم يكن بالحليف الوفي لأخيه، لأخيه، ففي سنة (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) أعلن تمرده على الاشرف في الوقت الذي كانت بلاد الشام والأقاليم المجاورة لها تشهد تحركات ساخنة على الصعيدين السياسي والعسكري لا سيما من قبل الملك المعظم الذي استطاع في اواخر العام نفسه من اقناع أخيه شهاب الدين للدخول في تحالفه ضد الاشرف^(٦).

(١) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٣٢ .

(٢) ابو شامة : الذيل ، ص ١٤٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٤٢ .

(٣) أبو شامة : الذيل ، ص ١٤٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٣٧ ؛ الذهبي : تاريخ ، طبعة ٦٣ ، ص ٧ ؛ الغساني : العسجد ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١١٤ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٤٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٩-٩٠ .

(٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٢٥ ؛ ابن العديم : زبدة ، ج ٣ ، ص ١٩٥ ؛ ابن خلكان : خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ٣٣١ ؛ الجميلي : دولة الاتابكة ، ص ٢٠٥-٢٠٦ .

وبحلول سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م) كان الملك المعظم وباسلوب سياسي محنك قد تمكن من ابرام تحالف مهم ضم كلا من جلال الدين منكبرتي ومظفر الدين كوكبورى صاحب اربل إضافة إلى شهاب الدين غازي الأخ غير الشقيق للملك المعظم وكان هذا التحالف موجهاً بالدرجة الاساس ضد مصالح الملك الاشرف^(١)، ويبدو ان ذلك كان بمثابة الرد السياسي والعسكري على ما فسرهُ المعظم من التقارب والتفاهم بين اخويه الكامل والاشرف وما يشكله ذلك من تهديد لمصالحه في المنطقة.

اما عن مضمون ذلك التحالف فقد تم الاتفاق بموجبه ان يبادر مظفر الدين كوكبورى صاحب اربل بهجوم مباغت وسريع على الموصل التي يحكمها بدر الدين لؤلؤ الحليف القوي للملك الاشرف^(٢)، فهو بذلك أي مظفر الدين يكون قد حقق هدفين الاول هو تنفيذ ما اوكل اليه بموجب الاتفاق اضافة إلى تحقيق غرض شخصي ضد بدر الدين لؤلؤ ، في حين يقوم الملك المعظم بتنظيم عملية عسكرية تستهدف مدينة حمص حيث كان صاحبها اسد الدين شيركوة الثاني مواليا للملك الاشرف^(٣)، ويبدو ان الملك المعظم كان يهدف من وراء تلك التحركات العسكرية إلى اشغال أخيه الاشرف بجبهة حمص لمنعه من التوجه إلى خلاط التي كان يحكمها شهاب الدين غازي الحليف الجديد للملك المعظم كما أسلفنا ، فضلاً عن ذلك، فقد كان المعظم يهدف إلى منع الاشرف من إرسال أي امدادات عسكرية إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل .

يبدو ان سياسة المعظم تلك كانت ناجحة إلى حد ما ، فقد اجبرت الاشرف أمام تلك المستجدات إلى طلب النجدة من أخيه الملك الكامل صاحب مصر ، الذي لم يتأخر عن نجدة أخيه حيث أرسل اليه مجموعة من العساكر لمساندته ضد الملك المعظم^(٤)، وفي الوقت الوقت ذاته وعلى الصعيد الدبلوماسي ارسل الملك الكامل إلى المعظم رسالة شديدة اللهجة

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٣٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٣٧ .

(٣) ابو شامة : الذيل ، ص ١٣٤ ؛ ابن العديم : زبدة ، ج ٣ ، ص ١٩٥ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٥٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٣٨ .

تضمنت تهديدا له ان هو تحرك صوب ممتلكات غيره من الامراء وان لم يرجع إلى دمشق جاء أي الكامل بنفسه لمهاجمة المعظم^(١)، ومن الواضح ان المعظم ادرك ان الموقف غير جدير بالمغامرة في الدخول في حرب مع الملك الكامل مراعيًا في ذلك ما يتمتع به الاخير من امكانات عسكرية واقتصادية ، الأمر الذي دفعه إلى الرجوع بقواته إلى دمشق^(٢) دون أي مواجهة عسكرية .

أما مظفر الدين كوكبوري ، فانه وحسب الاتفاق سار بقواته تجاه الموصل وضرب عليها حصارا شديدا يوم الثلاثاء (١٣ جمادي الآخر ٦٢١هـ / ١ تموز ١٢٢٤م) واستمر مدة عشرة ايام مستغلا بذلك ذهاب قسم كبير من عساكر الموصل لنجدة الملك الاشرف الذي كان مشغولاً في قمع تمرد أخيه شهاب الدين غازي بخلاط^(٣) والمدعوم من قبل الملك المعظم ، ويبدو ان كوكبوري كان يأمل في تحقيق نتائج سريعة على الصعيد العسكري لكون الموصل خالية تقريبا من قوات دفاعية ، وان صاحبها لم يصمد طويلا ولن يتمكن من مقاومة الحصار دون مساعدة خارجية من حليفه التقليدي الملك الاشرف وهذا بدوره لن يتمكن من تقديم المساعدات بسبب حاجته الماسة إلى العساكر لاستعادة سيادته على خلاط^(٤). لكن مظفر الدين كوكبوري لم يتمكن من تحقيق أي من الاهداف التي كان يصبو اليها ، فقد كان بدر الدين لؤلؤ قد احكم تحصينات الموصل مما جعل المدينة اكثر مقاومة للحصار^(٥)، وسرعان ما تشتت عزيمة كوكبوري في الاستيلاء على الموصل بعد ان علم برجوع الملك المعظم إلى دمشق ، وتمكن الملك الاشرف من اعادة نفوذه إلى خلاط في (١٢ جمادي الآخر ٦٢١هـ /

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٥٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١٣٩ .

(٢) المصدر نفسه والجزء والصفحة ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٥ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٥٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٣٩ .

(٤) محمد محسن حسين : اربل في العهد الاتاكي ، بغداد ، مطبعة اسعد ، ١٩٧٦ ، ص ١٨٤ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٥٤ ؛ الرويشدي : امانة الموصل ، ص ١٤٥ ؛ حسين :

اربل ، ص ١٤٩ .

تموز ١٢٢٤م^(١)، والقضاء على تمرد أخيه شهاب الدين وإمام تلك المستجندات لم يكن أمام مظفر الدين سوى رفع الحصار عن الموصل وعاد إدراجه إلى أربل^(٢).

وهكذا أخفق الملك المعظم في تحالفه السابق دون أن يتمكن من تحقيق أي مكاسب سوى زيادة التوتر القائم بينه وبين أخويه الكامل والأشرف جراء تلك الأحداث .

على الرغم من ذلك الاخفاق فإن الملك المعظم لم يركن إلى الهدوء بل استمر في سياسة الأحلاف والتكتلات الإقليمية الموجهة ضد أخويه ، فبعد حوالي عامين من تحالفه الأخير أي في سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) قام الملك المعظم بتنظيم تحالف جديد كان موجهاً أيضاً ضد مصالح الملك الأشرف^(٣)، وفي هذه المرة كان نطاق التحالف قد توسع ليضم إلى جانب جلال الدين منكبرتي ومظفر الدين كوكبوري كلا من ناصر الدين ارتق صاحب ماردين إضافة إلى الملك المسعود ركن الدين مودود ابن الملك الصالح (٦١٧-٦٣٥هـ/١٢٢٠-١٢٣٧م) صاحب آمد^(٤).

وتم الاتفاق بين الأطراف المتحالفة القيام بعمليات عسكرية متفرقة لفتح أكثر من جبهة قتال ، ويبدو أن الهدف من تلك الخطة كان إرباك الملك الأشرف ، وتضييق الخناق عليه وعلى حليفه بدر الدين لؤلؤ من جهة ، وتقويض أي محاولة من أي طرف خارجي لتقديم الدعم العسكري للملك الأشرف ، ووفق خطة الاتفاق فقد آلت جبهة الموصل إلى مظفر الدين كوكبوري^(٥) الأقرب جغرافياً والأكثر عداءً لصاحبها بدر الدين لؤلؤ فسار مظفر الدين

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٤٠ .

(٢) ابن العديم : زبدة ، ج ٣ ، ص ١٩٥-١٩٦ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٥ ، ص ٣٣١ ؛ الغساني : العسجد ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٥-١٧٩ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٦٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٠٢ ؛ عبد القادر أحمد طليعات : مظفر الدين كوكبوري أمير أربل ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العام للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٩٦٣ ، ص ١٣١ ؛ عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٠ ، ص ١٧٨ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .

نحو الموصل في (جمادي الآخر ٦٢٣هـ / ايار ١٢٢٦م) ، ونزل شرق المدينة وضرب عليها حصارا شديدا^(١) .

أما جلال الدين منكبرتي الذي كان وقتها مقيما بتفليس^(٢) فكانت المهمة المناطة به هي الهجوم على مدينة خلاط^(٣)، لكنه لم يتمكن من الاستمرار في زحفه صوب خلاط بسبب تمرد نائبه على كرمان^(٤)، واسمه بولاق حاجب^(٥)، والذي يبدو انه استغل بعد جلال الدين عنه وانشغاله بتحالفه مع الملك المعظم فاعلن تمرده وخروجه عن سلطة جلال الدين^(٦) الأمر الذي اجبر الاخير إلى التخلي عن خلاط ميمنا صوب كرمان حتى استقر بالقرب من اصفهان ومن هناك ارسل إلى بولاق حاجب يسترضيه بالخلع والهدايا^(٧)، والظاهر ان سياسة جلال الدين تجاه تمرد نائبه كانت افضل حل لتلك المشكلة في الوقت الذي لم يكن على استعداد للمسير إلى كرمان وفي نيته الهجوم على خلاط .

وبعد ان اصلح جلال الدين الوضع في كرمان عاد إلى خلاط وضرب عليها حصارا في ١٥ ذي القعدة سنة ٦٢٣هـ / ٧ تشرين الثاني ١٢٢٦م) استمر ٤٠ يوما^(٨) علّاها تستسلم الا الا ان محاولاته باءت بالفشل ، فلم يتمكن من تحقيق أي مكسب يذكر خلال حملته تلك ،

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٦٧ ؛ الغساني : العسجد ، ج ٢ ، ص ٤١٨ ؛ طليمات : مظفر الدين ، ص ١٣١ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

(٣) المصدر نفسه والجزء ، ص ١٧٩ .

(٤) كرمان : ولاية مشهورة تقع إلى الجنوب من خراسان يحدها من الشرق مكران ومن الغرب فارس ومن

الجنوب بحر فارس (الخليج العربي) ، وهي بلاد كثيرة الخيرات غنية بالزرع والمواشي . للمزيد ينظر :

ابراهيم بن محمد الاصطخري : المسالك والممالك ، تحقيق : محمد جابر عبد العال الحيني ، القاهرة ، دار

القلم ، ١٩٦١ ، ص ٩٧ .

(٥) لم نجد له ترجمة .

(٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٦٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٨٦ ؛ ابن كثير : البداية

البداية ، ج ١٣ ، ص ١١٢ .

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٨٧ .

(٨) ابو شامة : الذيل ، ص ١٤٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٩٠ .

فقد استبسل اهل خلاط في الدفاع عن مدينتهم ، وبقدوم فصل الشتاء وما يرافقه من تساقط الثلوج اجتمعت الاسباب التي اجبرت جلال الدين منكبرتي إلى التخلي عن الحصار فرحل عن مدينة خلاط نهاية (ذي الحجة ٦٢٣هـ/اواخر كانون الاول ١٢٢٦م)^(١).

اما الملك المعظم ، فانه توجه بموجب الاتفاق إلى حمص وحماه بهدف الاستيلاء عليها ، وأمام تلك التطورات جرد شهاب الدين ظهير القائم بإدارة حلب واتبك العزيز بن الملك الظاهر غازي قوة عسكرية من حلب نجدة لصاحب حمص شيركوه الثاني ، فاتفق وصولهم مع وصول عساكر الملك المعظم الذي حاول منعهم من الدخول إلى المدينة ودارت بين الطرفين مواجهة عسكرية أسفرت عن تمكن عساكر حلب من الدخول إلى حمص^(٢)، وإزاء تلك المستجدات سار الملك الأشرف من الرقة^(٣) التي كان مقيما بها حينذاك^(٤) متوجها صوب ماردين بهدف حصارها وتوجيه ضربة عسكرية لناصر الدين ارتق حليف الملك المعظم^(٥)، ويبدو ان الأشرف كان يتوخى من وراء تلك المحاولة إجبار أخيه المعظم المحاصر لحمص ان يقدم بعض التنازلات لحل الأزمة ، ومن الواضح ان تلك المحاولة من قبل الأشرف قد أسفرت عن تغير ملحوظ في سياسة الملك المعظم الذي أرسل إلى أخيه الأشرف إن هو تخلى عن حصاره لماردين ، فهو أي المعظم على استعداد للانسحاب عن حصاره لحمص وتعهده كذلك بإبعاد مظفر الدين كوكبوري عن الموصل^(٦)، وبدأت بوادر الانفراج لتلك الأزمة تلوح في الأفق فما ان حل شهر رمضان حتى كان الملك المعظم قد عاد أدراجه إلى دمشق وتراجع مظفر الدين عن الموصل^(٧). وفي نهاية تلك المواجهات فانه لم يتم أي شيء يذكر لأي من الجانبين سوى التخريب والدمار للمدن التي تعرضت لهجمات عسكرية كالموصل وحمص وماردين .

(١) المصدر نفسه والجزء ، ص ١٩١ .

(٢) المصدر نفسه والجزء ، ص ١٧٨ .

(٣) الرقة : معناه كل ارض إلى جانب الوادي ينبسط عليها الماء . وهي مدينة تقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات محدود من بلاد الجزيرة . ياقوت الحموي : معجم ، ج ٣ ، ص ٥٨٥ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٦٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٨ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٦٧ ؛ الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ١٢٧ ؛ طليعات : مظفر الدين الدين ، ص ١٣١ .

(٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٦٧ .

(٧) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٦٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .

وعلى الرغم من فشل التحالف السابق الذي كان موجهاً ضد مصالح الملك الأشرف ، ونتيجة للفوضى التي حصلت في بلاد الشام من جراء الحملات العسكرية المتعاقبة قرر الأشرف ان يتوجه بنفسه إلى دمشق لتصفية الأمور مع أخيه الملك المعظم في محاولة لخلق علاقات أكثر إيجابية بعد التوتر الشديد الذي دب بين الإخوة^(١)، وربما كان لتنامي الخطر الخوازمي في الجهات الشرقية لممتلكات الأشرف و تحديد ابخلاط والمتمثل بجلال الدين منكبرتي الحليف الأكثر قوة للملك المعظم دور في جعل الأشرف يفكر في تحسين علاقاته بأخيه المعظم لإعادة وحدة الجبهة الأيوبية بوجه الأخطار الخارجية سواء أكانت خوازمية من وجهة نظر الأشرف أو صليبية الأمر الذي دفع الأخير إلى التوجه نحو دمشق في (رمضان ٦٢٣هـ/أيلول ١٢٢٦م) وهناك استقبل بحفاوة كبيرة من قبل الملك المعظم^(٢).

وخلال إقامة الملك الأشرف بدمشق وصل رسول رفيع المستوى من عند جلال الدين منكبرتي لم تشر المصادر التاريخية إلى اسمه لكنه كان قد بعث لأجل تقديم بعض الخلع والهدايا إلى الملك المعظم كان من بينها سنجقا وسيفا^(٣)، وكان المعظم كثير الاعتزاز بعلاقته مع جلال الدين منكبرتي ، فقد كان "يركب بسنجد الخليفة وسنجد ابن خوارزمشاه بمحضر من رسل الخليفة"^(٤)، وربما أراد المعظم من خلال ذلك ان يلفت أنظار أخيه الأشرف ان علاقاته بجلال الدين توازي علاقاته مع الخلافة في قوتها ، بالإضافة الى ذلك فانه يذكر ان الملك المعظم كان إذا جلس في مجلسه "يحلف برأس خوارزمشاه"^(٥).

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٣٩ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ١٤٨ ؛ ابن واصل :

مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٧١ ابن العديم : زبدة ، ج ٣ ، ص ١٩٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ،

ج ٤ ، ص ١٧٩ ؛ الذهبي : العبر ، ص ١٨٩ ؛ عاشور : الحركة ، ج ٢ ، ص ٩٩٨ .

(٣) الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ١٤١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٧٩ .

(٤) الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ١٢١ .

(٥) أبو شامة : الذيل ، ص ١٤٨ .

ويمكن القول ان سياسة المعظم تلك لم تكن مشجعة على الاتفاق بينه وبين الاشرف وما جاء من اجله ، ومن جانب آخر يبدو أن إقامة الاشرف بدمشق أصبحت إجبارية إلى حد ما وبات كالأسير في قبضة المعظم^(١) فقد منعه من العودة إلى بلاده إلا بشرط مساندته ضد الملك الكامل في أي مواجهة مستقبلا ، اضافة الى ذلك فقد طلب المعظم من الاشرف ان يعاهده بأن يقف الى جانبه إذا ما حاول ضم حمص وحماه إلى ملكه^(٢)، وان يبعث الى شهاب الدين طغرل القائم بأمر حلب يطلب منه ان يكون هو أيضاً عوناً للمعظم على الكامل ، وفي تلك الفترة صادف قدوم كمال الدين بن العديم (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) إلى دمشق فالتقى به الاشرف وحمله رسالة إلى شهاب الدين طغرل تتضمن طلبات الملك المعظم التي لم تجد لها قبولا لدى شهاب الدين^(٣) وحينئذ أيقن الاشرف ان لا خيار أمامه سوى تقديم فروض الطاعة والولاء وتنفيذ كل طلبات الملك المعظم فعاهده على ان يكون معه على الملك الكامل وعلى الملك المجاهد شيركوه الثاني صاحب حمص والملك الناصر صاحب حماه^(٤).

وعلى أثر تنفيذ الملك الأشرف لمطالب أخيه الملك المعظم تحت الضغط والاكراه اطمأن الاخير لذلك وسمح له بالرجوع إلى بلاده ، فخرج الاشرف من دمشق في (جمادي الاخر ٦٢٤هـ/ ايار ١٢٢٦م)^(٥)، لكنه ما ان وصل إلى بلاده حتى تراجع عن كل ما تم الاتفاق عليه مع الملك المعظم مبررا ذلك انه استجاب لمطالب أخيه تحت الضغط والاكراه^(٦).

ومن جانب آخر ، فان علاقة الملك المعظم بأخيه الملك الكامل سارت هي الاخرى من سيء إلى اسوأ جراء المستجدات الخطيرة على الساحة الشامية خصوصا تحركات المعظم العسكرية ضد حمص وحماه . اضافة الى التطورات المتسارعة في علاقات المعظم بجلال الدين

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٨٠ ؛ ابو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣٧ ؛ الحنبلي : شفاء ، ص ٣١٠ ؛ قساطلي ، الروض ، ص ٥٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٨٠ ؛ ابو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣٧ .

(٣) ابن العديم : زبدة ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ .

(٤) المصدر نفسه والجزء ، ص ٢٠٠-٢٠١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ ؛ المقريزي : السلوك ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢١ ،

(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٤٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ ؛ الحموي : التاريخ المنصوي ، ص ١٤١ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢١٢ .

(٦) ابن العديم : زبدة ، ج ٣ ، ص ٢٠١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٠٤-٢٠٥ .

منكبرتي وتحالفاته معه ضد الاشرف ، وفي خضم ذلك التوتر في العلاقات بين المعظم والكامل عمد المعظم الى قطع الخطبة للملك الكامل^(١)، فهو بذلك قطع كل صلاته بالملك الكامل ولا شك ان قرار المعظم قد زاد الامور تعقيدا ، وجعل الكامل يشعر بأن الخطر القادم من جانب المعظم وحليفه جلال الدين سيكون اكبر الامر الذي دفعه الى البحث عن حليف قوي يعيد توازن القوى في المنطقة لصالحه ، الأمر الذي أدى إلى توجه الملك الكامل بانظاره إلى الامبراطور فردريك الثاني^(٢) (٥٩١-٦٤٨هـ/١١٩٤-١٢٥٠م) - امبراطور الدولة الرومانية المقدسة - فأرسل إليه الأمير فخر الدين يوسف بن صدر الدين بن حمويه (ت ٦٤٧هـ/١٢٤٩م) أخو الملك الكامل في الرضاة^(٣)، يعرض على الامبراطور الدخول في تحالف مع الملك الكامل^(٤)، الهدف منه تقديم المساعدة للاخير الذي بات يتوجس خيفة من تنامي خطر الملك المعظم ، وتعهد الكامل في مقابل ذلك ان يتنازل للامبراطور عن بيت المقدس ما عدا المسجد الحرام^(٥).

لقد كان وجه الخطورة في النزاع الذي نشب بين ابناء العادل يكمن في استعانة كلا الفريقين المتنازعين بقوى من خارج البيت الايوبي^(٦) بل بقوى غير اسلامية لتكوين احلاف عسكرية في المنطقة لارغام بعض الايوبيين بعضهم على التخلي عن سياساتهم العدائية من جهة ، وللتأمين على ممتلكاتهم ضد أي محاولة خارجية من جهة اخرى .

لقد ازداد الوضع توترا بين الملك المعظم واخيه الكامل عندما استعد الاخير للقيام بعمل عسكري ضد دمشق في (رمضان ٦٢٤هـ/ اذار ١٢٢٦م)^(٧)، مما انذر باشتعال الحرب بين الاخوة من ابناء العادل ، وازاء تلك المستجدات كان لزاما على الملك المعظم التوصل إلى حل ملائم للازمة الجديدة مع أخيه الكامل لدرء الخطر المقبل على ممتلكاته ، ويبدو ان المعظم

(١) ابن العميد : اخبار ، ص ٢٨ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٢٢ .

(٢) للمزيد من التفاصيل عن الامبراطور فردريك ينظر : عاشور : الامبراطور فردريك الثاني والشرق ، المجلة التاريخية المصرية ، مج ١١ ، ١٩٦٣ ، ص ص ١٩٥-٢١٣ .

(٣) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٦١ .

(٤) عن علاقة الملك الكامل بالامبراطور فردريك ينظر : الصائغ : عصر الملك الكامل ، ص ص ١٠٧-١٠٨ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ ؛ ابو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣٧ ؛ الصائغ : عصر الملك الكامل ، ص ١٠٧ .

(٦) عاشور : مصر والشام ، ص ٨٥ .

(٧) ابن العميد : اخبار ، ص ٢٨ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٢ .

تمكن وبمناورة سياسية حكيمة من اقناع أخيه الملك الكامل للتخلي عن عزمه في الهجوم على دمشق الذي كان قد استقر بجيشه في بلبس منذ شهر (رمضان ٦٢٤هـ/آب ١٢٢٧م)^(١)، فبعث اليه المعظم رسالتين متناقضتين الاولى كانت سرية بينما اعلن الاخرى لكن كلتا الرسالتين تهدفان إلى منع الكامل من القدوم إلى الشام ، ففي الرسالة الاولى اعلن المعظم على الملأ قائلاً "اني نذرت لله تعالى ان كل مرحلة ترحلها لقصدي اتصدق بالف دينار، فان جميع عسكري معي ، وكتبهم عندي ، وأنا آخذك بعسكري"^(٢)، وأعقب تلك الرسالة برسالة ثانية سرية خاطب فيها الملك الكامل قائلاً "اني مملوكك وما خرجت عن محبتك وطاعتك ، وحاشاك ان تخرج وتقابلني ، وانا اول من انجذك وحضر الى خدمتك [خلال أحداث الحملة الصليبية على دمياط] من جميع ملوك الشام والشرق"^(٣).

يبدو ان الملك المعظم كان حكيما من ناحيتين ، فهو في الرسالة الاولى (العلنية) اراد ان يزرع الشك لدى الملك الكامل في قياداته العسكرية والظاهر ان المعظم نجح في ذلك الى حد كبير نستدل على ذلك من قيام الكامل بإلقاء القبض على عدد من قادته^(٤) على اثر رسالة المعظم ، وفي الوقت ذاته فان الرسالة تحمل في طياتها من التحدي ما يجعل موقف المعظم اكثر قوة بين جنده . اما في الرسالة الثانية (السرية) فيظهر بوضوح ان المعظم يحاول وبأسلوب اكثر هدوءا تذكير الكامل بالخدمات التي قدمها له خلال الحملة الصليبية الخامسة عله يشثيه عن مهاجمة دمشق .

اضافة الى ما تقدم ، فمن المرجح ان ما دفع المعظم لصياغة الرسالة الثانية انه لم يكن مطمئنا لمدى استعداد حليفه جلال الدين منكبرتي في تقديم المساعدة والعون العسكري له اذا ما تعرضت بلاده الى هجوم من قبل الكامل خاصة وان جلال الدين كان مشغولا بمحاربة المغول^(٥)، فمن الواضح ان المعظم تجنب الدخول في أي مواجهة عسكرية مع الكامل بل كان

(١) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٢ .

(٢) ابن العميد : اخبار ، ص ٢٨-٢٩ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٢ ؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية للعهد الفاطمي والاتبكية والايوبية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٠ ، ص ٤٠٨ .

(٣) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٢ ؛ حمادة : الوثائق ، ص ٤٠٨ .

(٤) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٢-٢٢٣ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٧٤ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ١١٧ .

يحاول جاهدا ان يدرأ خطره عن ملكه بالطرق الدبلوماسية مستخدماً في ذلك حنكته السياسية ،
وخلاصة القول ان المعظم تمكن في نهاية المطاف من اقناع اخيه الكامل بالعدول عن مهاجمة
دمشق وعودته إلى قاعدة ملكه^(١).

وهكذا بقيت الاوضاع في بلاد الشام على حالها ولم تعد العلاقات بين ابناء العادل الى
ما كانت عليه من التصافي والوئام ، فقد ادركت الملك المعظم المنية بعد حوالي شهرين من
الاحداث السالفة الذكر فقد توفي في (ذي القعدة ٦٢٤هـ/تشرين اول ١٢٢٧م) ، وبوفاته زال كل
ما كان يسببه من قلق للملك الكامل ، ومن ناحية أخرى ، فان الملك المعظم لم يتمكن من
تحقيق طموحاته في المنطقة رغم انه استطاع وبجدارة الحفاظ على ممتلكاته من ان يتعدى عليها
احد من اخوته .

ثالثا : علاقات الملك المعظم مع الخوارزمية :

تعود العلاقات بين الدولتين الايوبية والخوارزمية الى عهد الملك العادل وتحديدًا قبيل
وفاته سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) عندما وصل مبعوث من قبل علاء الدين محمد خوارزم شاه
(ت ٦١٧هـ/١٢١٨م) إلى الملك العادل^(٢)، اما عن الغاية التي قدم من اجلها مبعوث خوارزم شاه
فلم تذكر المصادر التاريخية هدف تلك الزيارة ولا ماهية المهمة الموكلة اليه ، ومن المرجح ان
يكون هدف تلك البعثة رغبة خوارزم شاه في اقامة علاقات ودية مع بني ايوب والتحالف
معه^(٣)، ورداً على المبادرة الخوارزمية أوفد الملك العادل في العام نفسه رسولين إلى خوارزم شاه
، هما جمال الدين محمد الدولعي^(٤) (ت ٦٥٧هـ/١٢٥٩م) خطيب جامع دمشق ومعه نجم الدين
خليل بن علي الحنفي قاضي العسكر^(٥)، فوصلا الى همدان وهناك سمعا بوفاة الملك العادل عند

(١) ابن العميد : اخبار ، ص ٢٩ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٢ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٣ ؛ ابو شامة : الذيل ، ص ١٠٩ .

(٣) نافع توفيق العبود : الدولة الخوارزمية نشأتها مع الدول الإسلامية ، بغداد ، مكتبة الجامعة ، ١٩٧٨ ،
ص ١٥٢ ؛ التكريتي : الايوبيين ، ص ٢٨٧ .

(٤) هو محمد بن أبي الفضل بن زيد بن ياسين الامام جمال الدين ابو عبدالله الدولعي ولد بالدولعية من قرى
الموصل سنة (٥٥٥هـ/١١٦٠م) ، وقدم إلى دمشق وولي الخطابة بجامع دمشق . للمزيد من التفاصيل
ينظر : الصفدي : الوافي ، ج ٤ ، ص ٣٢٧ .

(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٣ ؛ ابو شامة : الذيل ، ص ١٠٩-١١٠ .

عند لقائهما بجلال الدين منكبرتي ابن خوارزم شاه الذي نقل اليهم خبر الوفاة ، فما كان على الرسولين إلا ان يعودا ادراجهما الى دمشق دون ان تحقق سفارتهما هدفها المنشود^(١).

ساد الجمود في العلاقات الايوبية الخوارزمية طوال الفترة اللاحقة لوفاة العادل بحوالي اربع سنوات ، إذ لم يرد في المصادر التاريخية المطلع عليها أي اشارة عن اتصالات بين الجانبين ، وربما يعود السبب في ذلك الى انشغال كلا الجانبين في مجابهة المشاكل التي اعترضتهما ، فقد انشغل الخوارزميون بوجه المد المغولي^(٢)، في حين انشغل بنو ايوب بتوحيد جبهتهم لصد الخطر الصليبي المتمثل بالحملة الصليبية الخامسة على مصر .

استؤنفت محاولة التقارب بين الايوبيين ممثلة بالملك المعظم وجلال الدين منكبرتي آخر سلاطين الدولة الخوارزمية المنهارة ، ففي سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢م) ، وهي بداية التدهور الذي انتاب علاقات الملك المعظم باخويه الاشرف والكمال - كما مر ذكره - إذ بادر المعظم في السعي للبحث عن حليف من خارج البيت الايوبي كي يكون عوناً له في أي مواجهة مستقبلية ، وفي تلك الفترة كان جلال منكبرتي قد ظهر على مسرح الاحداث ، ويبدو ان الملك المعظم اراد اعادة المحاولات الرامية لتكوين علاقات مع الخوارزمية في عهد والده العادل ، فشرع في التقرب من جلال الدين منكبرتي آخر سلاطين الخوارزمية ، وذلك بارساله وفدا رفيع المستوى سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢م) ضم صدر الدين أبا الحسن محمد بن أبي الفتح المعروف بالصدر البكري ومعه جماعة من الصوفية^(٣) من شيوخ دمشق وعندما وصل الوفد إلى جلال الدين "اجتمع البكري بالخوارزمي وقرر الأمور معه وجعله سندا له [أي للملك المعظم]"^(٤)، وابلغه رغبة المعظم في التحالف معه ، ويظهر ان جلال الدين منكبرتي كان هو الآخر كان راغبا في توثيق علاقاته مع الملك المعظم كما يبدو . من خلال التطور السريع في ذلك الاتجاه .

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٩٣ .

(٢) التكريتي : الأيوبيون ، ص ٢٨٨ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٢٣ ؛ ابو شامة : الذيل ، ص ١٣١ ؛ ابن كثير :

البداية : ج ١٣ ، ص ٩٨ ؛ الحنبلي : شفاء ، ص ٣١٠ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٢٣ .

وتوثيقاً لعرى الصداقة والوئام بين جلال الدين والملك المعظم ، فقد ارسل في سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م) إلى جلال الدين شخصاً يدعى الملق^(١) في مهمة سياسية كان الغرض منها عرض ل خطة تحالف ضم كذلك مظفر الدين كوكبوري صاحب اربل كما مر ذكره ، ومن جانب آخر فقد أرسل جلال الدين منكبرتي سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) مبعوثاً من قبله يعرف بالقاضي مجد الدين الحنفي إلى امراء الدولة الايوبية الثلاثة الكامل والمعظم والاشرف^(٢) ، والذي يبدو انه أرسل للاطلاع على طبيعة التوتر بين المعظم واخويه للاستفادة من ذلك في رسم سياسته تجاه بني ايوب . بينما ذهب بعض الباحثين^(٣) ان مهمة المبعوث كان احلال الوئام بين الاخوة ابناء العادل ، وهذا لا يتفق وسياسة جلال الدين منكبرتي التوسعية في المنطقة فهو يحاول جاهدا توسيع دائرة ملكه على حساب الممالك المجاورة ، وأي اتفاق بين الملوك من بني ايوب لا يخدم مصالحه فلهذا السبب نجده ومنذ الوهلة الأولى يتحالف مع الملك المعظم ضد الملك الاشرف وانه أي جلال الدين كان يتحين الفرص للاستيلاء على خلاط التي كانت ضمن ممتلكات الاشرف حيث حاصرها اكثر من مرة منذ سنة (٦٢٣هـ / ١٢٧٦م)^(٤).

لقد أخذت العلاقات بين المعظم ومنكبرتي منحى جديدا عندما حاول الاخير جر الملك المعظم إلى حرب مع الخليفة العباسي الناصر لدين الله حيث ان منكبرتي أقدم على غزو بغداد في سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م)^(٥) ، وفي غضون ذلك ارسل إلى الملك المعظم يقول "تحضر انت ومن عاهدني واتفق معي حتى نقصد الخليفة ، فانه كان السبب في هلاك أبي ومجيء الكفار إلى البلاد"^(٦) ، وفوجيء المعظم بطلب منكبرتي الذي لم يكن مستعدا لقبوله وتنفيذه ، فكتب اليه "انا معك على كل احد الا الخليفة فانه إمام المسلمين"^(٧) . والجدير بالملاحظة ان موقف الملك

(١) لم نجد له ترجمة .

(٢) الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ١١٥ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٦ .

(٣) العبود : الدولة الخوارزمية ، ص ١٥٤ ؛ التكريتي : الايوبيون ، ص ٢٨٩ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٩٠ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٥٥-٣٥٦ .

(٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٣٤ ؛ أبو شامة : الذيل ، ص ١٤٤ ؛ حمادة : الوثائق

الوثائق ، ص ٤٠٩ .

(٧) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٣٤ ؛ حمادة : الوثائق ، ص ٤٠٩ .

المعظم امتنع عن الدخول في مواجهة مع الخلافة من خلال عدم موافقته لجلال الدين ربما كان له دور في ثني الأخير عن عزمه غزو بغداد لحاجة جلال الدين إلى تحالفه مع المعظم من جهة ، ولتراجعه عن غزو بغداد^(١)، وبذلك لم يشكل رفض الملك المعظم لطلبه شيئاً يذكر على مستوى العلاقات بين الطرفين .

استمرت المراسلات بين جلال الدين والملك المعظم لتعبر عن مدى تمسك كلا الجانبين بالآخر ، وتعزيزاً لتلك الصداقة بعث جلال الدين رسولا رفيع المستوى -لم تذكر المصادر اسمه - يحمل الى الملك بعض الهدايا من بينها سنجقا وحررتين وسيفاً^(٢)، وذلك في سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) ، أما المعظم ، فقد بلغ احترامه وحبه لجلال الدين مبلغاً عظيماً حتى صار لا يحلف إلا براس جلال الدين -كما مر ذكره - ويزدا فخراً عندما يلبس خلعتيه ويركب فرسه^(٣)، كما عمد الملك المعظم قبيل وفاته إلى مصاهرة جلال الدين منكبرتي^(٤)، في الوقت الذي كانت فيه المصاهرات السياسية أمراً منتشراً بين السلاطين والملوك ، ايا كان مغزى ذلك الزواج ، فانه لم يتم ربما لوفاة الملك المعظم سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م) وزوال المصلحة ، او لوفاة ابنة المعظم نفسها التي توفيت في نفس العام وبعد والدها بفترة يسيرة^(٥).

وقبيل وفاة المعظم ارسل الى جلال الدين رسوله القاضي نجم الدين خليل بن علي الحنفي (ت ٦٤١هـ/١٢٤٣م) قاضي العسكر ويرفقته احد مماليك المعظم ويدعى بالركين^(٦)،

(١) محمد بن احمد النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، تحقيق : حافظ احمد حمدي ، القاهرة، دار الفكر العربي ، ١٩٥٣ ، ص ٢٠٩ ؛ الجومرد : "دور الخلافة ..." ، مجلة دراسات ، مج ٢٤ ، ملحق ، ص ٦٠٠ .

(٢) الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ص ١٢٠-١٢١ .

(٣) ابو شامة : الذيل ، ص ١٤٨ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٦٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢١٩ .

(٥) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٦) لم نجد له ترجمة .

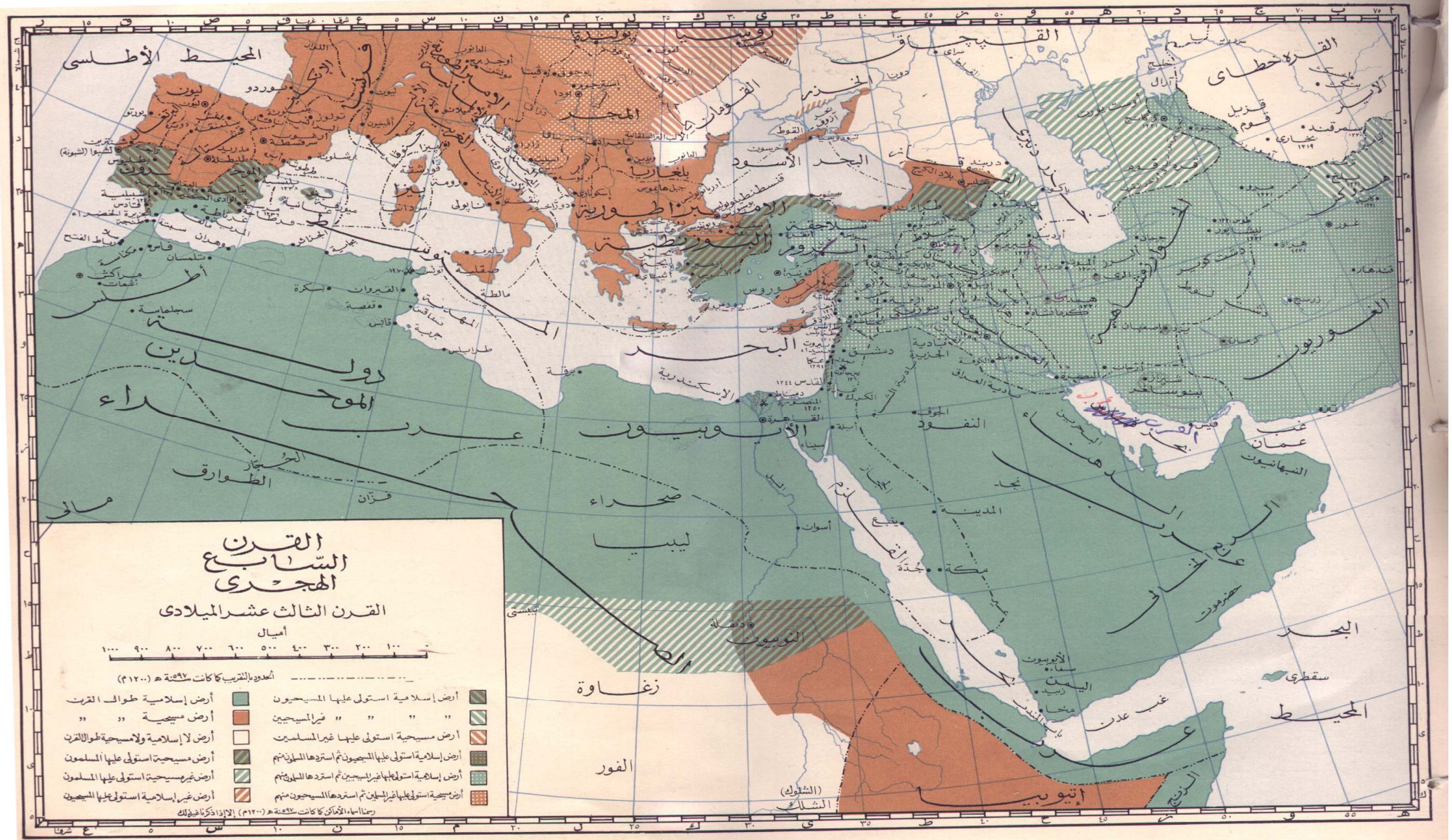
وذلك في سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م)^(١)، ولم تمدنا المصادر التاريخية بأي معلومات عن المهمة الموكلة اليهم سوى ان تلك المهمة قد طالّت وان الرسولين بقيا عند جلال الدين ما يقارب تسعة اشهر حيث عادا في السنة التالية^(٢)، كان ذلك آخر اتصال بين الجانبين .

ان علاقات الملك المعظم مع جلال الدين منكبرتي منذ اول اتصال بينهما وحتى وفاة المعظم تميزت بالقوة والوفاق طيلة تلك الفترة حيث لم تتخللها أي خلافات ، لكنها كانت ذات آثار وخيمة على المنطقة لما صاحبها من تحالفات نجم عنها معارك كثيرة بين الممالك الاسلامية في حين كانوا بأمس الحاجة إلى الوحدة ورص الصفوف للوقوف بوجه الاخطار المحدقة بالمسلمين سواء الصليبية منها او المد المغولي القادم من الشرق .

(١) النسوي : سيرة ، ص ٢٠٩ ؛ ابو شامة : الذيل ، ص ١٤٧ .

(٢) الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ١٣٢ .

خارطة رقم (١) حدود الدولة الأيوبية في القرن السابع الهجري



نقلا عن : هاري و. هازارد: أطلس التاريخ الإسلامي ، ترجمة : إبراهيم زكي خورشيد ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، د.ت

الخاتمة

بعد الانتهاء من هذا البحث الذي استعرضنا فيه ظروف الأحداث السياسية والعسكرية والفكرية التي عملت على تشكيل الملك المعظم كحاكم لدمشق وكشخصية قوية في بلاد الشام، ومن ثم أثره في صياغة تلك الأحداث وقيامه بمهام الحاكم تطلبت منه أن يسوس أمور محيط ملكه سياسة مدروسة تضمن له الأمان والبقاء ، وبعد ان رأينا كيف كان عليه ان يوازن بين علاقاته الاخلاقية والشرعية مع الخلافة العباسية مع تلك الدبلوماسية والمصلحية مع جلال الدين منكبرتي ليكون آمنا في حدود ملكه . وبعد الانتهاء من هذا البحث ارتأينا ان نختصر في النقاط التالية اهم الملامح التي أمكن رصدها والتي ميّزت حكم الملك المعظم لدمشق (٥٩٢-٦٢٤هـ/١١٩٥-١٢٢٧م) وهي نقاط قليلة لا تقي كخلاصة لموضوع مهم كموضوع هذا البحث ولكنها محاولة لتكثيف تلك الملامح وسعينا جهدنا لاعطاها حقها قدر الامكان وتلك النقاط هي :

١- ظهر ومن خلال الدراسة ان دعائم الوحدة السياسية للدولة الايوبية التي أرسى قواعدها صلاح الدين بن يوسف بن ايوب اخذت تتهار بعد وفاته ، الأمر الذي ادى إلى بروز الفتن الداخلية والتنافس على السلطة مما اسفر عن تفكك تلك الجبهة حتى تمكن الملك العادل من السيطرة على السلطة واعادة الامور إلى نصابها .

٢- ومن خلال عرضنا لحياة الملك المعظم عيسى الايوبي يمكننا القول بأنه كان عالما ومجاهدا فضلاً عن مهامه الادارية وهو يستحق ان يكون (مأمون بني ايوب) كما وصفه بعض الباحثين لما أبداه من اهتمام واسع وعناية فائقة بالعلم ، ولا سيما النحو والفقه فهو إلى جانب كونه على رأس السلطة الادارية بدمشق كان لا يفارق طلب العلم حتى خلال حملاته العسكرية .

٣- يمكن ان نلاحظ من خلال الدراسة تحولا مذهبيا بين أبناء الاسرة الايوبية تمثل باتباع الملك المعظم للمذهب الحنفي ، وهو بذلك مثّل سابقةً على الصعيد المذهبي للأسرة الايوبية خصوصا إذا علمنا ان أبناء هذه الأسرة كلهم شوافع . وفي الحقيقة اننا لم نتوصل إلى نتيجة حاسمة ونهائية تفسر الأسباب التي دفعت الملك المعظم إلى اتباع مذهب أبي حنيفة ، لكن

يمكن ان يكون الدافع وراء ذلك هو دافع شخصي ناجم عن تأثره بأحد شيوخه ولا سيما ان معظمهم كانوا أحنافاً ، وربما كان السبب الذي جعله ان يسير على النهج الحنفي رغبته في البروز بين أبناء أسرته بانفراده بالمذهب .

٤ - لقد أثبتت الدراسة ان العلاقات الداخلية للأسرة الأيوبية في عهد الملك المعظم مرت بمرحلتين مختلفتين. الأولى تبدأ منذ تعيين الملك المعظم نائباً على دمشق سنة (٥٩٢هـ/١١٩٥م) مروراً باستلام العادل لسلطة الدولة الأيوبية سنة (٥٩٦هـ/١١٩٩م) حتى وفات الأخير حيث كانت العلاقات خلالها ودية قائمة على احترام سيادة الآخرين خاصة بين أبناء الملك العادل بحكم سيطرته على سياسة الدولة الأيوبية . اما المرحلة الثانية فتبدأ بأواخر سنة (٦١٨هـ/١٢٢١م) عندما أخذت العلاقات تتدهور بين أبناء الملك العادل والتي اسفرت عن بروز احلاف سياسية مع قوى خارجية كان لها أثراً سلبياً على وحدة الاسرة الأيوبية.

٥ - يمكن القول ان الملك المعظم عيسى يأتي في مقدمة ملوك بني ايوب بعد عمه صلاح الدين يوسف في عدد المؤسسات التعليمية التي أنشأها خلال فترة حكمه ، فقد انشأ ثلاثة مدارس وعمر وتم اثنتان فهو بذلك يحتل موقع الصدارة بين اخوته وأبناء عمومته في هذا المجال .

٦ - لقد تبين من خلال الدراسة حقيقة خطيرة برزت ولأول مرة في تلك الحقبة حيث قام الملك الكامل بن الملك العادل بالتحالف مع قوة صليبية ضد أخيه الملك المعظم بهدف إرغامه على إطاعته وهذا التحالف يعد سابقة لا مثيل لها في التاريخ الأيوبي حتى وفاة المعظم ، فلم يسبق لملك أيوبي ان تحالف مع ملك صليبي ضد طرف مسلم . وهذه الحالة ربما تعكس مدى التدهور في العلاقات بين الاخوة من أبناء العادل .

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر الأولية :

أ - المخطوطة :

- الحموي ، علي بن محمد بن علي (ت ٧٧٠هـ/١٣٦٨م) :
١- نثر الجمان في تراجم الاعيان ، مخطوطة مكتبة شيستريتي رقم (٤١١٣) ، دبلن ،
نسخة مصورة عنها بالمايكروفلم في المكتبة المركزية بجامعة الموصل رقم (٢٨٧) .

ب - المصادر :

- ابن الاثير ، عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) :
١- التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق : عبد القادر احمد طليمات ، القاهرة ، دار
الكتب الحديثة ، ١٩٦٣ .
٢- الكامل في التاريخ ، ط ٣ ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٠ .
- الاربلي ، الحسن بن احمد بن زفر (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م) :
٣- مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها ، تحقيق : محمد احمد دهمان ، دمشق ،
مطبعة الترقى ، ١٩٤٧ .
- الاصطخري ، ابراهيم بن محمد (ت ٣٤١هـ/٩٥١م) :
٤- المسالك والممالك ، تحقيق : محمد جابر عبد العال الحيني ، القاهرة ، دار
القلم ، ١٩٦١ .
- الاصفهاني ، أبو عبدالله محمد بن محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) :
٥- خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق : شكري فيصل ، دمشق ، المجمع العلمي
العربي ، ١٩٦٤ ، قسم شعراء الشام .
٦- الفتح القسي في الفتح القدسي ، القاهرة ، مطبعة الموسوعات ، ١٩٠٣ .

- ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) :
- ٧- عيون الانباء في طبقات الاطباء ، شرح وتعليق : نزار رضا ، بيروت ، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥ .
- الانباري ، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٧٧هـ/ ١١٨١م) :
- ٨- نزهة الالباء في طبقات الادباء ، تحقيق : ابراهيم السامرائي ، ط ٢ ، بغداد ، مكتبة الاندلس ، ١٩٧٠ .
- ابن اياس ، محمد بن محمد (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م) :
- ٩- بدائع الزهور في وقائع الدهور ، د.م ، مطابع الشعب ، ١٩٦٠ .
- الايوبي ، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) :
- ١٠- مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق : حسن حبشي ، القاهرة ، عالم الكتب، ١٩٦٨ .
- البديسي ، شرف خان (كان حيا سنة ١٥٠٠ هـ / ١٥٩٦م) :
- ١١- شرفنامه ، تحقيق : محمد علي عوني ، القاهرة ، دار الكتب العربية ، ١٩٥٨ .
- ابن بطوطة ، أبو عبدالله محمد بن ابراهيم (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) :
- ١٢- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (المشهور برحلة ابن بطوطة) ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٤ .
- البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) :
- ١٣- تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، د.ت .
- البنداري ، قوام الدين الفتح بن علي (ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٤م) :
- ١٤- سنا البرق الشامي ، تحقيق : رمضان ششن ، بيروت ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٧١ .
- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) :
- ١٥- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، مطابع كوستا توماس ، د.ت .
- ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) :
- ١٦- تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار (المشهور برحلة ابن جبير) ، بيروت ، دار صادر للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ .

- الجزيري ، عبد القادر محمد بن عبد القادر (كان حيا سنة ٩٧٦هـ / ١٥٦٨م)
- ١٧- درر الفوائد المنظمة في اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٦٣ .
- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) :
- ١٨- مناقب الامام احمد بن حنبل ، ط ٣ ، بيروت ، دار الافاق الجديدة ، ١٩٧٣ .
- ١٩- المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حيدر اباد ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٣٩ .
- حاجي خليفة ، مصطفى بن عبدالله (ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م) :
- ٢٠- كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، بغداد ، مكتبة المثنى ، د.ت .
- ابن حجر العسقلاني ، أبو الفضل احمد بن محمد (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) :
- ٢١- لسان الميزان ، حيدر اباد ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩١٢ .
- الحموي ، أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف (ت ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م) :
- ٢٢- تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان (المشهور بالتاريخ المنصوري) ، تحقيق: أبو العيد دودو ، دمشق ، مطبعة الحجاز ، ١٩٨١ .
- الحنبلي ، احمد بن ابراهيم (ت ٨٧٦هـ / ١٤٧١م) :
- ٢٣- شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ، تحقيق : ناظم رشيد ، بغداد ، دار الحرية، ١٩٧٩ .
- الحنبلي ، أبو اليمن مجير الدين (ت ٩٢٨هـ / ١٥٢١م) :
- ٢٤- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، تقديم : محمد بحر العلوم ، النجف ، المطبعة الحيدرية ، ١٩٦٨ .
- ابن حوقل ، أبو القاسم النصيبي (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) :
- ٢٥- صورة الارض ، لبنان ، مكتبة الحياة ، د.ت .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) :
- ٢٦- العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر (المشهور بتاريخ ابن خلدون) ، بيروت ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، د.ت .

- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) :
- ٢٧- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق : احسان عباس ، بيروت ، دار صادر، د.ت .
- الداوداري ، أبو بكر بن عبدالله بن ابيك (ت ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م) :
- ٢٨- كنز الدرر وجامع الغرر (المشهور بالدر المطلوب في اخبار بني ايوب) ، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٧٢ .
- الذهبي ، شمس الدين محمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) :
- ٢٩- تاريخ الاسلام ، تحقيق : بشار عواد معروف وآخرين ، بيروت ، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨ .
- ٣٠- دول الاسلام ، نشر : عبدالله بن ابراهيم الانصاري ، قطر ، دار احياء التراث الاسلامي ، ١٩٨٨ .
- ٣١- سير اعلام النبلاء ، تحقيق : بشار عواد ومحي هلال السرحان ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٦ .
- ٣٢- العبر في خبر من غبر ، تحقيق : أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، بيروت دار الكتب العلمية ، د.ت .
- الرهاوي :
- ٣٣- تاريخ الرهاوي المجهول ، تعريب : الاب البيرا ابونا ، بغداد ، مطبعة شفيق ، ١٩٨٦ .
- الزبيدي ، المرتضى (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م) :
- ٣٤- ترويح القلوب في ذكر الملوك بني ايوب ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، دمشق ، مجمع اللغة العربية ، ١٩٦٩ .
- ابن الساعي ، علي بن انجب تاج الدين (ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) :
- ٣٥- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ، تحقيق : مصطفى جواد ، بغداد ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٤ .

- سبط ابن الجوزي ، شمس الدين يوسف قز اوغلو (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) :
 ٣٦- مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، حيدر اباد ، مطبعة دائرة المعارف
 العثمانية ، ١٩٥٢ .
- السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) :
 ٣٧- طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق : محمد محمد الطناجي وعبد الفتاح محمد الحلو ،
 القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٧٠ .
- السيوطي ، جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) :
 ٣٨- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط ٢ ،
 القاهرة ، ١٩٧٩ .
- ٣٩- تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، بغداد ، مطبعة
 منير ، ١٩٨٣ .
- ٤٠- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ،
 القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٧ .
- أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسي (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م) :
 ٤١- تراجم رجال القرنين السادس والسابع (المشهور بالذيل على الروضتين) ، ط ٢ ،
 بيروت ، دار الجيل ، ١٩٧٤ .
- ٤٢- الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، بيروت ، دار الجيل ، د.ت .
- ابن شداد ، بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) :
 ٤٣- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة ، الدار
 المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٤ .
- ابن شداد ، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم الحلبي (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) :
 ٤٤- الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، تحقيق : سامي الدهان ، بيروت ،
 المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٣ .

- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن ابيك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) :
- ٤٥- تحفة ذوي الالباب في من حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب ، تحقيق : احسان بنت سعيد خلوصي وزهير حميدان الصمصام ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة ، ١٩٩٢ .
- ٤٦- الوافي بالوفيات ، تحقيق : هملتون ريتير ، ط ٢ ، فسادن ، دار النشر فرانزشتايز، ١٩٦٢ .
- ابن طولون ، شمس الدين محمد بن علي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م) :
- ٤٧- الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام (المشهور بقضاة دمشق)، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٦ .
- ٤٨- القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية ، تحقيق : محمد احمد الدهان ، دمشق ، مكتبة الدراسات الاسلامية ، ١٩٥٦ .
- ابن ظافر ، جمال الدين علي (ت ٦١٣هـ/١٢١٦م) :
- ٤٩- أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق : اندريه فريه ، القاهرة ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، د.ت .
- الظاهري ، غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٧م) :
- ٥٠- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تصحيح : بولس راويس ،باريس ، المطبعة الجمهورية ، ١٨٩٤ .
- ابن العديم ، كمال الدين عمر بن احمد (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م) :
- ٥١- زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق : سامي الدهان ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٨ .
- العصامي ، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك (ت ١١١١هـ/١٦٩٩م) :
- ٥٢- سمط النجوم العوالي في انباء الاوائل والتوالي ، القاهرة ، المطبعة السلفية، ١٩٦٠ .
- العمري ، ابن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) :
- ٥٣- مسالك الابصار في ممالك الامصار ، تحقيق : احمد زكي باشا ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٤ .

- ابن العميد ، المكين جرجيس (ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م) :
٥٤- اخبار الايوبيين ، دمشق ، المعهد الفرنسي ، ١٩٥٨ .
- ابن عنين ، شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) :
٥٥- ديوان ابن عنين ، تحقيق : خليل مردم بك ، دمشق ، المجمع العلمي العربي، ١٩٤٦ .
- الغساني ، أبو العباس اسماعيل بن العباس (ت ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م) :
٥٦- العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، تحقيق : شاكر محمود عبد المنعم ، بغداد ، دار البيان ، ١٩٧٥ .
- أبو الفداء ، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) :
٥٧- تقويم البلدان ، تصحيح : رينو والبارون ماك كوكين ديسلان ، باريس ، دار الطباعة السلطانية ، ١٨٤٠ .
- ٥٨- المختصر في اخبار البشر ، القاهرة ، المطبعة الحسينية المصرية ، د.ت .
- ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م) :
٥٩- تاريخ الدول والملوك (المشهور بتاريخ ابن الفرات) ، تحرير : حسن محمد الشماع ، البصرة ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٦٩ .
- ابن الفوطي ، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق (ت ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م) :
٦٠- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تحقيق : مصطفى جواد ، بغداد ، المكتبة العربية ١٩٣٢ .
- القرماني ، أبو العباس احمد بن يوسف (ت ١٠١٩هـ/ ١٧٠٧م) :
٦١- أخبار الدول واثار الأول في التاريخ ، بيروت ، عالم الكتب ، د.ت .
- ابن قطلو بغا ، أبو العدل زين الدين قاسم (ت ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م) :
٦٢- تاج التراجم في طبقات الحنفية ، بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٦٢ .
- القفطي ، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) :
٦٣- أنباه الرواة على انباه النحاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٢ .
- ابن القلانسي ، أبو يعلي حمزة (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) :

- ٦٤- ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، مطبعة الالباء اليسوعيين ، ١٩٨٠ .
- القلقشندي ، أبو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤٣١م) :
- ٦٥- صبح الاعشى في صناعة الانشا ، شرح وتعليق : محمد حسين شمس الدين ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧ .
- ٦٦- مآثر الانافة في معالم الخلافة ، تحقيق : عبد الستار احمد فراج ، بيروت ، عالم الكتب ، ١٩٦٤ .
- ابن كثير ، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) :
- ٦٧- البداية والنهاية ، ط٤ ، بيروت ، مكتبة المعارف ، ١٩٨٢ .
- الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م) :
- ٦٨- الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د. ت
- المقرئ ، تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) :
- ٦٩- درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة ، تحقيق : عدنان درويش محمد المصري ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة ، ١٩٩٥ .
- ٧٠- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٥ .
- ٧١- السلوك لمعرفة دول الملوك ، تصحيح : محمد مصطفى زيادة ، ط٢ ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٧ .
- ٧٢- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المشهور بالخطط المقرئية) ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، د. ت .
- الملك المعظم ، عيسى بن محمد بن ايوب (ت ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م) :
- ٧٣- الرد على الخطيب البغدادي ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٣٢ .
- المنذري ، زكي الدين محمد بن عبد المنعم (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) :
- ٧٤- التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق : بشار عواد معروف ، النجف ، مطبعة الآداب ، ١٩٧١ .
- ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) :

- ٧٥- لسان العرب ، اعداد وتصنيف : يوسف الخياط ، بيروت ، دار لسان العرب ، د.ت.
- ابن النديم ، محمد بن اسحاق بن محمد (ت ٣٨٥هـ/٩٩٧م) :
٧٦- الفهرست ، بيروت ، مكتبة خياط ، ١٩٦٤ .
- النسوي ، محمد بن احمد (ت ٦٣٩هـ/١٢٤١م) :
٧٧- سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، تحقيق : حافظ احمد حمدي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٣ .
- النعمي ، عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م) :
٧٨- الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق : ابراهيم شمس الدين ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٦٩ .
- النويري : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) :
٧٩- نهاية الارب في فنون الأدب ، القاهرة ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، د.ت .
- ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م) :
٨٠- مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، الاجزاء الثلاثة الاولى تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة ، دار القلم ، ١٩٥٧ .
- الجزء الرابع تحقيق : حسنين محمد ربيع ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٢ .
- ابن الوردي ، زين الدين عمر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) :
٨١- تنمة المختصر في اخبار البشر (المشهور بتاريخ ابن الوردي) ، النجف ، المطبعة الحيدرية ، ١٩٦٩ .
- أبو الوفا ، محي الدين بن محمد عبد القادر (ت ٧٧٥هـ/١٣٧٣م) :
٨٢- الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، حيدر اباد ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩١٣ .

- اليافعي ، أبو محمد عبد الله بن اسعد بن سليمان (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م) :
٨٣- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، ط ٢ ، بيروت،
مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، ١٩٧٠ .
- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) :
٨٤- معجم الادباء ، بيروت ، دار المستشرق ، د.ت .
٨٥- معجم البلدان ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، د.ت .
- اليونيني ، موسى بن محمد بن احمد (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) :
٨٦- ذيل مرآة الزمان ، حيدر اباد ، مطبعة دائرة المعارف الاسلامية ، ١٩٥٤ .

ثانيا - المراجع الثانوية :

أ- المراجع العربية :

- آلتونجي ، محمد :
١- المعجم الذهبي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٩ .
- الامام ، رشاد :
٢- مدينة القدس في العصر الوسيط ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٦ .
- الانباري ، عبد الرزاق علي :
٣- منصب قاضي القضاة في الدولة العباسية منذ نشأتها حتى نهاية العصر السلجوقي،
بيروت ،الدار العربية للموسوعات ، ١٩٨٧ .
- أبو بدر ، احمد شاكر :
٤- الحروب الصليبية والاسرة الزنكية ، بيروت ، الجامعة اللبنانية ، ١٩٧٢ .
- التكريتي ، محمود ياسين :
٥- الايوبيين في شمال الشام والجزيرة ، بغداد ، دار الرشيد ، ١٩٨١ .
- الجندي ، محمد سليم :
٦- تاريخ معرة النعمان ، تحقيق : عمر رضا كحالة ، دمشق ، مطبعة
الترقي ، ١٩٦٣ .

- حسين ، محسن محمد :
- ٧- اربل في العهد الاتابكي ، بغداد ، مطبعة اسعد ، ١٩٧٦ .
- الحصري ، محمد اديب آل تقي الدين :
- ٨- منتخبات التواريخ لدمشق ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٩ .
- حمادة ، محمد ماهر :
- ٩- الوثائق السياسية والادارية للعهود الفاطمية والاتابكية والايوبية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٠ .
- الحموي ، محمود ياسين :
- ١٠- دمشق في العصر الايوبي ، دمشق ، المطبعة الهاشمية ، د.ت .
- خليل ، عماد الدين :
- ١١- الامارات الارتقية في الجزيرة والشام ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٠ .
- ١٢- عماد الدين زنكي ، الموصل ، مطبعة الزهراء الحديثة ، ١٩٨٥ .
- دجاني ، هادية وبرهان الدين :
- ١٣- الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين ، بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٤ .
- الديوه جي ، سعيد :
- ١٤- تاريخ الموصل ، دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، ١٩٨٢ .
- الرويشدي ، سوادى عبد محمد :
- ١٥- امارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ ، بغداد ، مطبعة الارشاد ، ١٩٧١ .
- الزركلي ، خير الدين :
- ١٦- الاعلام ، ط٣ ، بيروت ، دن ، ١٩٦٩ .
- زكار ، سهيل :
- ١٧- حطين والفتح الصلاحي للقدس ، بيروت ، دار الفكر ، ٢٠٠٢ .
- سرور ، محمد جمال الدين :
- ١٨- مصر في عهد الدولة الفاطمية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠ .

- سعداوي ، حسان نضير :
١٩- الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ .
- ٢٠- المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢ .
- شلبي ، احمد :
٢١- موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، ط ٢ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٢ .
- الشيال ، جمال الدين :
٢٢- دراسات في التاريخ الاسلامي ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٤ .
٢٣- تاريخ مصر الاسلامية ، القاهرة ، دائرة المعارف ، ١٩٦٧ .
- شير ، أدبي :
٢٤- الالفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨ .
- الصابوني ، الشيخ احمد :
٢٥- تاريخ حماه ، حماه ، المطبعة الاهلية ، د.ت .
- ضيف ، شوقي :
٢٦- المدارس النحوية ، ط ٢ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨ .
- ظلمات ، عبد القادر احمد :
٢٧- مظفر الدين كوكبوري امير اربل ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٩٦٣ .
- العارف ، عارف باشا :
٢٨- تاريخ القدس ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥١ .

- عاشور ، سعيد عبد الفتاح :
- ٢٩- الحركة الصليبية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧١ .
- ٣٠- مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٢ .
- ٣١- الناصر صلاح الدين ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، د.ت.
- عبد الفتاح ، صفاء حافظ :
- ٣٢- نظم الحكم في الدولة العباسية ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٨٦ .
- العبود ، نافع توفيق :
- ٣٣- الدولة الخوارزمية نشأتها وعلاقاتها مع الدول الاسلامية ، بغداد ، مكتبة الجامعة، ١٩٧٨ .
- العريني ، الباز :
- ٣٤- الشرق الادنى في العصور الوسطى ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٧ .
- العسلي ، كامل جميل :
- ٣٥- معاهد العلم في بيت المقدس ، عمان ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، ١٩٨١ .
- علوان ، عبدالله ناصح :
- ٣٦- صلاح الدي الايوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين ، ط٤ ، القاهرة ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٣ .
- عمارة ، محمد :
- ٣٧- معارك العرب الحاسمة ضد الغزاة ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٥ .
- عمران ، محمود سعيد :
- ٣٨- الحملة الصليبية الخامسة (حملة جان دي برين على مصر) ، الاسكندرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ .

- الغامدي ، عبدالله سعيد محمد :
- ٣٩- صلاح الدين والصليبيين ، بيروت ، دار الندوة الجديدة ، ١٩٨٥ .
- غريال ، محمد شفيق :
- ٤٠- الموسوعة العربية الميسرة ، دم ، دار القلم ودار فرانكلين للطباعة والنشر، دت.
- غنيم ، اسمت :
- ٤١- الدولة الايوبية والصليبيون ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨ .
- قساطلي ، نعمان :
- ٤٢- الروض الغناء في دمشق الفيحاء ، ط٢ ، بيروت ، دار الرائد العربي ، ١٩٨٢ .
- القمي ، عباس :
- ٤٣- الكنى والألقاب ، ط٣ ، النجف ، المطبعة الحيدرية ، ١٩٦٩ .
- كحالة ، عمر رضا :
- ٤٤- معجم المؤلفين ، بيروت ، دار احياء التراث ، دت .
- كرد علي ، محمد :
- ٤٥- خطط الشام ، دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٢٧ .
- محاسنة ، محمد حسين وآخرون :
- ٤٦- دراسات في التاريخ الاسلامي ، اريد ، دار الأمل للنشر والتوزيع ، ١٩٩٠ .
- مؤنس ، حسين :
- ٤٧- اطلس تاريخ الاسلام ، سنغافوره ، مطابع تين واه ، ١٩٨٧ .
- نجم ، رائف يوسف وآخرون :
- ٤٨- كنوز القدس ، دم ، دن ، ١٩٨٣ .
- نوري ، دريد عبد القادر :
- ٤٩- سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة ، بغداد، مطبعة الارشاد، ١٩٧٦.

- اليوزبيكي ، توفيق سلطان :
- ٥٠- دراسات في النظم الاسلامية ، ط٢ ، الموصل ، دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٧٩.
- ٥١- الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية ، ط٢ ، الموصل ، دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٧٦ .

ب- الكتب المعرّبة :

- باركر ، آرنست :
- ١- الحروب الصليبية ، ترجمة : الباز العريني ، ط٢ ، بيروت ، دار النهضة العربية،د.ت.
- بخش ، خودا :
- ٢- الحضارة الاسلامية ، ترجمة : علي حسني الخربوطلي ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٠.
- جب ، هيملتون :
- ٣- صلاح الدين الايوبي ، ترجمة وتحرير : يوسف ايّيش ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣ .
- ٤- دراسات في حضارة الاسلام ، ترجمة : احسان عباس وآخرون ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٤
- ٥- دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة : محمد ثابت الفندي وآخرين ، طهران ، د.ن، ١٩٣٣.
- دوزي ، رينهارت :
- ٦- المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب ، ترجمة : اكرم فاضل ، بغداد ، مديرية الثقافة العامة ، ١٩٧١ .
- ٧- تكملة المعاجم العربية، ترجمة : محمد سليم النعيمي ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية ،د.ت.
- رنسيमान ، ستيفن :

٨- تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : الباز العريني ، ط٢ ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٨٠ .

- زامباور ، ادوارد فون :

٩- معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، اخرج زكي محمد حسن بك وحسن احمد محمود ، بيروت ، دار الرائد العربي ، ١٩٨٠ .

- سوفاجيه ، جان :

١٠- دمشق الشام لمحة تاريخية منذ اقدم العصور حتى العصر الحاضر ، ترجمة : فؤاد افرام البستاني ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٦ . .

- لين بول ، ستانلي :

١١- طبقات سلاطين الاسلام ، ترجمه للفارسية : عباس اقبال ثم ترجمه عن الفارسية إلى العربية : مكي طاهر الكعبي ، بغداد ، دار منشورات البصري ، ١٩٦٨ .

١٢- الدول الاسلامية ، ترجمة : محمد صبحي فرزات ، دمشق ، مكتب الدراسات الاسلامية ، د.ت .

- هاري. و. هازارد :

١٣- اطلس التاريخ الاسلامي ، ترجمة : ابراهيم زكي خورشيد ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، د.ت .

- هينس ، فالتر :

١٤- المكايل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمة : كامل العسلي ، منشورات الجامعة الاردنية ، عمان ، ١٩٧٠ .

ج - الرسائل الجامعية :

- خلف ، غانم عبدالله :
- ١- الحياة العلمية في بلاد الشام على عهد الايوبيين ، اطروحة دكتوراه (غير منشورة) ، كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ١٩٩٥ .
- الصائغ ، ذكرى عزيز محمد صالح :
- ٢- عصر الملك الكامل الايوبي ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٨ .
- ملا جاسم ، ناصر عبد الرزاق عبد الرحمن :
- ٣- صلاح الدين الايوبي في الدراسات الاستشرافية الانكليزية والامريكية ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ١٩٩٢ .

د - البحوث :

- الجومرد ، جزيل عبد الجبار ونزار محمد قادر :
- ١- "أثر الخلافة العباسية في تكوين العلاقات السياسية بين قوى الاطراف الاسلامية (٦٠٠-٦١٢هـ/١٢٠٣-١٢١٥م)" ، مجلة دراسات (العلوم الانسانية) ، مج ٢٤ ، ع ٢٤ ، عمان، ١٩٩٧ .
- ٢- "دور الخلافة العباسية في تشكيل العلاقات السياسية بين قوى الاطراف الاسلامية (٦١٢-٦٢٢هـ/١٢١٥-١٢٢٥م)" ، مجلة دراسات (العلوم الانسانية) ، مج ٢٤ ، ملحق، عمان ، ١٩٩٧ .
- رشيد ، ناظم :
- ٣- "التعليم في ظل الدولتين الزنكية والايوبية في الشام" ، مجلة آداب الرافدين ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ع ١٠ ، ١٩٧٩ .

- السوداني ، صادق حسن :
- ٤- "العلاقات الخارجية للخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر" ، مجلة المورد ، مج٢، ٤٤ ، بغداد ، ١٩٧٣ .
- شعث ، شوقي :
- ٥- "التراث المعماري في القدس الشريف بالعهد الايوبي ووسائل صيانتة وترميمه" ، بحوث الندوة العالمية حول القدس وتراثها الثقافي ، الرباط ، سنة ١٩٩٣ ، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة لسنة ١٩٩٥ .
- الطيباوي ، عبد اللطيف :
- ٦- "بعض المدارس الاسلامية في القدس الشريف" ، مجلة مجمع اللغة العربية ، مج٥٨، ج٢، دمشق ، ١٩٨٣ .
- عاشور ، سعيد عبد الفتاح :
- ٧- "الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي" ، المجلة التاريخية المصرية ، مج١١، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- عبو ، عادل نجم :
- ٨- "المدرسة في العمارة الايوبية في سوريا" ، مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية، مج٢٤ ، ج١ ، ١٩٧٤ .
- مالكي ، سليمان عبد الغني :
- ٩- "طريق حجاج الشام ومصر منذ الفتح الاسلامي إلى منتصف القرن السابع الهجري"، مجلة الدار ، ع١ ، الرياض ، ١٩٨٤ .
- هاشم ، عبد الهادي :
- ١٠- "المدرسة العادلية والمجمع العلمي العربي" ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج٦٣ ، ج٢ ، ١٩٨٨ .

هـ - المراجع الأجنبية :

- 1- The Encyclopaedia of Islam, by C.E Bosworth and others, Leiden, E.J. Brill, 1980 .

- Lane pool, Stanly :

- 2- A History Of Egypt in the middle ages, Holand, Frank cass & Co. LTD, 1968 .

- Stevenson, W. :

- 3- The Crusaders In The East, Beirut, Slim Press, 1988 .

ABSTRACT

Several Aiyubid rulers took the helm after the death of Saladin al-Aiyubi (1193 A.D. / 589A.H.). Those rulers played a significant role in the resistance against the Crusaders in (Biladu Al-Sham) and Egypt. al-Malik al-Mu'azzam ibn al-Malik al- Adil al-Aiyubi is considered one of the most outstanding administrators and statesmen of the Aiyubid dynasty. This monarch was entrusted with the government of Damascus since (1195 A.D./592 A.H.) and his term in office lasted up to (1227 A.D./624 A.H.), that is 32 years during which he was capable of safeguarding his dominions from all external threats. His extraordinary power in wielding the state's affairs and keeping it safe from aggression proved him to have both a remarkable political insight and an effective military prowess which he demonstrated alternately and as circumstances demand.

The reign of al-Mu'azzam in Damascus had witnessed numerous dangerous challenges posed by his cousins. Damascus was for many times the target of attacks driving at occupying its strongholds. However, unrest continued until the monarch's father al-Malik al-'Adil had obtained the upper hand, driving away all potential threats and rendering Damascus a safe haven for his son to rule.

Al-Malik al-Mu'azzam thereafter, launched many offensives against the Crusading centres in Bilad al-Sham, which were terminated by his son's launch against Akka in (1217 A.D./ 614 A.H). This campaign had resulted in the building of At-Tur Castle as a forward

defensive line and as a surveillance & strategic eagle-nest from which to watch enemies movements.

In (1218 A.D./ 615 A.H.) as the king al-Mu'azzam became the only master of Damascus, the Aiyubid state was targeted by the fiercest Crusade whose thrust rammed Egypt. It was the fifth Crusade which came out with the capture of Damietta. al-Malik al-Mu'azzam had in this war played a significant role as he spared no effort in extending help to his brother al-Malik al-Kamil Sultan of Egypt then. He succeeded at unifying the Muslim front until the storm calmed, the Crusade failed and Damietta was liberated and won to the Muslims' camp.

After the year (1220 A.D./ 619 A.H.), relations between al-Mu'azzam and his two brothers al-Kamil & al-Ashraf worsened and was characterized with tension. This had resulted in the conclusion of numerous pacts with some neighbouring Islamic powers in order to protect his kingdom from any attack that might be conjured up by his two brothers. Among those new allies was Jalaludin Minkabirti who was one of the closest allies of al-Malik al-Mu'azzam.

As for the cultural and architectural contributions, al-Malik al-Mu'azzam had ordered the establishment of many edifices and schools such as the two schools in Damascus and the three in Jerusalem.

**AL-Malik al-Mu'azzam Isa
al-Aiyubi & His Reign in Damascus
(1195 – 1227 A.D. / 592 – 624 A.H.)**

**A
Dissertation Presented
By
Mahdi Salih Farhan al-sulaivani
To**

**The Council of the college of Education
University of Mosul
In Partial Fulfillment of the requirements
for the Master Degree**

**In
Islamic History**

**Supervised By
Prof.**

Dr. Jazeel Abdul-Jabbar al-Jomard